

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾^(١). وأسند أبو محمد الدارمي في مسنده عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرءوا سورة هود يوم الجمعة». وروى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شئت! قال: «شيتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت». قال: هذا حديث حسن غريب، وقد روي شيء من هذا مرسلًا. وأخرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في «نوادير الأصول»: «حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا محمد بن بشر عن علي بن صالح عن أبي إسحق عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك قد شئت! قال: «شيتني هود وأخواتها». قال أبو عبد الله: فالفرع يورث الشيب وذلك أن الفرع يُذهل النفس فينشف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع، ومنه يفرق، فإذا انتشف الفرع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر وابتيض؛ كما ترى الزرع الأخضر يسقاه، فإذا ذهب سقاؤه يبس فأبيض؛ وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده، فالنفس تذهل بوعيد الله، وأحوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل. ويُشف ماءها ذلك الوعيد والهول^(٢) الذي جاء به؛ فمنه تشيب. وقال الله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(٣)، وإنما شابوا من الفرع. وأما سورة «هود» فلما ذكر الأمم، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه، فلو ماتوا من الفرع لحق لهم، ولكن الله تبارك وتعالى أسمه يَلطُف^(٤) بهم في تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه. وأما أخواتها فما أشبهها من السور؛ مثل «الحاقة» و«سأل سائل» و«إذا الشمس كورت»

(١) راجع ص ١٠٩ من هذا الجزء. وفي رواية عن ابن عباس أنها مكية كلها وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة.

(٢) في و: خوف. (٣) راجع ٤٨/١٩. (٤) في ع و: تلطف.

و «القارعة»، ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس، وتشتب منه الرؤوس. [قلت]^(١) وقد قيل: إن الذي شيب النبي ﷺ من سورة «هود» قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(٢) على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال يزيد بن أبان: رأيت رسول الله ﷺ في منامي فقرأت عليه سورة «هود» فلما ختمتها قال: «يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء». قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس: يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة؛ لأنك لو سميت امرأة يزيد لم تصريف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه. وعيسى بن عمر يقول: هذه هود بالتنوين على أنه أسم للسورة؛ وكذا إن سمي امرأة يزيد؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع، فقلت: هذه هود وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه: والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن، فلولاً أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه.

[١] ﴿الرَّ كُتِبَ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُمْ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١).

[٢] ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ إِنَِّّي لَكُمْ رَحِيمٌ وَبَشِيرٌ﴾^(٢).

[٣] ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾^(٣).

[٤] ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿الر﴾. تقدّم القول فيه^(٣). ﴿كِتَابٌ﴾ بمعنى هذا كتاب. ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ في موضع رفع نعت لكتاب. وأحسن ما قيل في معنى ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ قول قتادة؛ أي جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل. والإحكام منع القول من الفساد، أي نُظمت نظماً مُحْكَمًا لا يلحقها تناقض ولا خلل. وقال ابن عباس: أي لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل. وعلى هذا فالمعنى؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ. وقد تقدّم القول فيه^(٤).

(١) من ع. (٢) راجع ص ١٠٧ من هذا الجزء.

(٣) راجع ٣٠٤/٨. (٤) راجع ١٠/٤.

وقد يقع أسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلت طعام زيد؛ أي بعض طعامه. وقال الحسن وأبو العالية: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتَهُ﴾ بالأمر والنهي. ﴿ثُمَّ فَصَّلْتَ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بالحلال والحرام. مجاهد: أحكمت جملة، ثم بيّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها. وقيل: جمعت في اللوح المحفوظ، ثم فصلت في التنزيل. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ أنزلت نجماً نجماً لتتدبر. وقرأ عكرمة ﴿فُصِّلَتْ﴾ مخففاً أي حَكَمْتَ بالحق. ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ أي من عند. ﴿حَكِيمٌ﴾ أي محكم للأمور. ﴿خَبِيرٌ﴾ بكل كائن وغير كائن.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ قال الكسائي والفراء: أي بالآلة؛ أي أحكمت ثم فصلت بالآلة تعبدوا إلا الله. قال الزجاج: لثلاث؛ أي أحكمت ثم فصلت لثلاث تعبدوا إلا الله. قيل: أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي من الله. ﴿نَذِيرٌ﴾ أي مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه. ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه. وقيل: هو من قول الله أولاً وآخرأ؛ أي لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير؛ أي الله نذير لكم من عبادة غيره، كما قال: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عطف على الأول. ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. قال الفراء: «ثم» هنا بمعنى الواو؛ أي وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار. وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم. قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقد تقدّم هذا المعنى في «آل عمران»^(١) مستوفى. وفي «البقرة»^(٢) عند قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾. وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها؛ فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب. ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر. ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾

(١) راجع ٥٨/٤ و ٢١٠. (٢) راجع ١٥٦/٣.

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم. وقيل: يمتعكم يُعْمَرُكم؛ وأصل الإمتاع الإطالة، ومنه أمتع الله بك ومَتَّع. وقال سهل بن عبد الله: المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق، وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كلِّ مكروه وأمرٍ مخوف، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرْبِهَا؛ والأوّل أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُزِيلِ السَّمَاءَ عَنْكُمْ مِذْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾^(١) وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى. والله أعلم. قال مقاتل: فأبوا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فابتلوا بالفحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقذر والجيف والكلاب. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله. وقيل: ويؤت كل من فضلت حسناته على سيئاته «فَضْلُهُ» أي الجنة، وهي فضل الله؛ فالكناية في قوله: «فَضْلُهُ» ترجع إلى الله تعالى. وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمل به يده أو رجله، أو ما تطوّع به من ماله فهو فضل الله، يؤت به ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافراً. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي يوم القيامة، وهو كبير لما فيه من الأهوال. وقيل: اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره: و «تَوَلَّوْا» يجوز أن يكون ماضياً ويكون المعنى: وإن تَوَلَّوْا فقل لهم إني أخاف عليكم. ويجوز أن يكون مستقبلاً حذفت منه إحدى التاءين والمعنى: قل لهم إن تتولَّوْا فإنني أخاف عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي بعد الموت. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثواب وعقاب.

[٥] ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم. ﴿يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ أي يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف، قال ابن عباس: يخفون ما في صدورهم من الشُّحناء والعداوة، ويظهرون خلافه. نزلت في الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حُلُو الكلام حُلُو المنطق، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب، وينطوي له بقلبه على ما يسوء. وقال مجاهد: ﴿يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ شُكًا وأَمْتَاءً. وقال الحسن: ينتونها على ما فيها من الكفر. وقيل: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مرَّ بالنبي ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأ رأسه وغطى وجهه، لكيلا يراه النبي ﷺ فيدعوه إلى الإيمان؛ حكى معناه عن عبد الله بن شداد قاله في «مِنهُ» تعود على النبي ﷺ. وقيل: قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا، وأستغشينا ثيابنا، وثقينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟ فنزلت الآية. وقيل: إن قوماً من المسلمين كانوا يَتَشَكُّون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء، فبين الله تعالى أن التَّشَكُّ ما أشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهره من قول وعمل. وروى ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر قال سمعتُ ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتُونِي»^(١) صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ قال: كانوا لا يجامعون النساء، ولا يأتون الغائط وهم يُفَضُّون إلى السماء، فنزلت هذه الآية. وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس: «أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتُونِي صُدُورُهُمْ» بغير نون بعد الواو، في وزن تنطوي؛ ومعنى «تَنْتُونِي» والقراءتين الآخرين متقارب؛ لأنها لا تَنْتُونِي حتى يَشُوها. وقيل: كان بعضهم ينحني على بعض يساره في الطعن على المسلمين، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى. «لِيَسْتَخْفُوا» أي ليتواروا عنه؛ أي عن محمد أو عن الله.

(١) في الأصل: «تنتوي» بغير نون بعد الواو في وزن تنطوي، وهو يخالف ما في صحيح البخاري وتفسير الطبري عن محمد بن عباد، فلذا صوّناه عنهما؛ وأما رواية «تنتوي» المذكورة بالأصل فقد نسبها ابن عطية إلى ابن عينة، ويعضده ما في «إعراب القرآن» للنحاس حيث قال: وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس «أَلَا إِنَّهُمْ تَنْتُونِي صُدُورُهُمْ» بغير نون بعد الواو في وزن تنطوي... الخ، وهي العبارة الآتية بالأصل. وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط في النقل لا تتجه. راجع روح المعاني والبحر وتفسير ابن عطية.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يُغْطُونَ رءوسهم بثيابهم. قال قتادة: أخفى ما يكون العبد إذا خنى ظهره، وأستغشى ثوبه، وأضمر في نفسه همّه.

[٦] ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «ما» نفي و «مِنْ» زائدة و «دَابَّةٌ» في موضع رفع؛ التقدير: وما دابة. ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «على» بمعنى «من»، أي من الله رزقها؛ يدلّ عليه قول مجاهد: كل ما جاءها من رزق فمن الله. وقيل: «على» الله، أي فضلاً لا وجوباً. وقيل: وعد منه حقاً. وقد تقدّم بيان هذا المعنى في «النساء»^(١) وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء. «رِزْقُهَا» رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيراً من الدواب هلك قبل أن يُرزق. وقيل: هي عامة [في كل^(٢) دابة]: وكلّ دابة لم ترزق رزقاً تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بما قبل: أنه سبحانه أخبر برزق الجميع، وأنه لا يَغْفُل عن تربيته، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟! والدابة كل حيوان يدب. والرزق حقيقته ما يتغذى به الحي، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده. ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللبن ولا يقال: إن اللبن الذي في الثدي ملك للطفل. وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾^(٣) وليس لنا في السماء ملك؛ ولأن الرزق لو كان ملكاً لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه. وقد تقدّم في «البقرة»^(٤) هذا المعنى والحمد لله. وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرّحى يأتيها بالطّحين، والذي شدّق الأشداق هو خالق الأرزاق.

(١) راجع ٢٧٣/٥.

(٢) من ع.

(٣) راجع ٤١/١٧.

(٤) راجع ١٧٧/١ فما بعد.

وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرض له والسماء له ؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخاف الفقرَ واللّه رازقي ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليسْرِ
تَكْفُلُ بالأرزاقِ للخلقِ كُلّهم وللضَّبِّ في البِداءِ والحُوتِ في البحرِ

وذكر الثرمذي الحكيم في «نوادير الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعرين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله ﷺ في ذلك وقد أزمَلوا^(١) من الزاد ، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله ، فلما أنتهى إلى باب رسول الله ﷺ سمعه يقرأ هذه الآية : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فقال الرجل : ما الأشعريون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغوث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله ﷺ فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزاً ولحماً فأكلوا منها ما شاءوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله ﷺ ليقضي به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : أذهباً بهذا الطعام إلى رسول الله ﷺ فإننا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : «ما أرسلت إليكم طعاماً» فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله ﷺ فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله ﷺ : «ذلك شيء رزقكموه الله» .

(١) أزمَلوا من الزاد : أي نفد زادهم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قيل للفقير الترب .

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي من الأرض حيث تأوي إليه. ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي الموضع الذي تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن أبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما. وقال الربيع بن أنس: «مُسْتَقَرَّهَا» أيام حياتها. «وَمُسْتَوْدَعَهَا» حيث تموت وحيث تبعث. وقال سعيد بن جبير عن أبْنِ عَبَّاسٍ: «مُسْتَقَرَّهَا» في الرَّحِمِ، «وَمُسْتَوْدَعَهَا» في الصلب. وقيل: «يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا» في الجنة أو في النار. «وَمُسْتَوْدَعَهَا» في القبر؛ يدلّ عليه قوله تعالى في وصف أهل الجنة وأهل النار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^(١). «كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» أي في اللوح المحفوظ.

[٧] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدّم في «الأعراف»^(٢) بيانه والحمد لله. «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء. قال كعب: خلق الله يا قوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكناً، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنّها، ثم وضع العرش على الماء. وقال سعيد بن جبير عن أبْنِ عَبَّاسٍ: إنه سئل عن قوله عزّ وجلّ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» فقال: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متنّ الرّيح. وروى البخاريّ عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ. قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: «أقبلوا البشري يا بني تميم» قالوا: بَشَرْتَنَا فَأَعْطِنَا [مرتين]^(٣) فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «أقبلوا البشري يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قَبِلْنَا، جئنا لتتفق في الدّين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان^(٤)؟ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

(١) راجع ٨٢.

(٢) راجع ٢١٨/٧ فما بعد.

(٣) الزيادة عن صحيح البخاري.

(٤) في ع: نسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر.

في الذِّكْر كلَّ شيءٍ» ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطعُ دونها السَّرابُ؛ وأيمُ الله لو دُذْتُ أنها قد ذهبت ولم أتم.

قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خلق ذلك ليبتلى عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث. وقال قتادة: معنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [أيكم]^(١) أتم عقلاً. وقال الحسن وسفيان الثوري: أيكم أزهد في الدنيا. وذكر أن عيسى عليه السلام مرَّ برجل نائم فقال: يا نائم قم فتعبَّد، فقال: يا رُوح الله قد تعبَّدْتُ، فقال: «وبم تعبَّدْتُ؟» قال: قد تركت الدنيا لأهلها؛ قال: ثم فقد فقت العابدين. الضحك: أيكم أكثر شكرًا. مقاتل: أيكم أتقى لله. ابن عباس: أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل. وزوي عن ابن عمر أن النبي ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله» فجمع الأقاويل كلها، وسيأتي في «الكهف»^(٢) هذا أيضاً إن شاء الله تعالى. وقد تقدَّم معنى الابتلاء. ﴿وَلَيِّنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ أي دلت يا محمد على البعث. ﴿مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ وذكرت ذلك للمشركين لقالوا: هذا سحر. وكسرت «إِنْ» لأنها بعد القول مبتدأة. وحكى سيبويه الفتح. ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه، وبعده «لَيَقُولَنَّ» لأن فيه ضميراً. و «سِحْرٌ» أي غرور باطل، لبطلان السحر عندهم. وقرأ حمزة والكسائي «إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ» كناية عن النبي ﷺ.

[٨] ﴿وَلَيِّنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَيِّنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ اللام في «لَيِّنْ» للقسم، والجواب «لَيَقُولَنَّ». ومعنى «إِلَى أُمَّةٍ» إلى أجل معدود وحين معلوم؛ فالأمة هنا المدة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقاتدة وجمهور المفسرين. وأصل الأمة الجماعة؛ فعبر عن

(١) منع وو.

(٢) راجع ٣٠٣/١٠.

الحين والسنين بالأمّة لأن الأمّة تكون فيها. وقيل: هو على حذف المضاف والمعنى إلى مجيء أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك. أو إلى أنقراض أمّة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد أنقراضها من يؤمن. والامّة أسم مشترك يقال على ثمانية أوجه: فالأمّة تكون الجماعة؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾^(١). والامّة أيضاً اتباع الأنبياء عليهم السلام. والامّة الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾^(٢). والامّة الدّين والمِلّة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾^(٣). والامّة الحين والزمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾^(٤) والامّة القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه؛ يقال من ذلك: فلان حسن الأمّة أي القامة. والامّة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يُشركه فيه أحد؛ قال النبي ﷺ: «يُبْعَثُ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بِنِ قَيْلِ أُمَّةٍ وَحْدَةٍ»^(٥). والامّة الأم؛ يقال: هذه أمّة زيد، يعني أمّ زيد. «لَيَقُولُنَّ مَا يَخِسُّهُ» يعني العذاب؛ وقالوا هذا إما تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم، أو استعجالاً واستهزاء؛ أي ما الذي يحبسّه عنا. «أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» قيل: هو قتل المشركين ببدر؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي^(٦). «وَحَاقَ بِهِمْ» أي نزل وأحاط. «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» أي جزاء ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

[٩] ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾^(١).

[١٠] ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾^(١١).

[١١] ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسان أسم شائع^(٦) للجنس في جميع الكفار. ويقال: إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت. وقيل: في عبد الله بن

(١) راجع ٢٦٧/١٣. (٢) راجع ١٩٧/١٠ و ٦٢.

(٣) راجع ٧٤/١٦. (٤) راجع ص ٢٠١ من هذا الجزء.

(٥) (بيعت زيد أمّة) لأنه كان تيراً من أديان المشركين، وأمن بالنبي ﷺ قبل مبعثه.

(٦) في ع: جامع.

أَبِي أُمِّيَّةَ الْمَخْزُومِيَّ. ﴿رَحْمَةً﴾ أي نعمة. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي سلبناه إياها. ﴿إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ﴾ أي يائس من الرحمة. ﴿كَفُورٌ﴾ للنعم جاحد لها؛ قاله أبين الأعرابي. النحاس: ﴿لَيُؤُوسٌ﴾ من يئس يئأس، وحكى سيبويه يئس يئأس على فَعِلَ يفعل، ونظيره حَسِبَ يَحْسِبُ ونَعِمَ يَنْعِمُ، ويَأْسُ يَيْئُسُ^(١)؛ وبعضهم يقول: يئس يَيْئُسُ؛ ولا يعرف في الكلام [العربي]^(٢) إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِلَ يفعل؛ وفي واحد منها اختلاف. وهو يئس و «يؤوس» على التثنية كفخور للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَدْقْنَا نَعْمَاءَ﴾ أي صحة ورخاء وسعة في الرزق. ﴿بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ﴾ أي بعد ضر وفقر وشدة. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضر والفقر. ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ أي يفرح ويفخر بما ناله من السعة وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجل فاجر إذا افتخر - وفخور للمبالغة - قال يعقوب القاري: وقرأ بعض أهل المدينة «لَفَرَحَ» بضم الراء كما يقال: رجل فَطُنَّ وَحَذَرُ وَنُدُسُ. ويجوز في كلتا اللغتين^(٣) الإسكان لثقل الضمة والكسرة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني المؤمنين، مدحهم بالصبر على الشدائد. وهو في موضع نصب. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأول؛ أي لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة. وقال الفراء: هو استثناء من «وَلَئِنْ أَدْقْنَا» أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس يشمل الكافر والمؤمن؛ فهو استثناء متصل وهو حسن. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف. ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة.

[١٢] ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ

كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

[١٣] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ۖ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

(١) كذا في الأصول. ولعل الصواب: يس يسس: بالموحدة بعد الياء. وهو الحرف الرابع.

(٢) من ع. (٣) في ع: اللفظين.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ هم أن يدع سب آلهتهم فنزلت هذه الآية؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أي هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما سألوكم؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ؛ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١). وقيل: معنى الكلام النفي مع أستبعاد؛ أي لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي ﷺ: لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا لاتبعناك، فهم النبي ﷺ أن يدع سب آلهتهم؛ فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَصَافِيئُ بِهِ صَدْرُكَ﴾ عطف على «تَارِكٌ» و «صَدْرُكَ» مرفوع به، والهاء في «به» تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال: «صَافِيئُ» ولم يقل صَيِّقٌ ليشاكل «تَارِكٌ» الذي قبله؛ ولأن الصَّافِيَّ عارض، والصَّيِّقُ ألزم منه. «أَنْ يَقُولُوا» في موضع نصب؛ أي كراهية أن يقولوا، [أو لئلا يقولوا]^(٢) كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا﴾^(٣) أي لئلا تضلوا. أو لأن يقولوا. ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه؛ قاله عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي؛ فقال الله تعالى: يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ إنما عليك أن تنذرهم، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حافظ وشهيد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ «أم» بمعنى بل، وقد تقدّم في «يونس»^(٤) أي قد أزحت عِلَّتَهُمْ وإشكالهم في نبوتك بهذا القرآن، وَحَجَّجْتَهُمْ به؛ فإن قالوا: افتريته - أي اختلقته - فليأتوا بمثله مفترى بزعمهم. ﴿وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الكهنة والأعوان.

[١٤] ﴿فَالْتَمِ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي في المعارضة ولم تنهيا لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللسن البلاء، وأصحاب الألسن الفصحاء. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وأعلموا صدق محمد ﷺ، ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أن لا إله إلا هو فهل أنتم مُسْلِمُونَ استفهام معناه الأمر. وقد تقدّم القول في معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز في مقدمة الكتاب. والحمد لله. وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ وبعده. ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ولم يقل لك؛ ف قيل: هو على تحويل المخاطبة^(١) من الأفراد، إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضمير في «لكم» وفي «فَاعْلَمُوا» للجميع؛ أي فليعلم الجميع ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾؛ قاله مجاهد. وقيل: الضمير في «لكم» وفي «فاعلموا» للمشركين؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولا تهيات لكم المعارضة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾. وقيل: الضمير في «لكم» للنبي ﷺ وللمؤمنين، وفي «فاعلموا» للمشركين.

[١٥] ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ﴾ كان زائدة^(٢)، ولهذا جزم بالجواب فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ قاله الفراء. وقال الزجاج: ﴿مَنْ كَانَ﴾ في موضع جزم بالشرط، وجوابه ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ أي من يَكُنْ يريد؛ والأول في اللفظ ماض والثاني مستقبل، كما قال زهير:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَةِ يَلْقَاهَا وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بُسْلَمَ

وأختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ ف قيل: نزلت في الكفار؛ قاله الضحاك، واختاره النحاس؛ بدليل الآية التي بعدها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ أي من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق، لكن لا حسنة

(١) في ع: المخاطب.

(٢) قال في البحر: ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط «يريد» وكان يكون مجزوماً.

له في الآخرة. وقد تقدم هذا المعنى في «براءة»^(١) مستوفى. وقيل: المراد بالآية المؤمنون: أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عجل له الثواب ولم يُنقص شيئاً في الدنيا، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا، وهذا كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل ملة. وقيل: هو لأهل الرياء؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء: «صُتمتم وصلّيتم وتصدّقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال: «إنّ هؤلاء أول من تُسعر بهم النار». رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاءً شديداً وقال: صدق رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا﴾ وقرأ الآيتين، خرّجه مسلم [في صحيحه]^(٢) بمعناه والترمذي أيضاً. وقيل: الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن؛ قاله مجاهد وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى. وقال ميمون بن مهران: ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفي ثوابها؛ فإن كان مسلماً مخلصاً وُفي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافراً وُفي في الدنيا. وقيل: من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبي ﷺ وُفيها، أي وُفي أجر الغزاة ولم يُنقص منها؛ وهذا خصوص والصحيح العموم.

الثانية - قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات». وتدلّك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدلّ على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان في معناه.

الثالثة - ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التي في «الشورى» ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾^(٣) الآية. وكذلك ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾^(٤) قيدها وفسرها التي في «سبحان» ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾^(٥) إلى قوله: «مَحْظُوراً» فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) راجع ١٦١/٨. (٢) من ع و و. (٣) راجع ١٦/١٨.

(٤) راجع ٢٢٦/٤ فما بعد. (٥) راجع ٢٣٥/١٠ فما بعد.

في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أنها منسوخة بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾. والصحيح ما ذكرناه؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١) فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائماً على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾^(٢). والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدل الواجبات العقلية، ولا استحالة الكذب على الله تعالى؛ فاما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول؛ ويأتي في «النحل»^(٣) بيانه إن شاء الله تعالى.

[١٦] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ إشارة إلى التخليد، والمؤمن لا يُخلد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾^(٤) الآية. فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائي على الكفر. وقيل: المعنى ليس لهم إلا النار في أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة، وإما بالقبضة. والآية تقتضي الوعيد بسلب الإيمان؛ وفي الحديث [الماضي]^(٥) يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في «النساء»^(٤) ويأتي في آخر «الكهف»^(٦). ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم: وحذف الهاء؛ قال النحاس: هذا لا يحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أي وباطل عمله. وفي حرف أبي وعبد الله «وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وتكون «ما» زائدة؛ أي وكانوا يعملون باطلاً.

(١) راجع ٣٠٨/٢.

(٢) راجع ٤٢٢/٦.

(٣) راجع ١٢٧/١٠.

(٤) راجع ٤٢٢ و ٢٤٥/٥.

(٥) في الأصل (المعاصي) وهو تحريف، والمراد بالحديث الماضي حديث أبي هريرة المتقدم في

عمل المرائي «صتمم وصليتكم...».

(٦) راجع ٦٩/١١.

[١٧] ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ
إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَارُ
مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ۞ .

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أي أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبي ﷺ، ومعه من الفضل ما يتبين به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن. وكذلك قال ابن زيد: إن الذي على بينة هو^(١) من أتبع النبي محمدا^(١) ﷺ. ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ من الله، وهو النبي ﷺ. وقيل المراد بقوله: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ النبي ﷺ، والكلام راجع إلى قوله: ﴿ وَضَاقَتْ بِهِ صَدْرُكَ ﴾؛ أي أفمن كان معه بيان من الله، ومعجزة كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل - على ما يأتي - وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أن الله لا يُسْلِمُهُ. والهاء في «رَبِّهِ» تعود عليه. وقوله: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه جبريل؛ وهو قول مجاهد والنخعي. والهاء في «منه» لله عز وجل؛ أي ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل. وقال مجاهد: الشاهد ملك من الله عز وجل يحفظه ويسدده. وقال الحسن البصري وقتادة: الشاهد لسان رسول الله ﷺ. قال محمد بن علي بن الحنفية: قلت لأبي أنت الشاهد؟ فقال: وددت أن أكون أنا هو، ولكنه لسان رسول الله ﷺ. وقيل: هو علي بن أبي طالب؛ روي عن ابن عباس أنه قال: هو علي بن أبي طالب؛ وروي عن علي أنه قال: ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان؛ فقال له رجل: أي شيء نزل فيك؟ فقال علي: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾. وقيل: الشاهد صورة رسول الله ﷺ ووجهه ومخائله؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

النبي ﷺ علم أنه رسول الله ﷺ ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبي ﷺ ، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد؛ قاله الحسين بن الفضل ، فالهاء في « منه » للقرآن . وقال الفراء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ والهاء في « منه » لله عز وجل . وقيل : البينة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكِبَ في دماغه وأشرق صدره بنوره . « وَمِنْ قَبْلِهِ » أي من قبل الإنجيل . « كِتَابُ مُوسَى » رفع بالابتداء ، قال أبو إسحاق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبي ﷺ موصوف في كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ »^(١) . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوي عن الكلبي ؛ يكون معطوفاً على الهاء في « يَتْلُوهُ » والمعنى : ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريل كتاب موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . « إِمَامًا » نصب على الحال . « وَرَحْمَةً » معطوف . « أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » إشارة إلى بني إسرائيل ، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاه القشيري . والهاء في « به » يجوز أن تكون للقرآن ، ويجوز أن تكون للنبي ﷺ . « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ » أي بالقرآن أو بالنبي عليه السلام . « مِنَ الْأَحْزَابِ » يعني من الملل كلها ؛ عن قتادة ؛ وكذا قال سعيد بن جبير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . « فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ » أي هو من أهل النار ؛ وأنشد حسان :

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً فالنار موعدها والموت لاقيةا

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني [ثم يموت]»^(١) ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار. «فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ أَي فِي شَكٍّ. «مِنْهُ» أَي مِنَ الْقُرْآنِ. «إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» أَي الْقُرْآنُ مِنَ اللَّهِ؛ قَالَ مَقَاتِلُ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: الْمَعْنَى فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ فِي أَنَّ الْكَافِرَ فِي النَّارِ. «إِنَّهُ الْحَقُّ» أَي الْقَوْلُ الْحَقُّ الْكَائِنُ؛ وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُرَادُ جَمِيعُ الْمَكْلُفِينَ.

- [١٨] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.
- [١٩] ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» أَي لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُمْ لِأَنفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَأَصَابُوا كَلَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَزَعَمُوا أَنَّ لَهُ شَرِيكَاً وَوَلَدًا، وَقَالُوا لِلْأَصْنَامِ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ. «أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ» أَي يُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ. «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ» يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ؛ عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ؛ وَقَالَ سَفِيَانُ: سَأَلْتُ الْأَعْمَشَ عَنِ «الْأَشْهَادِ» فَقَالَ: الْمَلَائِكَةُ. الضَّحَّاكُ: هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ؛ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا»^(٢). وَقِيلَ: الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ الَّذِينَ بَلَّغُوا الرِّسَالَاتِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: عَنِ الْخَلَّاتِقِ أَجْمَعٍ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرِّزٍ عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِيهِ قَالَ: «وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَّاتِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ». «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» أَي بَعْدَهُ وَسَخَطُهُ وَإِبْعَادُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى الَّذِينَ وَضَعُوا الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

(١) زيادة عن صحيح مسلم.

(٢) راجع ١٩٧/٥.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن تكون «الَّذِينَ» في موضع خفض نعتاً للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ أي هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أعاد لفظ «هم» تأكيداً.

[٢٠] ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فائتين من عذاب الله. وقال ابن عباس: لم يُعْجِزُونِي أَنْ أَمَرَ الْأَرْضَ فَتَنْخَسِفَ بِهِمْ. ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني أنصاراً، و«مِنْ» زائدة. وقيل: «ما» بمعنى الذي تقديره أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿يُضَاعِفُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم. ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ «ما» في موضع نصب على أن يكون المعنى: بما كانوا يستطيعون السمع. ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره. والعرب تقول: جزيته ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه^(١):

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبٍ

ويجوز أن تكون «ما» ظرفاً، والمعنى: يضاعف لهم أبداً، أي وقت استطاعتهم السمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً. ويجوز أن تكون «ما» نافية لا موضع لها؛ إذ الكلام قد تم قبلها، والوقف على العذاب كافٍ؛ والمعنى: ما كانوا

(١) البيت لعمر بن معدى كرب الزبيدي. أردا (بالخير) فحذف ووصل الفعل ونصب. والنشب: المال الثابت كالضياح ونحوها. وقيل: النشب جميع المال؛ فيكون عطفه على الأول مبالغة وتأكيداً. (شواهد سيبويه).

يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سماعاً ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصاراً مهتداً. قال الفراء: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ. وقال الزجاج: لبغضهم النبي ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا^(١) عنه. قال النحاس: وهذا معروف في كلام العرب؛ يقال: فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقیلاً عليه.

[٢١] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

[٢٢] ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع عنهم افتراؤهم وتلف.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ للعلماء فيها أقوال: فقال الخليل وسيبويه: «لَا جَرَمَ» بمعنى حق، ف «لَا» و «جَرَمَ» عندهما كلمة واحدة، و «أَنَّ» عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس. قال المهدوي: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة، وهو قول الفراء أيضاً؛ ذكره الثعلبي. وقال الزجاج: «لَا» ها هنا نفي وهو رد لقولهم: إن الأصنام تنفعهم؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك، وجرم بمعنى كَسَبَ؛ أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وفاعل كسب مضمر، و «أَنَّ» منصوبة بجرم، كما تقول كَسَبَ جفاؤك زيدا غضبه عليك؛ وقال الشاعر:

نَصَبْنَا رَأْسَهُ فِي جِذْعِ نَخْلٍ^(٢) بِمَا جَرَمَتْ يَدَاهُ وَمَا أَعْتَدِينَا

أي بما كسبت. وقال الكسائي: معنى «لَا جَرَمَ» لا صد ولا منع عن أنهم. وقيل: المعنى لا قطع قاطع، فحذف الفاعل حين كثر استعماله؛ والجزم القطع، وقد جَرَمَ النَّخْلَ وأَجْتَرَمَهُ أي صَرَّمَهُ فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرِّمٌ وجُرَّامٌ وهذا زمن الجرام والجرام، وجَرَمْتُ صُوفَ الشاة أي جززته، وقد جَرَمْتُ منه أي أخذت منه؛ مثل جَلَمْتُ الشيء جَلَمًا أي قطعته،

(١) في ع: يفهموا.

(٢) في ع و ووى: في رأس جذع.

وَجَلَّمْتَ الْجَزُورَ أَجْلِمَهَا جَلَمًا إِذَا أَخَذْتَ مَا عَلَى عِظَامِهَا مِنَ اللَّحْمِ، وَأَخَذْتَ الشَّيْءَ بِجَلْمَتِهِ - ساكنة اللام - إِذَا أَخَذْتَهُ أَجْمَعَ، وَهَذِهِ جَلْمَةُ الْجَزُورِ - بالتحريك - أَي لَحْمِهَا أَجْمَعَ؛ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَزَعَمَ الْكِسَائِيُّ أَنَّ فِيهَا أَرْبَعَ لُغَاتٍ: لَا جَرَمَ، وَلَا عَنْ ذَا جَرَمَ، وَلَا أَنَّ ذَا جَرَمَ، قَالَ: وَنَاسٌ مِنْ فَرَّازَةَ يَقُولُونَ: لَا جَرَ أَنَّهُمْ بِغَيْرِ مِيمٍ. وَحَكَى الْفَرَّاءُ فِيهِ^(١) لُغَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ قَالَ: بَنُو عَامِرٍ يَقُولُونَ لَا ذَا جَرَمَ، قَالَ: وَنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقُولُونَ: لَا جُرْمَ بضم الجيم.

[٢٣] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» اسم «إِنَّ» و «آمَنُوا» صلة، أي صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصلة. قال ابن عباس: أخبتوا أنابوا. مجاهد: أطاعوا. قتادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن: الإخبات الخشوع للمخافة الثابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخَبَتِ وهو الأرض المستوية الواسعة؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عز وجل المستمرة ذلك على استواء. «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» قال الفرَّاء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى: وجهوا إخباتهم إلى ربهم. «أُولَٰئِكَ» خبر «إِنَّ».

[٢٤] ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿كَالْأَعْمَىٰ﴾ وما بعده. قال الأخفش: أي كمثل الأعْمَى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى]^(٢) والأصم، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فردَّ إلى الفريقين وهما أثنان؛

(١) في ع: فيها.

(٢) الزيادة عن النحاس.

روي معناه عن قتادة وغيره. قال الضحاك: الأعمى والأصم مثل للكافر، والسميع والبصير مثل للمؤمن. وقيل: المعنى هل يستوي الأعمى والبصير، وهل يستوي الأصم والسميع. ﴿مَثَلًا﴾ منصوب على التمييز^(١). ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في الوصفين وتنتظرون.

[٢٥] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

[٢٦] ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي ﷺ تنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم. ﴿إِنِّي﴾ أي فقال: إني؛ لأن في الإرسال معنى القول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «أَنِّي» بفتح الهمزة؛ أي أرسلناه بأني لكم نذير مبين. ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه^(٢)؛ كما قال: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي أتركوا الأصنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده. ومن قرأ «إِنِّي» بالكسر جعله معترضاً في الكلام، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا [إلا الله]. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾.

[٢٧] ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَنْتَبَحَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِادْوَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ قال أبو إسحق الزجاج: الملأ الرؤساء؛ أي هم مليئون بما يقولون. وقد تقدّم هذا في «البقرة»^(٤) وغيرها. ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾

(١) في ع، و، ي: على التفسير.

(٢) قال ابن عطية وفي هذا نظر، وإنما هي حكاية مخاطبة لقومه، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى مخاطبة، ولو كان الكلام أن أنذرهم أو نحوه لصح ذلك.

(٣) راجع ٢٨٠/٧. (٤) راجع ٢٤٣/٣.

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السَّفَلَةُ الذين يأكلون الدنيا بدينهم^(١)؛ قيل له: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذي يُصلح دنيا غيره بفساد دينه. وسئل علي رضي الله عنه عن السفلة فقال: الذين إذا اجتمعوا غلبوا؛ وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقيل لمالك بن أنس رضي الله عنه: مَنْ السفلة؟ قال: الذي يسب الصحابة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الأرذلون الحاكّة والحجامون. يحيى بن أَكْثَم: الدِّبَاغ والكتّاس إذا كان من غير العرب.

الرابعة - إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفِلَة، فقال: إن كنتُ منهم فأنتِ طالق؛ فحكى النقاش أن رجلاً جاء إلى الترمذي فقال: إن امرأتي قالت لي يا سَفِلَة، فقلت: إني كنتُ سَفِلَة فأنتِ طالق؛ قال الترمذي: ما صناعتك. قال: سماك؛ قال: سَفِلَة واللّه، سَفِلَة والله [سفلة]^(٢).

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلقي، وكذلك على قول مالك، وابن الأعرابي لا يلزمه شيء.

قوله تعالى: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. أي ظاهر الرأي، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدا يبدو إذا ظهر؛ كما قال:

فاليوم حين بَدَوْنَ للنَّظَارِ

ويقال للبرية بادية لظهورها. وبدا لي أن أفعل كذا، أي ظهر لي رأي غير الأول. وقال الأزهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي. ويجوز أن يكون ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحَقَّق أبو عمرو الهمزة فقراً: «بَادِئُ الرَّأْيِ» أي أول الرأي؛ أي أتبعوك حين ابتدءوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ لا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز. وانتصب على حذف «في» كما قال عز وجل: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾^(٣). ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي في أتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوته ﷺ. ﴿بَلْ نَطْمِئُكُمْ كَاذِبِينَ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه^(٤).

(١) كذا في ع، والذي في غيره بالإفراد.

(٢) من ي.

(٤) في ع و ي: به.

(٣) راجع ٢٩٤/٧.

- [٢٨] ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴾ .
- [٢٩] ﴿ وَيَقَوْمِ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِنُكْفِيَ عَنْكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ .
- [٣٠] ﴿ وَيَقَوْمِ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .
- [٣١] ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَوِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَيِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على يقين؛ قاله أبو عمران الجوني. وقيل: على معجزة؛ وقد تقدّم في «الأنعام»^(١) هذا المعنى. ﴿ وَأَنَا نِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي ﴾ أي نبوة ورسالة؛ عن ابن عباس؛ وهي رحمة على الخلق. وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: بالإيمان والإسلام. ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾^(٢) أي عميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها. يقال: عميت عن كذا، وعمي عليّ كذا أي لم أفهمه. والمعنى: فعُميت الرحمة؛ فقيل: هو مقلوب؛ لأن الرحمة لا تعمى إنما يُعمى عنها؛ فهو كقولك: أدخلت في القلنسوة رأسي، ودخل الخفّ في رجلي. وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي «فَعُمِّيَتْ» بضم العين وتشديد الميم على ما لم يُسمّ فاعله؛ أي فعماها الله عليكم؛ وكذا في قراءة أبي «فَعَمَّاها» ذكرها الماوردي. ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قيل: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الهاء ترجع إلى الرحمة. وقيل: إلى البيّنة؛ أي أنلزمكم قبولها، وأوجبها عليكم؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار؛ أي لا يمكنني أن أضطرّكم إلى المعرفة بها؛ وإنما قصد نوح عليه السلام

(١) راجع ٤٣٨/٦.

(٢) قراءة نافع.

بهذا القول أن يردّ عليهم. وحكى الكسائي والفرّاء «أَنْزَلَكُمْوَهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفاً؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه، وأنشد^(١):

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْبِبٍ إِنْمَاءً مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ

وقال النحاس: ويجوز على قول يونس [في غير^(٢)] القرآن أنزلكمها يجري المضمّر مجرى المظهر؛ كما تقول: أنزلكم ذلك. «وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» أي لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها. قال قتادة: والله لو أستطاع نبي الله نوح عليه السلام أنلزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ» أي على التبليغ، والدعاء إلى الله، والإيمان به [أجر^(٣) أي] «مَالاً» فيثقل عليكم. «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» أي ثوابي في تبليغ الرسالة. «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به، كما سألت قريش النبي ﷺ أن يطرد الموالي والفقراء، حسب ما تقدّم «في الأنعام»^(٤) بيانه؛ فأجابهم بقوله: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رَبِّهِمْ» يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بقاء الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصاص؛ أي لو فعلت ذلك لخاصموني عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازي من طردهم. «وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» في استردالكم لهم، وسؤالكم طردهم.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ» قال الفرّاء: أي يمنعني من عذابه. «إِنْ طَرَدْتُهُمْ» أي لأجل إيمانهم. «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»^(٥) أدغمت التاء في الذال. ويجوز حذفها فتقول: تَذَكَّرُونَ.

قوله تعالى: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ» أخبر بتدليله وتواضعه لله عزّ وجلّ، وأنه لا يدعي ما ليس له من خزائن الله؛ وهي إناعامه على من يشاء

(١) البيت لامرئ القيس، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله: (أشرب) في حال الرفع والوصل. احتقب الإثم واستحقبه احتمله. والواغل الداخل على الشراب ولم يدع له: يقول: حلت لي الخمر فلا آثم بشربها إذ قد وفيت بنذري فيها. وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثار أبيه.

(٢) الزيادة عن النحاس.

(٣) من ع وك وى.

(٤) راجع ٤٣١/٦ وما بعدها. (٥) قراءة نافع.

من عباده؛ وأنه لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل. ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة. وقد قالت العلماء: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، وأتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين. وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة»^(١). ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي تستثقل وتحقر أعينكم؛ والأصل تزدريهم حذف الهاء والميم لطول الاسم. والدال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل في تزدري تَزَرِّي، ولكن التاء تبدل بعد الزاي دالاً؛ لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها. ويقال: أَزَرَيْتُ عليه إذا عَيْبْتَهُ. وَزَرَيْتُ عليه إذا حَقَرْتَهُ. وأنشد الفراء:

يُباعِده الصديقُ وتَزْدَرِيهِ حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

﴿لَنْ يُؤَيِّتَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم، أو ينقص ثوابهم. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن قلت هذا الذي تقدّم ذكره. و «إِذَا» ملغاة؛ لأنها متوسطة.

[٣٢] ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُتِرَتْ جِدْلَانَا فَإِنَّا بِمَا نَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿قَالَ إِنَّمَا بِأَنبِئَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ عَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَجْعِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوخُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُتِرَتْ جِدْلَانَا﴾ أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها. والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة؛ مشتق من الجدل

وهو شدة القتل؛ ويقال لصقر أيضاً أجَدَل لشدته في الطير؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»^(١) بأشبع من هذا. وقرأ ابن عباس «فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا» ذكره النحاس. والجَدَل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله أنجح وأفلح، ومن رده خاب وخسر. وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم، وصاحبه في الدارين ملوم. «فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا» أي من العذاب. «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» في قولك.

قوله تعالى: «قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» أي إن أراد إهلاككم عذبكم. «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» أي بفاتنين. وقيل: بغالبيين بكثرتم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا ملأوا الأرض سهلاً وجبلاً على ما يأتي.

قوله تعالى: «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي» أي إبلاغي وأجتهادي في إيمانكم. «إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ» أي لأنكم لا تقبلون نصحاً؛ وقد تقدّم في «براءة»^(٢) معنى النصح لغة. «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» أي يضلّكم. وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصي العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يغوي الغاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله: «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ». وقد مضى هذا المعنى في «الفاحة» وغيرها^(٣). وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّناه في «الأعراف» في إغواء الله تعالى إياه حيث قال: «فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي»^(٤) ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام: «إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون عُزْواً كبيراً. وقيل: «أَنْ يُغْوِيَكُمْ» يهلككم؛ لأن الإضلال يُفْضي إلى الهلاك. الطبري: «يُغْوِيَكُمْ» يهلككم بعذابه؛ حكي عن طيء: أصبح فلان غاوياً أي مريضاً، وأغويته أهلكته؛ ومنه «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا»^(٥). «هُوَ رَبُّكُمْ» قاله الإغواء، وإليه الهداية. «وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ» تهديد ووعد.

(٢) راجع ٢٢٦/٨ فما بعد.

(١) راجع ٧٧/٧ و ١٧٤.

(٤) راجع ١٢٥/١١.

(٣) راجع ١٤٩/١ و ٢٠/٤.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون النبي ﷺ. أفترى أفعل؛ أي أختلق القرآن من قبل نفسه، وما أخبر به عن نوح وقومه؛ قاله مقاتل. وقال ابن عباس: هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم. ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي اختلقته وأفعلته، يعني الوحي والرسالة. ﴿فَعَلَيْ إِجْرَامِي﴾ أي عقاب إجرامي، وإن كنت مُحَقِّقًا فيما أقوله فعليكم عقاب تكذبي. والإجرام مصدر أجرم؛ وهو أفتراف الشبهة. وقيل [المعنى]^(١): أي جزاء جُزْمِي وكَسْبِي. وجَزَمَ وأَجْرَمَ بمعنى؛ عن النحاس وغيره. قال^(٢):

طَرِيدُ عَشِيرَةٍ وَرَهِينُ جُزْمٍ بما جَرَمَتْ يَدَيَّ وَجَنَى لِسَانِي

ومن قرأ «أجرامي» بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُزْمٍ؛ وذكره النحاس أيضاً. «وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ» أي من الكفر والتكذيب.

[٣٦] ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

[٣٧] ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ «أنه» في موضع رفع على أنه أسم ما لم يُسَمَّ فاعله. ويجوز أن يكون في موضع نصب، ويكون التقدير بـ «أنه». و «آمن» في موضع نصب بـ «يؤمن» ومعنى الكلام الإيأس من إيمانهم، وأستدامة كفرهم، تحقيقاً لنزول الوعيد بهم. قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾^(٣) الآيتين. وقيل: إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه: أعطني حجراً؛ فأعطاه حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فادماه؛ فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ

(١) من ع وى.

(٢) البيت للهيردان السعدي أحد لصوص بني سعد. (اللسان).

(٣) راجع ٣١٢/١٨.

إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴿٣٨﴾. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائساً؛ أي حزيناً. والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر:

وكم من خليلٍ أو حميمٍ رُزِئته فلم أبتئس والرُّزءُ فيه جليلٌ

يقال: أبتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه. والابتئاس حزن في استكانة.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي أعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك. «بِأَعْيُنِنَا» أي بمرأى منا وحيث نراك. وقال الربيع بن أنس: بحفظنا إياك حفظ من يراك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها. ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾^(١) ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٢). وقد يرجع معنى الأعين في هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال: ﴿وَلَتُضَنِّعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾^(٣) وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزّه عن الحواس والتشبيه والتكيف؛ لا ربّ غيره. وقيل: المعنى «بِأَعْيُنِنَا» أي بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابهِ. وقيل: «بِأَعْيُنِنَا» أي بعلمنا؛ قاله مقاتل: وقال الضحّاك وسفيان: «بِأَعْيُنِنَا» بأمرنا. وقيل: بوحينا. وقيل: بمعونتنا لك على صنعها. «وَوَحْيِنَا» أي على ما أوحينا إليك من صنعها. ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي لا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم.

[٣٨] ﴿وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾^(٤٨).

[٣٩] ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾^(٤٩).

[٤٠] ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ أي وطفق يصنع. قال زيد بن أسلم: مكث نوح ﷺ مائة سنة يَغرس الشجر ويقطعها ويبسها، ومائة سنة يعملها. وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال: بلغني أن قوم نوح مَلَكُوا الأرض، حتى مَلَكُوا السَّهْل والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء؛ فمكث نوح يَغرس الشجر مائة عام لعمل السفينة، ثم جمعها يبسها مائة عام، وقومه يسخرون؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان، وروى عن عمرو بن الحارث قال: عمل نوح سفينته ببقاع دمشق، وقطع خشبها من جبل لبنان. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: لما أَسْتَقْذَ الله سبحانه وتعالى مَنْ فِي الْأَصْلَاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه. «أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأصنع الفلك» قال: يا رب ما أنا بنجار، قال: «بلى فإن ذلك بعيني» فأخذ القدم فجعله بيده، وجعلت يده لا تُخطيء، فجعلوا يَمْرُون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً؛ فعملها في أربعين سنة.

وحكى الثعلبي وأبو نصر القشيري عن ابن عباس قال: أتخذ نوح السفينة في ستين. زاد الثعلبي: وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن أصنعها كجُؤْجُؤ الطائر. وقال كعب: بناها في ثلاثين سنة، والله أعلم. المهدوي: وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها. وأختلفوا في طولها وعرضها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعاً؛ وكانت من خشب الساج. وكذا قال الكلبي وقتادة وعكرمة كان طولها ثلثمائة ذراع، والذراع إلى المنكب. قاله سلمان الفارسي. وقال الحسن البصري: إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وحكاها الثعلبي في كتاب العرائس. وروى علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها، فأنطلق بهم حتى أنتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كُفّاً من ذلك التراب، قال أتدرون ما هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: [هذا كعب^(١) حام بن نوح] قال فضرب الكتيب بعصاه وقال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من^(٢) رأسه، وقد شاب^(٣)؛ فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا بل مكُّ وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمَّ شُبت. قال: أخبرنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، طبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. وذكر باقي الخبر^(٤) على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وقال الكلبي فيما حكاه النقاش: ودخل الماء فيها أربعة أذرع، وكان لها ثلاثة أبواب؛ باب فيه السباع والطيور، وباب فيه الوحش، وباب فيه الرجال والنساء. أبْن عباس جعلها ثلاث بطون؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب، والأوسط للطعام والشراب، وركب هو في البطن الأعلى، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضاً بين الرجال والنساء، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس؛ وكان إبليس معهم في الكوثل^(٥). وقيل: جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة فقال نوح: لا أحملكما؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء، فقلتا: احملنا فنحن نضمن لك ألا نضر أحداً ذَكَرك؛ فمن قرأ حين يخاف مَضَرَّتْهُمَا ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(٦) لم تضرَّاه؛ ذكره القشيري وغيره. وذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له مرفوعاً من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة». قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا ظَفَرَفَ﴾ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ. قال الأخفش والكسائي يقال: سَخَرْتُ به ومنه. وفي سخريتهم منه قولان: أحدهما - أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر، فيسخرّون به ويستهزئون ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً. الثاني - لما رآوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا: يا نوح

(١) كذا في الطبري والدر الميثور والكشاف، وفي الأصل (قبر سام بن نوح).

(٢) في ع: عن. (٣) في ع وى: شاخ.

(٤) جاء في البحر: وأختلفوا في هيتها من التريب والطول، وفي مقدار مدّة عملها، وفي المكان الذي عملت فيه، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء. وقال الفخر الرازي: اعلم أن هذه المباحث لا تعجبي، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً.

(٥) الكوثل: مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم. وقيل: هو السكّان. (٦) راجع ٩٠/١٥.

ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه. قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان. ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة. ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ غداً عند الغرق. والمراد بالسخرية هنا الاستجهال؛ ومعناه إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلونا.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تهديد، و «مَنْ» متصلة بـ «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» و «تعلمون» هنا من باب التعدية إلى مفعول؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب. ويجوز أن تكون «مَنْ» استفهامية؛ أي آيتنا يأتيه العذاب؟. وقيل: «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء و «يَأْتِيهِ» الخبر، و «يُخْزِيهِ» صفة لـ «عذاب». وحكى الكسائي: أن أناساً من أهل الحجاز يقولون: سو تعلمون؛ وقال من قال: «ستعلمون» أسقط الواو والفاء جميعاً. وحكى الكوفيون: سف^(١) تعلمون؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى ﴿وَيَجِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي يجب عليه وينزل به. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ اختلف في التنور على أقوال سبعة: الأول - أنه وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة؛ وذلك أنه قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت ومن معك. الثاني - أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنوراً من حجارة؛ وكان لحواء حتى صار لنوح؛ فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فأركب أنت وأصحابك. وأنبع الله الماء من التنور، فعلمت به أمراته فقالت: يا نوح فار الماء من التنور؛ فقال: جاء وعد ربي حقاً. هذا قول الحسن؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس. الثالث - أنه

(١) ورد في «اللسان»: قد قالوا سو يكون فحذفوا اللام، وسا يكون فحذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الخفة، وسف يكون فحذفوا العين.

موضع اجتماع الماء في السفينة؛ عن الحسن أيضاً. الرابع - أنه طلوع الفجر، ونور الصباح؛ من قولهم: نور الفجر تنويراً؛ قاله علي بن طالب رضي الله عنه. الخامس - أنه مسجد الكوفة؛ قاله علي بن أبي طالب أيضاً؛ وقاله مجاهد. قال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة. وقال: أتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الدّاخل مما يلي كندة. وكان فوران الماء منه علماً لنوح، ودليلاً على هلاك قومه. قال الشاعر وهو أمية:

فار تنورهم وجاش بماء صار فوق الجبال حتى علاها

السادس - أنه أعالي الأرض، والموضع المرتفعة منها؛ قاله قتادة.

السابع - أنه العين التي بالجزيرة «عين الورد» رواه عكرمة. وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وإنما كان بالشام بموضع يقال له: «عين وزّده» وقال ابن عباس أيضاً: فار تنور آدم بالهند. قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض؛ قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾^(١). فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. والفوران الغليان. والتنور اسم أعجمي عربته العرب، وهو على بناء فَعْل؛ لأن أصل بنائه تَنَر، وليس في كلام العرب نون قبل راء^(٢). وقيل: معنى «فَارَ التَّنُورُ» التمثيل لحضور العذاب؛ كقولهم: حَمِيَ الوطيس إذا اشتدت الحرب. والوطيس التنور. ويقال: فارت قدر القوم إذا اشتد حريقهم؛ قال شاعرهم:

تركتم قِدرَكم لا شيء فيها وقدرُ القوم حاميةٌ تُفُورُ

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني ذكراً وأنثى؛ لبقاء أصل النسل بعد الطوفان. وقرأ حفص: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ بتنوين «كل» أي من كل شيء زوجين. والقراءتان ترجعان إلى معنى واحد: [شيء]^(٣) معه آخر لا يستغني عنه. ويقال للاثنتين: هما زوجان، في كل اثنتين لا يستغني أحدهما عن صاحبه؛ فإن العرب تسمي كل واحد منهما زوجاً. يقال: له زوجان نعل إذا كان له نعلان. وكذلك عنده زوجا حمام، وعليه زوجا

(١) راجع ١٣١/١٧. (٢) قلت: ورد زنه: ملاء، وتزئر: دق، والسنر محركة: شراسة الخلق، وشئر عليه: عابه. (٣) من ع.

قيود؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(١). ويقال للمرأة هي زوج الرجل، وللرجل هو زوجها. وقد يقال للثنين هما زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضربين، والصنفين، وكل ضرب يدعى زوجاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(٢) أي من كل لون وصنف. وقال الأعشى:

وكل زوج من الديباج يلبسه أبو قدامة محبوباً بذاك معاً

أراد كل ضرب ولون. و﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ في موضع نصب بـ «أحمل». «أثنين» تأكيد. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي وأحمل أهلك. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ﴾. «من» في موضع نصب بالاستثناء. ﴿عَلَيْهِ الْقَرْءُ﴾ منهم أي بالهلاك؛ وهو أبنة كنعان وأمراة وإعلة كانا كافرين. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ قال الضحاك وابن جريج: أي أحمل من آمن بي، أي من صدقك؛ فـ «من» في موضع نصب بـ «أحمل». ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: آمن من قومه ثمانون إنساناً، منهم ثلاثة من بني؛ سام وحام ويافث، وثلاث كنانين^(٢) له. ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل. وورد في الخبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام أمراة في السفينة، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان. قال عطاء: ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيداً لولد سام ويافث. وقال الأعمش: كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنانين وثلاثة بنين؛ وأسقط امرأة نوح. وقال ابن إسحق: كانوا عشرة سوى نسايتهم؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعاً. و«قَلِيلٌ» رفع بآمن، ولا يجوز نصبه على الاستثناء؛ لأن الكلام قبله لم يتم، إلا أن الفائدة في دخول «إلا» و«ما» لأنك لو قلت: آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن؛ فإذا جئت بما وإلا، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم.

(١) راجع ١١٦/١٧ و ١٤/١٢.

(٢) الكنة (بالفتح): امرأة الابن أو الأخ.

- [٤١] ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يُجْرِيهَا وَمُزْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .
- [٤٢] ﴿وَهُنَّ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَقَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يُنَبِّئُ أَرْكَبَ مَعْنًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ .
- [٤٣] ﴿قَالَ سَنَأْوِي إِلَى جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ .
- [٤٤] ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءَهُ أَفْلَاحٍ وَغِيصَ الْمَاءُ وَغِيصَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا﴾ أمر بالركوب؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه. والركوب العلو على ظهر الشيء. ويقال: ركبته الذين. وفي الكلام حذف؛ أي أركبوا الماء في السفينة. وقيل: المعنى أركبوها. و«في» للتأكيد كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾^(١) وفائدة «في» أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها. قال عكرمة: ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب، وأستوت على الجودي لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قتادة وزاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه: من كان صائماً فليتم صومه، ومن لم يكن صائماً فليصمه. وذكر الطبري في هذا حديثاً عن النبي ﷺ أن نوحاً ركب في السفينة أول يوم من رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أرسى على الجودي، فصامه نوح ومن معه. وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، ومرت بالبيت فطافت به سبعة، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينله غرق، ثم مضت إلى اليمن ورجعت إلى الجودي فاستوت عليه.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُزْسَاهَا﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجرأها وإرساؤها؛ فمجرأها ومرساها في موضع رفع

بالبتداء؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب، ويكون التقدير: بسم الله وقت إجرائها ثم حذف وقت، وأقيم «مجرأها» مقامه. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا» بفتح الميم و «مُرْسَاهَا» بضم الميم. وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب «بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» بفتح الميم فيهما؛ على المصدر من جَرَتْ تَجْرِي جَرِيًّا وَمَجْرَى، وَرَسَتْ رُسُومًا وَمُرْسَى إذا ثبتت. وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَرِيّ وأبو رجاء العَطَارِدِيّ: «بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا» نعت لله عز وجل في موضع جر. ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ؛ أي هو مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا. ويجوز النصب على الحال. وقال الضحّاك: كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجْرَاهَا جَرَتْ، وإذا قال بسم الله مَرَسَاهَا رَسَتْ. وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن عليّ عن النبي ﷺ قال: «أَمَّا لَأَمْتِي مِنَ الْغُرُقِ إِذَا رَكَبُوا فِي الْفَلَكَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»^(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل؛ كما^(٢) بيّناه في البسملة^(٣)، والحمد لله. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لأهل السفينة. وروي عن ابن عباس قال: لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح أغمز ذنب الفيل، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث؛ فقال نوح: لو غمزت ذنب هذا الخنزير! ففعل، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة؛ فأوحى الله إلى نوح أن أمسح جبهة الأسد فمسحها، فخرج منها سِنُورَانُ فَأَكَلَا الْفَأْرَةَ. ولما حمل الأسد في السفينة قال: يا رب من أين أطعمه؟ قال: سوف أشغله، فأخذته أَلْحُمَى؛ فهو الدهر محموم. قال ابن عباس: وأول ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الإوزة، وآخر ما حمل حمل الحمار؛ قال: وتعلق إبليس بذنبه، ويده قد دخلتا في السفينة، ورجلاه خارجة بعده، فجعل الحمار يضطرب

(١) راجع ٢٧٧/١٥. (٢) في ع و و: على ما. (٣) راجع ٩٧/١.

ولا يستطيع أن يدخل، فصاح به نوح: أدخل ويلك! فجعل يضطرب؛ فقال: أدخل ويلك! وإن كان معك الشيطان؛ كلمة زلّت على لسانه، فدخل ووثب الشيطان فدخل. ثم إن نوحاً رآه يغثي في السفينة، فقال له: يا لعين ما أدخلك بيتي؟! قال: أنت أذنت لي؛ فذكر له؛ فقال له: قم فاخرج. قال: مالك بدّ في أن تحملني معك؛ فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان، واحدة مكان الشمس، والأخرى مكان القمر. أبن عباس: إحداهما بيضاء كبياض النهار، والأخرى سوداء كسواد الليل؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات.

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ الموج جمع موجة؛ وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح. والكاف للتشبيه، وهي في موضع خفض نعت للموج. وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعاً. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ قيل: كان كافراً وأسمه كنعان. وقيل: يام. ويجوز على قول سيبويه: «ونادى نوح ابنه» بحذف الواو من «ابنه» في اللفظ، وأنشد^(١):

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ

فأما «ونادى نوح ابنه»^(٢) «وكان» فقراءة شاذة، وهي مروية عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعروة بن الزبير. وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد «ابنها» فحذف الألف كما تقول: «ابنه»؛ فتحذف الواو. وقال النحاس: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها. «وكان في مغزل» أي من دين أبيه. وقيل: عن السفينة. وقيل: إن نوحاً لم يعلم أن ابنه كان كافراً، وأنه

(١) البيت للشماخ، والشاهد في (كانه) حذف الواو ضرورة. وتماه:

إذا طلب الوسيقة أو زمير

يصف حمار وحش هاتجاً يطلب وسيقته، وهي أنثاه التي يضمها ويجمعها؛ من وسقت الشيء أي جمعته. (شواهد سيبويه).

(٢) كذا في الشواذ، ويدل عليه ما يأتي عن أبي حاتم، وأما رسم ابنه بالواو فليس بشاذ.

ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ وسيأتي. وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق؛ وقبل رؤية اليأس، بل كان في أول ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح. وقرأ عاصم: «يَا بُنَيَّ أَزْكَبُ مَعَنَا» بفتح الياء، والباقون بكسرها. وأصل «يا بني» أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضاً أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضاً من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء. قال النحاس: أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بُنَيَّاه ثم يحذف؛ قال النحاس: رأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة. قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحداً من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يبدل من الياء ألفاً؛ قال الله عز وجل إخباراً: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾^(١) وكما قال الشاعر:

فيا عجباً من رَحَلها المتَحَمِّل

فيريد يا بنيّاه، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول: جاءني عبدا الله في الثنية. والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف. والكسر على أن تحذف الياء للنداء. والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيَ﴾ أي أرجع وأنضم. ﴿إِلَى جَبَلٍ يَغَصُّنِي﴾ أي يمنيني ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ فلا أغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار. وأنصب «عاصم» على التبرئة. ويجوز «لا عاصم اليوم» تكون لا بمعنى ليس. ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج. ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصماً بمعنى معصوم؛ مثل: ﴿مَاءٌ دَافِقٌ﴾^(٢) أي مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

(١) راجع ص ٦٩ من هذا الجزء. (٢) راجع ٤/٢٠.

بطيئُ القيامِ رخيماً الكلا م أنسى فؤادي به فاتياً
أي مفتوناً. وقال آخر^(١):

دع المكارم لا تنهض لبغيها وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي المطعوم المكسوّ. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون «مَن» في موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أي إلا الله. وهذا اختيار الطبري. ويحسن هذا أنك لم تجعل عاصماً بمعنى معصوم فتخرجه من بابهِ، ولا «إلاً» بمعنى «لكن». «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ» يعني بين نوح وأبنة. «فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ» قيل: إنه كان راكباً على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى الماء جاء قال: يا أبت فار التنور، فقال له أبوه: «يَا بُنَيَّ ازْكَبْ مَعَنَا» فما استتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجَةٌ عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحبل بينه وبين نوح فغرق. وقيل: إنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصن فيه من الماء، فلما فار التنور دخل فيه وأقفله^(٢) عليه من داخل، فلم يزل يتغوط فيه ويبول حتى غرق بذلك. وقيل: إن الجبل الذي آوى إليه «طور سيناء».

قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي» هذا مجاز لأنها موات. وقيل: جعل فيها ما تُمَيِّز به. والذي قال إنه مجاز قال: لو فُتِّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة رصفها، واشتمال المعاني فيها. وفي الأثر: إن الله تعالى لا يخلي الأرض من مطر في عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قط إلا بحفظ ملك موكل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملك. وذلك قوله تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَفَى الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ»^(٣) فجرت بهم السفينة إلى أن تنهى الأمر؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع. يقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ويبلغ يبلع مثل حميد يحمّد؛ لغتان حكاهما الكسائي والفراء. والبالوعة

(١) البيت للحطينة بهجو الزبرقان.

(٢) في ع: أغلقه.

(٣) راجع ٢٦٢/١٨.

الموضع الذي يشرب الماء. قال ابن العربي: التقى الماءان على أمر قد قدر، ما كان في الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتص الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط. وذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ وقيل: ميز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته^(١)، وصار ماء السماء بحاراً.

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي نقص^(٢)؛ يقال: غاض الشيء وغضته أنا؛ كما يقال: نقص بنفسه ونقصه غيره، ويجوز «غيض» بضم^(٣) الغين. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي أحكم وفرغ منه؛ يعني أهلك قوم نوح على تمام وإحكام. ويقال: إن الله تعالى أعقم أرحامهم أي أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير. والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان، كما هلك الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم. وحكى أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم صبي عليه؛ وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء أستوت على الجبل؛ فلما بلغ الماء رقبتهما رفعت يديها بأبنها حتى ذهب بها الماء؛ فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً لهم. الجودي جبل بقرب الموصل؛ استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه، شكرًا لله تعالى؛ وقد تقدّم هذا المعنى. وقيل: كان ذلك يوم الجمعة. وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتناولت، وبقي الجودي لم يتناول تواضعاً لله فاستوت السفينة عليه؛ وبقيت عليه أعوادها. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة». وقال مجاهد: تشامخت الجبال وتناولت لثلا ينالها

(١) في ع: فابتلعت.

(٢) في المصباح: غاض: نصب أي ذهب في الأرض.

(٣) أي بإشمام الكسرة الضم.

الفرق؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً، وتطامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورسّت السفينة عليه. وقد قيل: إن الجوديّ أسم لكل جبل؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيْل^(١):

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَاناً يَعُودُ لَهُ وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجَمْدُ

ويقال: إن الجوديّ من جبال الجنة؛ فلهذا أَسْتَوَتْ عليه. ويقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجوديّ بنوح، وطور سيناء بموسى، وجِراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

مسألة - لما تواضع الجوديّ وخضع عزّاً، ولما أرتفع غيره واستعلى ذلّاً، وهذه سُنَّة الله في خلقه، يرفع من تخشع، ويضع من ترفع؛ ولقد أحسن القائل:

وَإِذَا تَذَلَّلَ الرَّقَابُ تَخَشَعاً مِنَّا إِلَيْكَ فَعِرْهَا فِي ذُلِّهَا

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كانت ناقة للنبي ﷺ تُسَمَّى الْعَضْبَاءُ؛ وكانت لا تُسَبِّقُ؛ فجاء أعرابيّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِّحت العضباء! فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ حَقَّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرْفَعَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ». وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعُ أَحَدُ اللَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ». وقال ﷺ: «إِنْ اللَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». خرجه البخاريّ.

مسألة: نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة. ذكر الحافظ ابن عساكر في التاريخ له عن الحسن: أن نوحاً أوّل رسول بعثه الله إلى [أهل]^(٢) الأرض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^(٣). وكان قد كثرت فيهم المعاصي، وكثرت الجبابة وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، وكان صبوراً حليماً، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقي نوح؛ فكانوا يدخلون عليه

(١) نسه «اللسان» لامية بن أبي الصلت وفي («معجم الباقوت»): هو لزيد بن عمرو؛ وقيل: لورقة بن نوفل. وفي ع: الجمد. كخدم جمع خادم، ولعله الأشبه.

(٢) من ع. (٣) راجع ٣٣٢/١٣.

فيخنقونه حتى يترك وَيَقِيداً، ويضربونه في المجالس ويطرد؛ وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرار منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلفت رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾^(١). وقال مجاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وقال ابن عباس: إن نوحاً كان يضرب ثم يُلَفَّ في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يش من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يا بُنَيَّ أنظر هذا الشيخ لا يغرنك، قال: يا أبت أمكني من العصا، [فأمكنه]^(٢) فأخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مَوْضِحة في رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: «رَبِّ قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن؛ قال: ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي لا تحزن عليهم. ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا﴾ قال: يا رب وأين الخشب؟ قال: أغرس الشجر. قال: فغرس الساج عشرين سنة، وكفَّ عن الدعاء، وكفوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها؛ فقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: أجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كراس الديك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنبه كذنب الديك؛ وأجعلها مطبقة وأجعل لها أبواباً في جنبها، وشدها بدُسُرٍ، يعني مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صناعة السفينة، وجعلت يده لا تخطيء. قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأول، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما،

(١) راجع ١٨/٣٠٠.

(٢) من ع.

وجعل أولاد آدم أربعين رجلاً وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذر معه في الباب الأعلى لضعفها ألا تطأها الدواب.

قال الزُّهري: إن الله عزَّ وجلَّ بعث ريحاً فحمل إليه من كل زوجين اثنين؛ من السباع والطير والوحش والبهائم. وقال جعفر بن محمد: بعث الله جبريل فحشرهم، فجعل يضرب يديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة. وقال زيد بن ثابت: استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده في ذنبها؛ فمن ثم انكسر ذنبها فصار معقوفاً وبدا حياؤها. ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبها فستر حياؤها؛ قال إسحق: أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحاً حمل أهل السفينة، وجعل فيها من كل زوجين اثنين، وحمل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة في السفينة قبل أن تظهر الأرض، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكاناً، فلم يجد طيناً ولا تراباً، فرحمه ربه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه، فذلك الريش الناتئ في قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أفضية الهداهد. وقال رسول الله ﷺ: «كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة». وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره: أن نوحاً عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدجاج: أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها: أنت مختومة بخاتمي لا تطيري أبداً، أنت ينتفع بك أمتي؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه، ولذلك يقتل في [الحل]^(١) والحرَم ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت. وبعث الحمامة فلم تجد قراراً فوقعت على شجرة بأرض سيناء^(٢) فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرَم، فإذا الماء قد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاخضبت رجلاها، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت: بشراي منك أن تهب لي الطوق في عنقي، والخضاب في رجلي، وأسكنُ الحرَم؛ فمسح يده على عنقها وطوقها، ووهب لها الحمرة في رجليها، ودعا لها ولذريتها بالبركة. وذكر الثعلبي أنه بعث

(١) من و. (٢) كذا في و، وفي ع وأوجد: سبأ.

بعد الغراب التُّدْرَج^(١) وكان من جنس الدجاج؛ وقال: إياك أن تعتذر، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع، وأخذ أولاده عنده رهناً إلى يوم القيامة.

[٤٥] ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.

[٤٦] ﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

[٤٧] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ أي دعاه. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق؛ ففي الكلام حذف. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعني الصدق. وقال علماؤنا: وإنما سأل نوح ربه أبنه لقوله: ﴿وَأَهْلُكَ﴾ وترك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فلما كان عنده من أهله قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمناً في ظنه، ولم يك نوح يقول لربه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ إلا وذلك عنده كذلك؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم؛ وكان أبنه يُسِرُّ الكفر ويظهر الإيمان؛ فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب؛ أي علمت من حال أبنتك ما لم تعلمه أنت. وقال الحسن: كان منافقاً؛ ولذلك أستحل نوح أن يناديه. وعنه أيضاً: كان أبن أمراته؛ دليله قراءة عليّ ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَاهَا﴾. ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ابتداء وخبر. أي حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق.

(١) التدرج كجرج : طائر يغرد في البساتين بأصوات طيبة؛ وموطنه بلاد فارس. (حياة الحيوان).

الثانية - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [أي ليس^(١) من أهلك] الذين وعدتهم أن أنجيهم؛ قاله سعيد بن جبير. وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك؛ فهو على حذف مضاف؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الذين أقوى من [حكم]^(١) النسب. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي من الكفر والتكذيب؛ وأختره أبو عبيد. وقرأ الباقون ﴿عَمَلٌ﴾ أي أبنيك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف؛ قاله الزجاج وغيره. قال^(٢):

تَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا اذْكُرْتَ فَلِئِمَّا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

أي ذات إقبال وإدبار. وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد. ويجوز أن تكون الهاء للسؤال؛ أي إن سؤالك إياي أن أنجي عمل غير صالح. قاله قتادة. وقال الحسن: معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن أبنه. وكان لغير رشدة، وقاله أيضاً مجاهد. قال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان أبنه؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال: ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾ فقال: لم يقل مني، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن أمراته من زوج آخر؛ فقلت له: إن الله حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَتَهُ﴾ ولا يختلف أهل الكتابين أنه أبنه؛ فقال الحسن: ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب! إنهم يكذبون. وقرأ: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾^(٣). وقال ابن جريج: ناداه وهو يحسب أنه أبنه، وكان ولد على فراشه، وكانت أمراته خائنه فيه؛ ولهذا قال: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾. وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وأنه كان أبنه لصلبه. وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهم، وأنه كان أبنه لصلبه. وقيل لسعيد بن جبير يقول نوح: ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾ أكان من أهله؟ أكان أبنه؟ فسبح الله طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمداً ﷺ أنه أبنه، وتقول إنه ليس أبنه! نعم كان أبنه؛ ولكن كان مخالفاً في النية والعمل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ وهذا

(١) من ع.

(٢) البيت للخمساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها؛ وهو من قصيدة ترثي بها أخاها صخرأ.

(٣) راجع ٢٠١/١٨.

هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به، وإن قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ليس مما ينفي عنه أنه أبنه. وقوله: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ يعني في الدين لا في الفراش، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التَّنُورُ؛ فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التَّنُورُ، فهذه خيانتها. وخيانة الأخرى أنها كانت تدلّ على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله. والله أعلم. وقيل: الولد قد يسمى عملاً كما يسمى كُنباً، كما في الخبر «أولادكم من كُنبكم». ذكره القشيري.

الثالثة - في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين. وروي أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه، قال: فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات. وفيها أيضاً دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعاً، ومن أهل البيت؛ فمن وصّى لأهله دخل في ذلك أبنه، ومن تضمنه منزله، وهو في عياله. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(١) فسمى جميع من ضمه منزله من أهله.

الرابعة - ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما: أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذاً بظاهر الفراش. وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول: نرى رسول الله ﷺ إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام؛ ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد». وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» يريد الخيبة. وقيل: الترجم بالحجارة. وقرأ عروة بن الزبير: «وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَاهَا» يريد ابن أمراته، وهي تفسير القراءة المتقدمة عنه، وعن عليّ رضي الله عنه، وهي حجة للحسن ومجاهد؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لها. والله أعلم.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين؛ أي الآثمين. ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾^(١) أي يحذركم الله وينهاكم. وقيل: المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين. قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين؛ فـ ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [الآية]^(٢) وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذله وتواضعه. ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط من السؤال. ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ أي بالتوبة. ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي أعمالاً. فقال: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾.

[٤٨] ﴿قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي قالت [له]^(٣) الملائكة، أو قال الله تعالى له: اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض فقد أبتلت الماء وجفت. ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي بسلامة وأمن. وقيل: بتحية. ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أي نعم ثابتة؛ مشتق من برك الجمل وهو ثبوته وإقامته. ومنه البركة لثبوت الماء فيها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته؛ على قول قتادة وغيره، حسب ما تقدم؛ وفي التنزيل ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٤). ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ قيل: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة. ودخل في قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة؛ روي ذلك عن محمد بن كعب. والتقدير على هذا: وعلى ذرية أمم ممن معك، وذرية أمم ستمتعهم. وقيل: «من» للتبعض، وتكون لبيان الجنس. ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ارتفع ﴿وَأُمَمٌ﴾ على معنى وتكون أمم. قال الأخفش سعيد كما تقول: كلمت زيداً وعمرو جالس. وأجاز الفراء في غير القراءة وأمماً، وتقديره: ونمتع أمماً. وأعيدت «على» مع

«أُمَمٌ» لأنه معطوف على الكاف من «عَلَيْكَ» وهي ضمير المجرور، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره. وقد تقدّم في «النساء»^(١) بيان هذا مستوفى في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض. والباء في قوله: «سِلَاحٌ» متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال؛ أي أهبط مسلماً عليك. و «مِنَّا» في موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات. «وَعَلَى أُمَمٍ» متعلق بما تعلق به «عَلَيْكَ»؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف. و «من» في قوله: «مِمَّنْ مَعَكَ» متعلق بمحذوف؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم. و «مَعَكَ» متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة «لمن» أي ممن أستقر معك، أو آمن معك، أو ركب معك.

[٤٩] ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي تلك الأنباء، وفي موضع آخر «ذلك» أي ذلك النبا والقصص من أنباء ما غاب عنك. ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي لتقف عليها. ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان، والممجوس الآن ينكرونه. ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ خبر أي مجهولة عندك وعند قومك. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وإذابة القوم كما صبر نوح^(٢). وقيل: أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان [فإنه]^(٣) على الجملة. «فَاصْبِرْ» أي أصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من أذى العرب الكفار كما صبر نوح على [أذى]^(٢) قومه. ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

[٥٠] ﴿وَلِإِنْ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

[٥١] ﴿يَقَوْمِ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[٥٢] ﴿وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

[٥٣] ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِشَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

[٥٤] ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا يُسْوِئُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ إِلَهَ بَرِيءٍ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ .

[٥٥] ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ .

[٥٦] ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيئِنَّا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ .

[٥٧] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ ءَالِكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ سَيِّئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

[٥٨] ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ .

[٥٩] ﴿وَذَلِكَ عَادٌ جَعَلُوا بَنَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوُا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ .

[٦٠] ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ءَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ءَلَا بَعْدَ لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا، فهو معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ . وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم؛ كما تقول: يا أخا تميم. وقيل: إنما قيل له أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم؛ وقد تقدم هذا في «الأعراف»^(١) وكانوا عبدة الأوثان. وقيل: هم عادان، عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى؛ وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران في قوله تعالى: ﴿إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾^(٢). وعاد أسم

(١) راجع ٢٣٥/٧ فما بعد.

(٢) راجع ٤٤/٢٠.

رجل ثم أستمّر على قوم أنتمسوا إليه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾ بالخفض على اللفظ، و «غيره» بالرفع على الموضع، و «غيره» بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي ما أنتم في اتخاذكم إلهاً غيره إلا كاذبون عليه جلّ وعزّ.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ تقدّم معناه. والفطرة ابتداء الخلق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ تقدّم في أوّل السورة. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة. ﴿عَلَيْكُمْ مِذْرَارًا﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أي يرسل السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً؛ والعرب تحذف الهاء في مفعال على النسب، وأكثر ما يأتي مفعال من أفعّل، وقد جاء ها هنا من فَعَّلَ؛ لأنه من درّت السماء تَدِرُ وتَدُرُ فهي مدرار. وكان قوم هود - أعني عاداً - أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن كما تقدّم في «الأعراف»^(١). ﴿وَيَزِدُّكُمْ﴾ عطف على يرسل. ﴿قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ قال مجاهد: شدة على شدتكم. الضحاك: خصباً إلى خصبكم. علي بن عيسى: عزّاً على عزكم. عكرمة: ولداً إلى ولدكم. وقيل: إن الله حبس عنهم المطر [وأعقم الأرحام]^(٢) ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود: إن آمتم أحیی الله بلادكم ورزقكم المال والولد؛ فتلك القوة. وقال الزجاج: المعنى يزدكم قوّة في النعم. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي حجة واضحة. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إصراراً منهم على الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اغْتَرَاكَ﴾ أي أصابك. ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ أي أصنامنا. ﴿يَسُوءُ﴾ أي يجنون لسببك إياها، عن ابن عباس وغيره. يقال: عراه الأمر واعتراه إذا ألمّ به. ومنه ﴿وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾^(٣). ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ أي على نفسي. ﴿وَأَشْهَدُوا﴾

(١) رجع ٢٣٦/٧.

(٢) من ع وو.

(٣) راجع ٤٧/١٢.

أي وأشهدكم؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة، ولكنه نهاية للتقرير؛ أي لتعرفوا ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي من عبادة الأصنام التي تعبدونها. ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعاً﴾ أي أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري. ﴿ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ أي لا تؤخرون. وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى. وهو من أعلام النبوة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعاً﴾. وكذلك قال النبي ﷺ لقريش. وقال نوح ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾^(١) الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي نفس تدب على الأرض؛ وهو في موضع رفع بالابتداء. ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أي فلا تصلون إلى ضري. وكل ما فيه رُوح يقال له دابّ ودابة؛ والهاء للمبالغة. وقال الفراء: مالكةا، والقادر عليها. وقال القتيبي: قاهرها؛ لأن من أخذت ناصيته فقد قهرته. وقال الضحاك: يحييها ثم يميتها؛ والمعنى متقارب. والناصية قُصاص الشعر في مقدم الرأس. وتَصَوْتُ الرجل أَنْصَوْهُ نَصْوَاً أي مددت ناصيته. قال ابن جريج: إنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع؛ فيقولون. ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء. وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته ليعرفوا بذلك فخراً عليه؛ فحاطبهم بما يعرفونه في كلامهم. وقال الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد، ثم نظر إليها، ثم خلق خلقه، وقد نفذ بصره في جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة في نواصيهم فذلك النور آخذ بنواصيهم، يجريهم إلى أعمالهم المقدرة عليهم يوم المقادير. وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة». ولهذا

قويت الرسل وصاروا من أولي العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي، وأيقنوا أن جميع خلقه متقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظاً من الملاحظة أقواهم في العزم، ولذلك ما قوي هود النبي ﷺ حتى قال: ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا. وإنما سُمِّيت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوبة في المقادير، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة، ثم وضعت حركات كل من دب على الأرض حياً في جبهته بين عينيه، فسُمِّي ذلك الموضع منه ناصية؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدر؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها. ووصف ناصية أبي جهل فقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾^(١) يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة؛ فعلى سبيل ما تأولوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ. [والله أعلم]^(٢). ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال النحاس: الصراط في اللغة المنهاج الواضح؛ والمعنى أن الله جلّ ثناؤه وإن كان يقدر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق. وقيل: معناه لا خلل في تدبيره، ولا تفاوت في خلقه سبحانه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التاء لاجتماع تاءين. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ بمعنى قد بينت لكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾. وروي عن حفص عن عاصم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بالجزم حملاً على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾^(٣) في طغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئاً﴾ أي توليكم وإعراضكم. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ أي لكل شيء حافظ. «على» بمعنى اللام؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء.

(١) راجع ٢٠/١٢٤. (٢) من ع.

(٣) بالياء وسكون الراء قراءة. راجع ٧/٣٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا بهلاك عاد. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ لأن أحداً لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت له أعمال صالحة. وفي صحيح مسلم والبخاري وغيرهما عن النبي ﷺ «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه». وقيل: معنى ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ بأن بينا لهم الهدى الذي هو رحمة. وكانوا أربعة آلاف، وقيل: ثلاثة آلاف. ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي عذاب يوم القيامة. وقيل: هو الريح العقيم كما ذكر الله في «الذاريات»^(١) وغيرها وسيأتي. قال القشيري أبو نصر: والعذاب الذي يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم! لا يبعد أن يتلي الله نبياً وقومه فيعهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصاً للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ ابتداء وخبر. وحكى الكسائي أن من العرب من لا يصرف «عاداً» فيجعله اسماً للقبيلة. ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي كذبوا بالمعجزات وأنكروها. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هوداً وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(٢) يعني النبي ﷺ وحده؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه؛ وإنما جمعها هنا لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل. وقيل: عصوا هوداً والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل. ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي اتبع سقائهم رؤساءهم. والجبار المتكبر. والعنيد الطاغى الذي لا يقبل الحق ولا يذعن^(٣) له. قال أبو عبيد: العنيد والعنود والعائد والمعاند المعارض بالخلاف، ومنه قيل للعرق الذي ينفجر بالدم عائد. وقال الرازي:

إني كبير لا أطيق العُنْدَ^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي ألحقوها. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. أي وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

(١) راجع ٥٠/١٧. (٢) راجع ١٢٧/١٢. (٣) في ع: ينقاد. (٤) صدر البيت:

إذا رحلت فاجعلوني وسطاً

رَبُّهُمْ ﴿ قَالَ الْفَرَّاءُ: أَي كَفَرُوا نِعْمَةً رَبِّهِمْ؛ قَالَ: وَيُقَالُ كَفَرْتَهُ وَكَفَّرْتَ بِهِ، مِثْلُ شَكَرْتَهُ وَشَكَرْتَ لَهُ. ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أَي لَا زَالُوا مُبْعِدِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. وَابْعَدَ الْهَلَاكُ. وَابْعَدَ التَّبَاعِدُ مِنَ الْخَيْرِ. يُقَالُ: بَعُدَ يَبْعُدُ بُعْدًا إِذَا تَأَخَّرَ وَتَبَاعَدَ. وَيَبْعَدُ يَبْعُدُ بُعْدًا إِذَا هَلَكَ؛ قَالَ:

لَا يَبْعَدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ^(١)

وَقَالَ النَّابِغَةُ:

فَلَا تَبْعَدُنْ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا بِهِ الْحَالُ زَائِلٌ

[٦١] ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾^(١١) .

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ﴾ أي أرسلنا إلى ثمود ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي في النسب. ﴿صَالِحًا﴾. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿وَإِلَى ثَمُودَ﴾ بالتثنية في كل القرآن؛ وكذلك روي عن الحسن. وأختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع. وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث. قال النحاس: الذي قال أبو عبيدة - رحمه الله - من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثموداً يقال له حي؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة، بل الأمر على ضد ما قال عند سيبويه. والأجود عند سيبويه فيما لم يقل فيه بنو فلان الصَّرف؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة في ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى. والتأنيث جيد بالغ حسن. وأنشد سيبويه^(٢) في التأنيث:

غَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً وَكَفَى قَرِيشَ الْمُعْضِلَاتِ وَسَادَهَا

(١) تقدّم شرح البيت في هامش ١٤/٦. (٢) البيت لعدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حملاً على معنى القبيلة؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحي، وغلب ذلك عليها. (شواهد سيبويه).

الثانية - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدم. ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي ابتداء خلقكم من الأرض، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدم في «البقرة»^(١) و «الأنعام»^(٢) وهم منه. وقيل: أنشأكم في الأرض. ولا يجوز إدغام الهاء من «غيره» في الهاء من «هو» إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج. ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عمارها وسكانها. قال مجاهد: ومعنى «أَسْتَعْمَرَكُمْ» أعماركم من قوله: أَعْمَرَ فلان فلاناً داره؛ فهي له عُمُرَى. وقال قتادة: أسكنكم فيها؛ وعلى هذين القولين تكون أَسْتَفْعَل بمعنى أفعَل؛ مثل أَسْتَجَاب بمعنى أجاب. وقال الضحاك أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف. ابن عباس: أعاشكم فيها. زيد بن أسلم: أماركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار. وقيل: المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها.

الثالثة - قال ابن العربي قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضي أبو بكر: تأتي كلمة استفعل في لسان العرب على معان: منها: أَسْتَفْعَل بمعنى طلب الفعل كقوله: أَسْتَحْمَلْتُهُ أي طلبت منه حملاناً؛ وبمعنى أعتقد، كقولهم: استسهلت هذا الأمر أعتقدته سهلاً، أو وجدته سهلاً، وأستعظمت أي أعتقدته عظيماً ووجدته؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت، كقولهم: أَسْتَجَدْتُهُ أي أصبته^(٣) جيداً؛ ومنها بمعنى فعل؛ كقوله: قرّ في المكان وأستقرّ؛ وقالوا وقوله: «يَسْتَهْزِئُونَ» و «يَسْتَسْخِرُونَ» منه؛ فقوله تعالى: ﴿أَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته وأستسهلته؛ أي أصبته جيداً وسهلاً، وهذا يستحيل في الخالق، فيرجع إلى أنه خلق؛ لأنه الفائدة؛ وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازاً؛ ولا يصح أن يقال: إنه طلب من الله تعالى لعمارتها، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه، أما أنه يصح أن يقال: أنه أَسْتَدْعَى

(١) راجع ٢٧٩/١ فما بعد.

(٢) راجع ٢٨٧/٦ فما بعد.

(٣) في و: وجدته.

عمارته فإنه جاء بلفظ أستفعل، وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمراً، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة] ^(١).

قلت: لم يذكر أستفعل بمعنى أفعل، مثل قوله: استوفد بمعنى أوفد، وقد ذكرناه ^(٢)؛ وهي:

الرابعة - ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في «البقرة» ^(٣) في السُّكنى والرُّقْبى. وأما العُمَرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال: أحدها - أنها تمليك لمنافع الرقبة حياة المُعَمَّر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقبا فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته؛ هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول. الثاني - أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة ^(٤)؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري والحسن بن حيّ وأحمد بن حنبل وأبن شُبْرمة وأبي عُبيد؛ قالوا: من أَمَر رجلاً شيئاً فمات فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته؛ لأنه قد ملك رقبته، وشرط المعطي الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «العمرى جائزة» و«العمرى لمن وُهِبَ له». الثالث - إن قال عُمرُك ولم يذكر العقب كان كالقول الأول: وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني؛ وبه قال الزهريّ وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وابن أبي ذئب، وقد روي عن مالك؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ. والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعَمَّر؛ إذا انقرض عقب المُعَمَّر؛ إن كان المُعَمَّر حياً، وإلا فإلى من كان حياً من ورثته، وأولى الناس بميراثه. ولا يملك المُعَمَّر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمَرى المنفعة دون الرقبة. وقد قال مالك في الحبس أيضاً: إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه. وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العُمَرى قياساً، وهو ظاهر الموطأ. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ

(١) الزيادة عن ابن العربي. (٢) راجع ٢١٢/١ و ٢٩٩.

(٣) مبتولة: ماضية غير راجعة إلى الواهب، من بتله، قطعه وأبانه.

قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْمَرَ رَجُلًا عُمِرَى لَهُ وَلِعَقِبَهُ فَقَالَ قَدْ أُعْطِيَتْكُمَا وَعَقِبُكَ مَا بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ فَإِنَهَا لَمَنْ أُعْطِيَهَا وَأَنهَا لَا تَرْجِعُ إِلَى صَاحِبِهَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أُعْطِيَ عَطَاءً وَقَعَتْ فِيهِ الْمَوَارِيثُ». وعنه قال: إن العمري التي أجاز رسول الله ﷺ أن يقول: هي لك ولعقبك، فأما إذا قال: هي لك ما عشت فإنها ترجع إلى صاحبها؛ قال مَعْمَرُ؛ وبذلك كان الزَّهْرِيُّ يفتي.

قلت: معنى القرآن يجري مع أهل القول الثاني؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنى أعمركم؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ وبالعكس الرجل الفاجر؛ فالدنيا ظرف لهما حياة وموتاً. وقد يقال: إن الثناء الحسن يجري مجرى العقب. وفي التنزيل: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾^(١) أي ثناء حسناً. وقيل: هو محمد ﷺ. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٢) وقال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾^(٣).

الخامسة - قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام. ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ﴾ أي أرجعوا إلى عبادته. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أي قريب الإجابة لمن دعاه. وقد مضى في «البقرة»^(٤) عند قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي﴾ القول فيه.

[٦٢] ﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^(٥).

[٦٣] ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّي وَآتَيْنِي مِنهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُمْ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾^(٦).

(١) راجع ١١٢/١٣.

(٢) راجع ٨٩/١٥ و ١١٢.

(٣) راجع ٣٠٨/٢ فما بعد.

[٦٤] ﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

[٦٥] ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٦] ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾.

[٦٧] ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنَاحٍ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨] ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيداً قبل هذا؛ أي قبل دعوتك النبوة. وقيل: كان صالح يعيب آلهم ويشنئها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا: أنقطع رجاؤنا منك. ﴿أَتَنْهَانَا﴾ استفهام معناه الإنكار. ﴿أَنْ نَعْبُدَ﴾ أي عن أن نعبد. ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فإن في محل نصب بإسقاط حرف الجر. ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ وفي سورة «إبراهيم» ﴿وَإِنَّا﴾^(١) والأصل وإنا؛ فاستقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة. ﴿مِمَّا تَدْعُونَا﴾ الخطاب لصالح، وفي سورة «إبراهيم» ﴿تَدْعُونَنَا﴾^(٢) لأن الخطاب للرسول [صلوات الله وسلامه عليه]^(٣) ﴿إِلَهِ مُرَيْبٍ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة. قال الهذلي^(٤):

كُنْتُ إِذَا أَتَوْتُهُ مِنْ غَيْبٍ يَشُمُّ عَطْفِي وَيُزْزِي ثَوْبِي^(٤)
كَأَنَّمَا أَرَبْتُهُ بِرَيْبٍ

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ تقدم معناه في قول نوح. ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ استفهام معناه النفي؛ أي لا ينصرنني منه إن عصيته أحد. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي تضليل وإبعاد من الخير؛ قاله الفراء

(١) راجع ص ٣٤٤ من هذا الجزء. (٢) من ع.

(٣) هو خالد بن زهير الهذلي كما في «اللسان»؛ وصدر البيت الأول:

يا قوم مالي وأنا ذؤيب

(٤) (يز ثوبي): يجذبه إليه.

والتخسير لهم لا له ﷺ؛ كأنه قال: غير تخسير لكم لا لي. وقيل: المعنى ما تزيدوني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ نصب على الحال، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه في «هذه». وإنما قيل: ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل - على ما طلبوا - على أنهم يؤمنون. وقيل: أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكائبة^(١)، فلما خرجت الناقة - على ما طلبوا - قال لهم [نبي الله]^(٢) صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ أمر وجوابه؛ وحذفت النون من «فذروها» لأنه أمر. ولا يقال: وَذَرْ ولا وَادِرْ إلا شاذاً. وللنحويين فيه قولان؛ قال سيبويه: استغنوا عنه بترك. وقال غيره: لما كانت الواو ثقيلة وكان في الكلام فعل بمعناه لا واو فيه ألفوه؛ قال أبو إسحق الزجاج: ويجوز رفع «تأكل» على الحال والاستئناف. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ جزم بالنهي. ﴿بِسُوءٍ﴾ قال الفراء: بعقر. ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ جواب النهي. ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي قريب من عقربها.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ إنما عقربها بعضهم؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين. وقد تقدّم الكلام في عقربها في «الأعراف»^(٣). ويأتي أيضاً. ﴿فَقَالَ تَمَتُّعُوا﴾ أي قال لهم صالح تمتعوا؛ أي بنعم الله عز وجل قبل العذاب. «في داركم» أي في بلدكم، ولو أراد المنزل لقال في دوركم. وقيل: أي يتمتع كل واحد منكم في داره ومسكنه؛ كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾^(٤) أي كل واحد طفلاً. وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشيء؛ فعقرت يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثاً على ما تقدّم في «الأعراف» فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول، ثم أحمرت في الثاني، ثم أسودت في الثالث، وهلكوا في الرابع؛ وقد تقدّم في «الأعراف».

(١) كذا في والطبري، وفي التاج: كائبة: كرامة. وفي ك: الكائبة. (٢) من ع.

(٣) راجع ٢٤٠/٧ فما بعدها. (٤) راجع ١١/١٢ و ٣٣٠/١٥.

الثانية - استدَلَّ علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافرين إذا لم يُجمع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدّم في «النساء»^(١) ما للعلماء في هذا.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير كذب. وقيل: غير مكذوب فيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿تَجَيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ تقدّم. ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ونجبتناهم من خزي يومئذ؛ أي من فضيحتهم وذلتهم. وقيل: الواو زائدة؛ أي نجبتناهم من خزي يومئذ. ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع «لما» و «حتى» لا غير. وقرأ نافع والكسائي «يَوْمَئِذٍ» بالنصب. الباقر بالكسر على إضافة «يوم» إلى «إذ». وقال أبو حاتم: حدثنا أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ «وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ» أدغم الياء في الياء، وأضاف، وكسر الميم في «يومئذ». قال النحاس: الذي يرويه النحويون - مثل سيبويه ومن قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا - الإخفاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز، لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز كسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أي في اليوم الرابع صيح بهم فماتوا؛ وذكر لأن الصيحة والصياح واحد. قيل: صيحة جبريل. وقيل: صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا. وقال هنا: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ وقال في «الأعراف» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وقد تقدّم بيانه هناك^(٢). وفي التفسير: أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بفتة؟! قالوا: فما نصنع؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعددهم، وكانوا فيما يقال أثنى عشر ألف قبيلة، في كل قبيلة أثنى عشر ألف مقاتل، فوقفوا على الطرق والفجاج، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها،

(١) راجع ٣٥٧/٥.

(٢) راجع ٢٤٢/٧.

فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلّت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم. وجعل الماء يتفوّر^(١) من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره، فما زالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيباً لهم إلى أن غربت الشمس؛ فصيح بهم فأهلكوا. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ أي ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جئمت. ﴿أَلَا إِنَّ تُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتُمُودَ﴾ تقدّم معناه.

[٦٩] ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

[٧٠] ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسِلُنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾.

[٧١] ﴿وَأَمْرًا تَقَابِهُ فَصَحَّكَتْ بُشْرُهَا بِأَسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ اسْحَقَ يَعْقُوبُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ هذه قصة لوط عليه السلام، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام لَحًا^(٢)، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافاً. وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ قاله ابن عباس. الضحّاك: كانوا تسعة. السّدي: أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذوو وضاعة وجمال بارع. «بِالْبُشْرَى» قيل: بالولد. وقيل: بإهلاك قوم لوط. وقيل: بشروه بأنهم رسل الله عزّ وجلّ، وأنه لا خوف عليه. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ نصب بوقوع الفعل عليه؛ كما تقول: قالوا خيراً. وهذا اختيار الطبري. وأما قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً﴾^(٣) فالثلاثة أسم غير [قول]^(٤) مقول. ولو رفعاً جميعاً

(١) في ع: يفور. (٢) أي لازق النسب منه.

(٣) راجع ٣٨٢/١٠. (٤) من ع.

أو نصباً جميعاً «قالوا سلاماً قال سلام» جاز في العربية. وقيل: أنتصب على المصدر. وقيل: «قالوا سلاماً» أي فاتحوه بصواب من القول. كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١) أي صواباً: فسلاماً معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه ابن العربي وأختره. قال: ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبراً عن الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾^(٢) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾^(٣). وقيل: دَعَا لَهُ؛ والمعنى سَلِمْتَ سَلَاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ في رفعه وجهان: أحدهما - على إضمار مبتدأ أي هو سلام، وأمري سلام. والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر. وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله، فحذف الألف واللام كما حذفت من لا همّ في قولك اللهم. وقرئ «سِلْمٌ» قال الفراء: السِّلْم والسَّلَام بمعنى؛ مثل الجِلِّ والحلال.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فيه أربع عشر مسألة^(٤):

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾ «أن» بمعنى حتى، قاله كبراء^(٥) النحويين؛ حكاه ابن العربي. التقدير: فما لبث حتى جاء. وقيل: «أن» في موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير: فما لبث عن أن جاء؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل؛ فلما حذف حرف الجر بقي «أن» في محل نصب. وفي «لبث» ضمير أسم إبراهيم. و «ما» نافية؛ قاله سيبويه. وقال الفراء: فما لبث مجيئه؛ أي ما أبطأ مجيئه؛ فإن في موضع رفع، ولا ضمير في «لبث»، و «ما» نافية؛ ويصح أن تكون «ما» بمعنى الذي، وفي «لبث» ضمير إبراهيم و «أن جاء» خبر «ما» أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ. و ﴿حَنِيذٍ﴾ مشوي. وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار. يقال: حنذت الشاة أحنذها حنذاً أي شويتها، وجعلت فوقها حجارة مُحَمَّاةً لتضجها فهي حنيذ. و حَنَذَتِ الفرس أحنذها حنذاً، وهو أن تُحَضِرَهُ شوطاً أو شوطين ثم تُظَاهِرَ عليه الجلال في الشمس ليعرق، فهو محنوذ وحنيذ؛ فإن لم يعرق قيل: كَبَا. و حَنَذَ موضع قريب

(٢) راجع ص ٣١٢ من هذا الجزء.

(١) راجع ٦٧/١٣.

(٣) راجع ٢٨٤/١٥ فما بعد.

(٤) كذا في الأصل والمسائل المذكورة هي في آية ٧٠ و ٧١ أيضاً لا في هذه الآية فحسب.

(٥) في ع: أكثر.

من المدينة^(١). وقيل: الحَنِيز السَّمِيط. ابن عباس وغيره: حَنِيزٌ نَضِيجٌ. وحَنِيزٌ بمعنى محنوذ؛ وإنما جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله.

الثانية - في هذه الآية من أدب الضيف أن يُعَجَّلَ قِراءه، فيقدّم الموجود الميسّر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدَّةٌ، ولا يتكلف ما يضرّ به. والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين. وإبراهيم أول من أضاف على ما تقدّم في «البقرة»^(٢) وليست بواجبة عند عامة أهل العلم؛ لقوله ﷺ: «الضيافة ثلاثة أيام وجازئته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة». والجازئة العطية والصلة التي أصلها على التدب. وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وإكرام الجار ليس بواجب إجماعاً فالضيافة مثله. والله أعلم. وذهب الليث إلى وجوبها تمسكاً بقوله ﷺ: «ليلة الضيف حق» إلى غير ذلك من الأحاديث. وفيما أشرنا إليه كفاية، والله الموفق للهداية. قال ابن العربي: وقد قال قوم: إن وجوب الضيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ، وهذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت، والناسخ لم يرد؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدريّ خرجته الأئمة، وفيه: «فأسْتَضَفْنَاهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُونَا فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ» الحديث. وقال: هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً للآم النبي ﷺ القوم الذين أبوا، ولبيّن لهم ذلك.

الثالثة - اختلف العلماء فيمن يخاطب بها؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية. وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة. قال سُخْنُون: إنما الضيافة على أهل القرى وأما الحضر فالقُفْدُق ينزل فيه المسافر [حكى اللغتين^(٣) صاحب العين وغيره]. واحتجوا بحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الضيافة على أهل الوبر وليست على أهل المدّر». وهذا حديث لا يصح، وإبراهيم ابن أخي

(١) وحنيذ موضع قريب من مكة أيضاً.

(٢) راجع ٩٨/٢.

(٣) من و، فليتاُمَل.

عبد الرزاق متروك الحديث منسوب إلى الكذب، وهذا مما أنفرد به، ونسب إلى وضعه؛ قاله أبو عمر بن عبد البر. قال ابن العربي: الضيافة حقيقة فرض على الكفاية، ومن الناس من قال: إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات؛ ولا شك أن الضيف كريم، والضيافة كرامة؛ فإن كان غريباً فهي فريضة.

الرابعة - قال ابن العربي قال بعض علمائنا: كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب، وهذا حكم بالظن في موضع القطع، وبالقياس في موضع النقل؛ من أين علم أنه قليل؟! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل عليه السلام؛ وعجل لثلاثة عظيم؛ فما هذا التفسير لكتاب الله بالرأي؟! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه.

الخامسة - السنة إذا قُدِّم للضيف الطعام أن يبادر المقدم إليه بالأكل؛ فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول؛ فلما فقبضوا أيديهم نكروهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وروي أنهم كانوا يَنْكُتُونَ بِقَدَاحٍ^(١) كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم، فلما رأى ذلك منهم. ﴿نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أضمر. وقيل: أحس؛ والوجوس الدخول؛ قال الشاعر:

جاء البريدُ بقرطاسٍ يَحْبُثُ بِهِ فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعًا

«خِيفَةً» خوفاً؛ أي فزعاً. وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شراً؛ فقالت الملائكة ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

السادسة - من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة^(٢) لا بتحديد النظر. روي أن أعرابياً أكل مع

(١) قداح (جمع قدح بالكسر) السهم قبل أن ينصل ويراش.

(٢) في ع: أو مسارقة.

سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة فقال له: أزل الشعرة عن لقمته؛ فقال له: أنتظر إليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي؟! والله لا أكلت معك.

قلت: وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ [زِيَارَةِ] ^(١) بَاخِلٍ يَلَاحِظُ أَطْرَافَ الْأَكْبِيلِ عَلَى عَمْدٍ

السابعة - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: أنكرهم؛ تقول: نكرتك [وأنكرتك] ^(٢) واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر ^(٣):

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا

فجمع بين اللغتين. ويقال: نكرت لما تراه بعينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحق: قائمة تصلي. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ وَهُوَ قَاعِدٌ».

التاسعة - قوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقاً للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون:

وَإِنِّي لَأَتِي الْعَرْسَ عِنْدَ طُهُورِهَا وَأَهْجُرُهَا يَوْمًا إِذَا تَكُّ ضَاحِكَا

وقال آخر:

وَضِحْكُ الْأَرَانِبِ فَوْقَ الصَّفَا كَمَثَلِ دَمِ الْجَوْفِ يَوْمَ اللَّقَا

والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة؛ أخذ من قولهم: ضحكت الكافورة - وهي قشرة الطلعة - إذا انشقت. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجب؛ قال أبو ذؤيب:

(١) كذا في ع وى وفي العقد الفريد، وفي ك: ضيافة.

(٢) من أوع وك وو.

(٣) البيت للأعشى.

فجاءَ بمزجٍ لم يَرِ النَّاسُ مثله هو الضَّحْكُ^(١) إلا أنه عمل النَّحْلِ

وقال مقاتل: ضحكت من خوف إبراهيم، ورعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل. قال: وليس الضحك الحيز في اللغة بمستقيم. وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء: لم أسمع من ثقة؛ وإنما هو كناية، وروي أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه، فضحكت سارة عند ذلك فبشروها بإسحق. ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ أي قائمة في خدمتهم. ويقال: «قَائِمَةٌ» لروح إبراهيم «فَضَحِكَتْ» لقولهم: «لَا تَخَفْ» سروراً بالأمن. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير؛ المعنى: فبشرناها بإسحق فضحكت، أي ضحكت سروراً بالولد، وقد هربت؛ والله أعلم أي ذلك كان. قال النحاس فيه أقوال: أحسنها - أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رُسُلُ [الله]^(٢)، فرح بذلك، فضحكت أمرأته سروراً بفرحه. وقيل: إنها كانت قالت له: أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطاً إليك، فلما جاءت الرسل بما قالت سرّت به فضحكت؛ قال النحاس: وهذا إن صح إسناده فهو حسن. والضحك أنكشاف الأسنان. ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول: رأيت فلاناً ضاحكاً؛ أي مشرقاً. وأتيت على رَوْضَةٍ تضحك؛ أي مشرقة. وفي الحديث «إن الله سبحانه»^(٢) يبعث السحاب فيضحك أحسن الضحك. جعل أنجلاءه عن البرق ضحكاً؛ وهذا كلام مستعار. وروي عن رجل من قراء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي. «فَضَحِكْتَ» بفتح الحاء؛ قال المهدوي: وفتح «الحاء» من «فضحكت» غير معروف. وَضَحِكَ يَضْحَكُ ضَحْكَاً وَضَحْكَاً وَضَحْجاً [وَضَحْجاً]^(٣) أربع لغات. والضُّحْكة المرة الواحدة، ومنه قول كثير:

غَلِقْتُ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ^(٣)

قاله الجوهري.

(١) وفسر الضحك هنا بالعلس أو الشهد. راجع «اللسان» مادة (ضحك).

(٢) من ع.

(٣) صدر البيت:

العاشرة - روى مسلم عن سهل بن سعد قال: دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله ﷺ في عُزُسِه، فكانت أمراته يومئذٍ خادمهم وهي العُروس. قال سهل: أتدرون ما سقت رسول الله ﷺ؟ أنقعت له تمراتٍ من الليل في تَوْر^(١)، فلما أكل سقته إياه. وأخرجه البخاري وترجم له «باب قيام المرأة على الرجال في العُرس وخدمتهم بالنفس». قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العُروس زوجها وأصحابه في عُزُسِها. وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه، ويستخدمهن^(٢) لهم. ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب. والله أعلم.

الحادية عشرة - ذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاماً إلا بثمان؛ فقال لهم: «ثمّنه أن تذكروا الله في أوّله وتحمّدوه في آخره» فقال جبريل لأصحابه: بحق آتخذ الله هذا خليلاً. قال علماؤنا: ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل. وقد كان من الجائز كما يسّر الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسداً وهيئة أن يسر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشري فجأة]^(٣).

الثانية عشرة - ودلّ هذا على أن التسمية في أوّل الطعام، والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقي يوماً رجلاً، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم: سمّ الله، قال الرجل لا أدري ما الله؟ فقال له: فأخرج عن طعامي، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له: يقول الله إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة؛ فخرج إبراهيم فرعاً يجزّ رداءه، وقال: أرجع، فقال: لا أرجع حتى تخبرني لم تردّني لغير معنى؟ فأخبره بالأمر؛ فقال: هذا رب كريم، آمنّت؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمناً^(٤).

(١) التور: إناء تشرب فيه العرب، وقد يتوضأ منه، ويصنع من صفر أو حجارة.

(٢) في ع: يستخدمها.

(٣) الزيادة عن ابن العربي.

(٤) في ع: متمناً.

الثالثة عشرة - قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمنت سارة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبياً ويلد نبياً، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها.

الرابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر «يعقوب» بالنصب. ورفع الباقون؛ فالرفع على معنى؛ ويحدث لها من وراء إسحاق يعقوب. ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعمل في «من» كأن المعنى: وثبت لها من وراء إسحاق يعقوب. ويجوز أن يرتفع بالابتداء، ويكون في موضع الحال؛ أي بشروها بإسحاق مقابلاً له يعقوب. والنصب على معنى؛ ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب. وأجاز الكسائي والأخفش وأبو حاتم أن يكون «يعقوب» في موضع جرّ على معنى: وبشرناها من وراء إسحاق بـيعقوب. قال الفراء: ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قال سيبويه ولو قلت: مررت بزيد أول من أمس وأمس عمرو^(١) كان قبيحاً [خبيثاً]^(٢)؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو، كما تفرق بين الجار والمجرور؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو.

[٧٢] ﴿قَالَتْ يَتُوبَلَيَّ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ قال الزجاج: أصلها يا ويلتي؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخفّ من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها [ومن]^(٣) كون بعلا شيخاً لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر. و ﴿أَلِدُ﴾ استفهام معناه التعجب. ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ أي شيخه. ولقد عَجَزَتْ تَعَجَّرُ عَجْزاً وَعَجَّزَتْ تَعَجَّزاً؛ أي طعنت في السن.

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو).

(٢) كذا في أولك وع ووي.

(٣) من ع.

وقد يقال: عجوزة أيضاً. وعجزت المرأة بكسر الجيم؛ عظمت عجزيتها عَجْزاً وعَجْزاً بضم العين وفتحها. قال مجاهد: كانت بنت تسع وتسعين سنة. وقال ابن إسحاق: كانت بنت تسعين [سنة]^(١). وقيل غير هذا.

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي. ﴿شَيْخًا﴾ نصب على الحال، والعامل فيه التنبيه أو الإشارة. ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ ابتداء وخبر. وقال الأخفش: وفي قراءة ابن مسعود وأبي «وهذا بعلي شيخ» قال النحاس: كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا؛ وقائم خبر الابتداء. ويجوز أن يكون «هذا» مبتدأ «وزيد قائم» خبرين؛ وحكى سيويه: هذا حلّو حامض. وقيل: كان إبراهيم أبن مائة وعشرين سنة. وقيل: أبن مائة فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة. وقيل: إنها عرضت بقولها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي عن ترك غشيانها لها. وسارة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهي بنت عم إبراهيم. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي الذي بشرتموني به لشيء عجيب.

[٧٣] ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ لما قالت: ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ وتعجبت، أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله، أي من قضائه وقدره، أي لا عجب من أن يرزقكما الله الولد، وهو إسحاق. وبهذه الآية أستدل كثير من العلماء على أن الذبيح إسماعيل، وأنه أسن من إسحق؛ لأنها بشرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له يعقوب. وسيأتي الكلام في هذا؛ ويبانه في «الصفات»^(٢) إن شاء الله تعالى.

(١) من ع.

(٢) راجع ٩٨/١٥ فما بعد.

الثانية - قوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وحكى سيبويه «عليكم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء. وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخباراً أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، المعنى: أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت. وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُترجى ولم يتحصل بعد. ونصب ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه. وقيل: على النداء.

الثالثة - هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت: فدلّ هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت؛ فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي ﷺ؛ ممن قال الله فيهم: ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً﴾ وسيأتي^(١).

الرابعة - ودلّت الآية أيضاً على أن منتهى السلام «وَبَرَكَاتُهُ» كما أخبر الله عن صالحه عباده «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ». والبركة النموّ والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة. وروى مالك عن وهب بن كيسان أبي نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: كنت جالساً عند عبد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ ثم زاد شيئاً مع ذلك؛ فقال ابن عباس - وهو يومئذ قد ذهب بصره - من هذا؟ فقالوا اليماني الذي يغشاك، فعرفوه إياه، فقال: إن السلام أنتهى إلى البركة. وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي ﷺ في عصابة من أصحابه، فقلت: السلام عليكم؛ فقال: «وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشرة لك». قال: ودخلت الثانية؛ فقلت: السلام عليكم ورحمة الله فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وعشرون لك». فدخلت الثالثة فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في السلام سواء. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ أي محمود ماجد. وقد بينهما في «الأسماء الحسنى».

[٧٤] ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿٧٤﴾ .

[٧٥] ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِّهٌ﴾ ﴿٧٥﴾ .

[٧٦] ﴿يَتَذَكَّرُ إِبْرَاهِيمُ أَخْرُضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا بِهِ عَذَابٌ عَثِيرٌ مَّرْدُودٌ﴾ ﴿٧٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي الخوف؛ يقال: ارتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة:

فارتاع من صوتِ كلاب^(١) فبات له طوع الشوايم من خوف ومن صرد

﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ أي بإسحق ويعقوب. وقال قتادة: بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف. ﴿يُجَادِلُنَا﴾ أي يجادل رسلنا، وأضافه إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره. وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾^(٢) قال لهم: رأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرة - أو خمسة شك حميد - قالوا: لا. قال قتادة: نحواً منه؛ قال: فقال يعني إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم. وقيل إن إبراهيم قال: رأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾. وقال عبد الرحمن بن سُمرة: كانوا أربعمئة ألف. ابن جريج. وكان في قري قوم لوط أربعة آلاف ألف. ومذهب الأخفش والكسائي أن «يجادلنا» في موضع «جادلنا». قال النحاس: لما كان جواب «لما» يجب أن يكون بالماضي جعل المستقبل مكانه؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضي مكانه. وفيه جواب آخر - أن يكون «يجادلنا» في موضع الحال؛ أي أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفراء. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾.

(١) الكلاب: صاحب الكلاب. يصف الشاعر ثوراً وحشياً بأنه بات من الخوف الذي أدركه، والبرد الذي أصابه مبيت سوء، وميته على ذلك الحال يسر أعداءه.

(٢) راجع ٣٤١/١٣ فما بعد.

أَوَاهُ مُنِيبٌ ﴿١﴾ تقدم في «براءة»^(١) معنى «أَوَاهُ حَلِيمٌ». والمنيب الراجع؛ يقال: أناب إذا رجع. وإبراهيم عليه السلام كان راجعاً إلى الله تعالى في أموره كلها. وقيل: الأواه المتأوه أسفاً على ما قد فات قوم لوط من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابه لهم. ﴿وَلَهُمْ آيَاتُهُمْ﴾ أي نازل بهم. ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

[٧٧] ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

[٧٨] ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَفْقَهُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

[٧٩] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

[٨٠] ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

[٨١] ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِاهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ الْبَيْتِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

[٨٢] ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾

[٨٣] ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط - وهما تستقيان - بالملائكة

ورأنا هيئة حسنة؛ فقلنا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أيها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هذا الشيخ وأشارنا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿سَيِّئٌ بِهِمْ﴾ أي ساء مجيئهم؛ يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساء يسوء فهو متعد أيضاً، وإن شئت ضمنت السين؛ لأن أصلها الضم، والأصل سَوَّى بهم من السوء؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سَيِّئٌ بِهِمْ» مخففاً، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يَذَرع البعير بيديه في سيره ذَرْعاً على قدر سعة خَطْوِهِ؛ فإذا حُمِلَ على أكثر من طَوْقِهِ ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقه؛ فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوُسْع. وقيل: هو من ذَرَعه القِيء أي غلبه؛ أي ضاق عن حبسه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي شديد في الشر. وقال الشاعر:

وإِنَّكَ إِلَّا تُرَضِّ بَكَرَ بْنَ وَاثِلٍ يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِرَاقِ عَصِيبٌ

وقال آخر:

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعَصِيبُ الْأَبْطَالَ عَضِبَ الْقَوِيُّ السَّلَمَ الطَّوَالَ

ويقال: عَصِيبٌ وَعَصَبَنَصَبٌ على التكثير؛ أي مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أي عصب بالشر عَصَابَةً؛ ومنه قيل: عُصْبَةٌ وَعَصَابَةٌ أي مجتمعوا الكلمة؛ أي مجتمعون في أنفسهم. وعَصْبَةُ الرجل المجتمعون معه في النسب؛ وتعَصَّبْتُ لفلان صرت كعصْبته، ورجل معصوب^(١)، أي مجتمع الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهَرَّعُونَ إِلَيْهِ﴾ في موضع الحال. «يُهَرَّعُونَ» أي يسرعون. قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة؛ يقال: أهرع الرجل إهراعاً أي أسرع في رعدة من بَرَدٍ أو غضب أو حُمَى، وهو مُهَرَّعٌ؛ قال مُهْلِلٌ:

(١) في مفردات الراغب: ومعصوب الخلق أي مدمج الخلقة.

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ وَهُمْ أَسَارَى نَقُودُهُمْ عَلَى رَغَمِ الْأَنْوِفِ

وقال آخر:

بِمَعْجَلَاتٍ نَحْوَهُ مَهَارِعِ

وهذا مثل: أولع فلان بالأمر، وأرعيد زيد، وزُهي فلان. وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه. وقيل: أهرع أي أهرعه جرّسه؛ وعلى هذا «يُهْرَعُونَ» أي يُسْتَحْتَقُونَ عليه. ومن قال الأول قال: لم يسمع إلا أهرع الرجل أي أسرع؛ على لفظ ما لم يسم فاعله. قال ابن القوطية: هُرِعَ الإنسان هَرَعًا، وأهرع: سبق واستعجل. وقال الهروي يقال: هُرِعَ الرجلُ وأهرع أي أَسْتَحِثَّ. قال ابن عباس وقتادة والسّدي: «يُهْرَعُونَ» يهرولون. الضحاك: يَسْعَوْنَ. ابن عُيينة: كأنهم يدفعون. وقال شمر بن عطية: هو مشي بين الهرولة والجَمْزَى. وقال الحسن: مشي بين مشيين؛ والمعنى متقارب. وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً؛ وكذا وكذا؛ فحينئذ جاءوا يُهْرَعُونَ إليه. ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرث له. وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سدوم؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم؛ فقالوا: نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض - وقد كان الله عز وجلّ قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات - فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل. وقيل: من قبل لوط. ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي كانت عاداتهم إتيان الرجال. فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا

أضيافه قام إليهم لوط مدافعاً، وقال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ ابتداء وخبر. وقد اختلف في قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فقيل: كان له ثلاث بنات من صلبه. وقيل: بنتان؛ زيتا^(١) وزعوراء؛ فقيل: كان لهما سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما أبنتيه. وقيل: ندبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نسخ؛ فزوج رسول الله ﷺ بنتا له من عتبة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين. وقالت فرقة - منهم مجاهد وسعيد بن جبير - أشار بقوله: «بَنَاتِي» إلى النساء جملة؛ إذ نبي القوم أب لهم؛ ويقوي هذا أن في قراءة ابن مسعود: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» وهو أب لهم. وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا. وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ابتداء وخبر؛ أي أزوجكموهن؛ فهو أظھر لكم مما تريدون، أي أحلّ. والتطهر التنزه عما لا يحل. وقال ابن عباس؛ كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبههم، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته. وليس ألف «أظھر» للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح [الرجال]^(٢) طهارة، بل هو كقولك: الله أكبر وأعلى وأجلّ، وإن لم يكن تفضيلاً؛ وهذا جائز شائع^(٣) في كلام العرب، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه. وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد: أغلّ هُبْلُ^(٤) أغلّ هُبْلُ؛ فقال النبي ﷺ لعمر: «قل الله أعلى وأجلّ». وهبل لم يكن قط عالياً ولا جليلاً. وقرأ العامة برفع الراء. وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو «هُنَّ أَطْهَرُ» بالنصب على الحال. و «هُنَّ» عماد. ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون «هُنَّ» ها هنا عماداً، وإنما يكون عماداً فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك، لتدلّ بها على أن الأخ ليس بنعت.

(١) كذا في الأصول والألوسي، وفي الطبري: رثيا.

(٢) في الأصل (النساء) وهو تحريف.

(٣) في ع: سائغ.

(٤) أي أظھر دينك.

قال الزجاج: ويدلّ بها على أنّ كان تحتاج إلى خبر. وقال غيره: يدلّ بها على أن الخبر معرفة أو ما قارنها.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُوا فِي صَيِّفِي﴾ أي لا تهينوني ولا تذلّوني. ومنه قول حسان:

فأخزاك ربي يا عُتَيْبَ بْنَ مَالِكٍ ولَقَاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ إِحْدَى الصَّوَائِقِ
مددت يميناً للنبي تَعْمُداً ودَمَيْتَ فَاهُ قُطِعَتْ بِالْبَوَارِقِ

ويجوز أن يكون من الخَزَاية، وهو الحياء، والخجل؛ قال ذو الرُّمَّة:

خزاية^(١) أدركته بعد جولته من جانبِ الحبلِ مخلوطاً بها الغضب
وقال آخر:

من البيض لا تَخْزَى إذا الرِّيحُ أَصْقَتْ بها مِرْطَها أو زایلَ الحَلْيِ جِدَهَا
وضيف يقع للثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه في الأصل مصدر؛ قال الشاعر:

لا تَعْدَمِي الدهرَ شِفَارَ الجَاوِرِ لِلضَّيْفِ وَالضَّيْفِ أَحَقُّ زَائِرِ

ويجوز فيه التثنية والجمع؛ والأول أكثر كقولك: رجالٌ صَوْمٌ وفطر وَزَوْرٌ. وخزى الرجلُ خَزَايةً؛ أي أستحيا مثل ذلّ وهان. وخزى خزياً إذا افتضح؛ يَخْزَى فيهما جميعاً. ثم وبخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل: «رشيد» أي ذو رَشَد. أو بمعنى راشد أو مرشد، أي صالح أو مصلح. ابن عباس: مؤمن. أبو مالك: ناه عن المنكر. وقيل: الرشيد بمعنى الرشد؛ والرَّشْد والرَّشَاد الهدى والاستقامة. ويجوز أن يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ﴾ روي أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم، وكانت سنتهم أن من ردّ في خطبة امرأة لم تحل له أبداً؛ فذلك قوله تعالى:

(١) (خزاية) أي من الخزاية. والحبل هو حبل الرمل. والكلام في وصف ثور وحشي تطارده الكلاب. وقبله:

حتى إذا دَوّمت في الأرض راجعه كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب
يعني أن الثور أنف من الهرب فرجع إلى الكلاب.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ﴾ وبعد ألا تكون هذه الخاصية. فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هن قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ إشارة إلى الأضياف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عوناً على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي أنصاراً وأعواناً. وقال ابن عباس: أراد الولد. و«أن» في موضع رفع بفعل مضمر، تقديره: لو أوفق أو وقع. وهذا يطرد في «أن» التابعة لـ«لو». وجواب «لو» محذوف؛ أي لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون. ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ألجأ وأنضوي. وقرئ «أو آوِي» بالنصب عطفاً على «قوة» كأنه قال: «لو أن لي بكم قوة» أو إيواء إلى ركن شديد؛ أي وأن آوي، فهو منصوب بإضمار «أن». ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة. وبلغ بهم قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا: إن ركنك لشديد. وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» الحديث؛ وقد تقدم في «البقرة»^(١). وخرجه الترمذي وزاد «ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه». قال محمد بن عمرو: والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن. ويروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرسل: تنح عن الباب؛ فتنحى وانفتح الباب؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾^(٢). وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابَه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكره والتصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود،

(١) راجع ٣/٢٩٨.

(٢) راجع ١٧/١٤٣.

وإنا رسل ربك؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدم. وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عين من بُعد ومن قُرب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقاً، ولا أهدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط قوماً هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا. وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فستري؛ يتوعدونه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وأضطرابه ومدافعته عزفوه بأنفسهم، فلما علم أنهم رسلٌ مكن قومه من الدخول، فأمر جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا، وعلى أيديهم فجفت. ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي بمكرهه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قرىء «فأسر» بوصل الألف وقطعها؛ لغتان فصيحتان. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾^(١) وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾^(٢) وقال النابغة: فجمع بين اللغتين:

أسرث^(٣) عليه من الجوزاء ساريةً تُزجي الشمال عليه جامد البرد

وقال آخر:

حَيَّ النَّصِيرَةَ رَبَّةَ الْخِذْرِ أسرث إليك ولم تكن تسري

وقد قيل: «فأسر» بالقطع إذا سار من أول الليل، وسرى إذا سار من آخره؛ ولا يقال في النهار إلا سار. وقال لبيد:

إذا المرء أسرى ليلة ظنَّ أنَّه قضى عملاً والمرء ما عاش عامل

وقال عبد الله بن رَوَاحَة:

عند الصُّباح يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى وتنجلي عنهم غَيَابَاتُ الْكَرَى

﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل. الضحاك: ببقية من الليل. قتادة: بعد مضي صدر من الليل. الأخفش: بعد جنح من الليل. ابن الأعرابي: بساعة من الليل. وقيل: بظلمة من الليل. وقيل: بعد هدوء من الليل. وقيل: هزيع

(١) راجع ٤٢/٢٠. (٢) راجع ٢٠٤/١٠.

(٣) ويروى (سرت). يقول: إن السحابة سرت في الجوزاء: فلذلك شبهها بالجوزاء.

من الليل. وكلها متقاربة؛ وقيل: إنه نصف الليل؛ مأخوذ من قطعه نصفين؛ ومنه قول الشاعر^(١):

ونائحة تنوحُ بقطع ليلٍ على رجلٍ بقارعة الصَّعيدِ

فإن قيل: الشُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى «بقطع من الليل»؟ فالجواب: أنه لو لم يقل: «بِقَطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» جاز أن يكون أوله. «وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ» أي لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجاهد. ابن عباس: لا يتخلف منكم أحد. علي بن عيسى: لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع. «إِلَّا أَمْرَأَتُكَ» بالنصب؛ وهي القراءة الواضحة البينة المعنى: أي فأسر بأهلك إلا أمرأتك. وكذا في قراءة ابن مسعود «فأسر بأهلك إلا أمرأتك» فهو استثناء من الأهل. وعلى هذا لم يخرج بها معه. وقد قال الله عز وجل: «كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ»^(٢) أي من الباقين. وقرأ أبو عمرو وأبن كثير: «إِلَّا أَمْرَأَتُكَ» بالرفع على البدل من «أحد». وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال: لا يصح ذلك إلا برفع «يلتفت» ويكون نعتاً؛ لأن المعنى يصير - إذا أبدلت وجزمت - أن المرأة أبيع لها الالتفات، وليس المعنى كذلك. قال النحاس: وهذا الحمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالة ومحلته من العربية لا يجب أن يكون؛ والرفع على البدل له معنى صحيح، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه: لا يخرج فلان؛ فلفظ النهي لفلان ومعناه للمخاطب؛ أي لا تدعه يخرج؛ ومثله قولك: لا يقيم أحد إلا زيد؛ يكون معناه: أنهم عن القيام إلا زيدا؛ وكذلك النهي للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال: أنهم لا يلتفت منهم أحد إلا أمرأتك. ويجوز أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أي لا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك فإنها تلتفت وتهلك، وأن لوطاً خرج بها، ونهى من معه مِمَّنْ أسرى بهم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته؛ فإنها لما سمعت هذه العذاب التفتت وقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها. «إِنَّهُ مُصِيبُهَا»

(١) هو مالك بن كنانة.

(٢) راجع ٢٤١/١٣.

أي من العذاب. والكناية في «إنه» ترجع إلى الأمر والشأن؛ أي فإن الأمر والشأن والقصة. ﴿مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ لما قالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قال لوط: الآن الآن. أستعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه؛ فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر «أليس الصُّبْحُ» بضم الباء وهي لغة. ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع. وقال بعض أهل التفسير: إن لوطاً خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له: إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت أبنائه فلا يهولتكم ما ترى. فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهي خمس: سدوم - وهي القرية العظمى - وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقيم^(١)، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمهم وصياح ديكيتهم، لم تنكفيء لهم جرّة، ولم ينكسر^(٢) لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة. مقاتل: أهلك أربعة، ونجت ضعوه. وقيل غير هذا؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم؛ وقد تقدّم في «الأعراف»^(٣). وفي التفسير: أمطرنّا في العذاب، ومطرنا في الرحمة. وأما كلام العرب فيقال: مطرت السماء وأمطرت: حكاة الهروي. واختلف في «السِّجِّيل» فقال النحاس^(٤): السجّيل الشديد الكثير؛ وسجّيل وسجّين اللام والنون اختان. وقال أبو عبيدة: السجّيل الشديد؛ وأنشد^(٥):

ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِّينًا

(١) وفي ع و ز و ك: قامورا و رادما وضعو، وفي ضبط هذه القرى اختلاف.

(٢) في ي: ينكشف.

(٣) راجع ٢٤٣/٧. (٤) كذا في أ، وفي ز و ع و ك و و ي: (البخاري).

(٥) سيأتي البيت بتمامه في ص ٨٣.

قال النحاس: وردّ عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال: هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به؟! قال النحاس: وهذا الرد لا يلزم، لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى؛ وقول أبي عبيدة يرّد من جهة أخرى؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلاً؛ لأنه لا يقال: حجارة من شديد؛ لأن شديداً نعت. وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل. وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلاً طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء. وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحاق: إن سجيلاً لفظة غير عربية عُرِّبت، أصلها سَنَجٌ وَجِيلٌ. ويقال: سَنَكٌ وَكَيْلٌ؛ بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما إسماء واحداً. وقيل: هو من لغة العرب. وقال قتادة وعكرمة: السجيل الطين بدليل قوله: ﴿لَنُزِيلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾^(١). وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشددت. والسجيل عند العرب كل شديد صُلِبَ. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقال ابن زيد: طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلاً أسم السماء الدنيا؛ ذكره المهدوي؛ وحكاه الثعلبي عن أبي العالية؛ وقال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بـ «منضود». وعن عكرمة: أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة. وقيل: هي جبال في السماء، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾^(٢). وقيل: هو مما سجّل لهم أي كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو في معنى سجين؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾^(٣) قاله الزجاج وأختره. وقيل: هو فِعِيلٌ من أسجلته أي أرسلته؛ فكأنها مرسلة عليهم. وقيل: هو من أسجلته إذا أعطيته؛ فكأنه عذاب أعطوه؛ قال^(٤):

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جِدَا يَمْلَأُ الدَّلُوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) راجع ٤٧/١٧.

(٢) راجع ٢٨٩/١٢.

(٣) راجع ٢٥٤/١٩.

(٤) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب. وأصل المساجلة. أن يستقي ساقيان فيخرج كل واحد منهما في سجله (دلوه) مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب: فغلبته العرب مثلاً للمفاخرة. والكرب: الحبل الذي يشد على الدلو بعد المئين وهو الحبل الأول.

وقال أهل المعاني: السَّجِيل والسَّجِّين الشديد من الحَجَر والضَّرْب؛ قال ابن مَثْبَل:

وَرَجُلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً^(١) ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِينًا

﴿مَنْضُودٌ﴾ قال ابن عباس: متتابع. وقال قتادة: نُضِد بعضها فوق بعض. وقال الزَّبيح: نُضِد بعضها على بعض حتى صار جسداً واحداً. وقال عكرمة: مصفوف. وقال بعضهم مرصوص؛ والمعنى متقارب. يقال: نُضِدَت المتاع واللِّين إذا جعلت بعضها على بعض، فهو مَنْضُود ونَضِيد ونَضِيدٌ؛ قال:

ورَفَعَتْهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فَالنَّضِدِ

وقال أبو بكر الهُدَلِي: مُعَدٌّ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظَّلمة. ﴿مُسَوِّمَةٌ﴾ أي معلّمة، من السِّيمَا وهي العلامة؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر أسم من رُمي به، وكانت لا تشاكل حجارة الأرض. وقال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها. وقال كعب: كانت معلمة ببياض وحمرة وقال الشاعر^(٢):

غلامٌ رماه الله بالحسنِ يافعاً له سيمياء لا تشقُّ على البَصَرِ

و ﴿مُسَوِّمَةٌ﴾ من نعت حجارة. و «منضود» من نعت «سَجِيل». وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبِيعِدٍ﴾ يعني قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم. وقال مجاهد: يُرْهَب قريشاً؛ المعنى: ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد. وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة؛ والله ما أجاز الله منها ظالماً بعد. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونسأؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) وروي في «اللسان»: (يضربون البيض عن عرض).

(٢) البيت لأسيد بن عتقاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله؛ وبعده:

كأن الشريفاً علقت فوق نحره وفي جيده الشعرى وفي وجهه القمر
وقوله: (له سيمياء لا تشق على البصر) أي يفرح به من يراه.

بِيعِيدٍ». وفي رواية عنه عليه السلام «لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما أستحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك». وقيل: المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد؛ وهي بين الشام والمدينة. وجاء «بِيعِيدٍ» مذكراً على معنى بمكان بعيد. وفي الحجارة التي أمطرت قولان: أحدهما - أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. الثاني - أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها.

[٨٤] ﴿وَلِإِن مَّدِينًا خَاهَرْتُكُمْ أَفَالْمَكِّيَّاتِ يَغْنَمْنَ﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمَكِّيَّاتِ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرْبُكُمْ بِغَيْرِ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾.

[٨٥] ﴿وَيَنْقُورُ أَقْوَامًا الْمَكِّيَّاتِ وَالْمِيزَانَ﴾ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾.

[٨٦] ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿٨٦﴾.

[٨٧] ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلَؤُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿٨٧﴾.

[٨٨] ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَقٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿٨٨﴾.

[٨٩] ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٩﴾.

[٩٠] ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿٩٠﴾.

- [٩١] ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ .
- [٩٢] ﴿قَالَ يَنْقُورُ آرَهْطَىٰ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ .
- [٩٣] ﴿وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَقْلُمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ .
- [٩٤] ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبُوهَا فِي دِبرِهِمْ جُنْثِمًا ﴿٩٤﴾﴾ .
- [٩٥] ﴿كَانَ لَرِيقَتِهَا فِيهَا الْآبَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى مدين، ومدين هم قوم شعيب. وفي تسميتهم بذلك قولان: أحدهما - أنهم بنو مدين بن إبراهيم؛ ف قيل: مدين والمراد بنو مدين. كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر. الثاني - أنه أَسَم مدِينتَهُم، فنسبوا إليها. قال النحاس: لا ينصرف مدين لأنه أَسَم مدينة؛ وقد تقدّم في «الأعراف»^(١) هذا المعنى وزيادة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدّم. ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف؛ كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وأستوفوا بغاية ما يَقْدِرُونَ [عليه]^(٢) وظلموا؛ وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحّحوا له بغاية ما يَقْدِرُونَ؛ فأمرُوا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك، وبالوفاء نهياً عن التطفيف. ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي في سعة من الرزق، وكثرة من النعم. وقال الحسن: كان سعرهم رخيصاً. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يوم شديد؛ أي شديد حرّه. وأختلف في ذلك العذاب؛ ف قيل: هو عذاب النار في الآخرة.

وقيل: عذاب الاستئصال في الدنيا. وقيل: غلاء السعر؛ روي معناه عن ابن عباس. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا أبتلاهم الله بالفحط والغلاء». وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيداً. والإيفاء الإتمام. «بالقسط» أي بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذي نصيب إلى نصيبه؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل: أوفوا بالمكيال وبالميزان؛ بل أراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم مما استحقوه شيئاً. ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بين أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض، وقد مضى في «الأعراف»^(١) زيادة لهذا، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم؛ قال معناه الطبري وغيره. وقال مجاهد: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يريد طاعته. وقال الربيع: وصية الله. وقال الفراء: مراقبة الله. ابن زيد: رحمة الله. قتادة والحسن: حظكم من ربكم خير لكم. وقال ابن عباس؛ رزق الله خير لكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين. وقيل: يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فحاطبهم بهذا. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم؛ أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أواخذكم بإيفاء الحق. وقيل: أي لا يتهياً لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوَاتُكَ﴾ وقرئ «أَصْلَاتُكَ» من غير جمع. ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ «أن» في موضع نصب؛ قال الكسائي: موضعها خفض على إضمار الباء.

وروي أن شعيباً عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظباً على العبادة فرضها ونفلها ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم غيروه بما رأوه يستمرّ عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم. وقيل: إن الصلاة هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيان عن الأعمش، أي قراءة تك تأمرك؛ ودلّ بهذا على أنهم كانوا كفاراً. وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وقرأ السلمي والضحاك بن قيس «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى. وروى عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حذف الدراهم^(١). وقيل: معنى. ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه؟! ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك؛ ومثله في صفة أبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢) أي عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجون^(٣)؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. وقال سفيان بن عيينة: العرب تصف الشيء بضده للتطير والتفاؤل؛ كما قيل للديع سليم، وللغلاة مفازة. وقيل: هو تعريض أرادوا به السب؛ وأحسن من هذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته، أي إنك أنت الحليم الرشيد حقاً، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا! ويدلّ عليه. ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضاً ما يدلّ عليه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه. ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قريظة للنبي ﷺ حين قال لهم: «يا إخوة القردة»^(٤) فقالوا: يا محمد ما علمناك جهولاً!

(١) حذف الشيء - قطعه من أطرافه. (٢) راجع ١٦/١٥١. (٣) الجون هنا الأسود.

(٤) في ع: القرد، الخنازير. وقد مضى في ٦/٢٣٦ أنه أيضاً من قول المسلمين لهم.

مسألة - قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذّبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُرْاضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عداً، وعلى المقروضة وزناً، وكانوا يبخسون في الوزن. وقال ابن وهب قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرها ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تكسر سَكَّةَ المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس؛ فإنها إذا كانت صحاحاً قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس؛ ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١) أنهم كانوا يكسرون الدراهم؛ قاله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القرظي.

مسألة: قال أضيغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتْقِيّ: من كسرها لم تقبل شهادته، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا بموضع عذر؛ قال ابن العربي: أما قوله: لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرةً، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلأنه أمرٌ بينٌ لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفي وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد كما قال مالك.

مسألة: إذا كان هذا معصية وفساداً تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك. ومَرَّ ابن المسيّب برجل قد جُلِدَ فقال: ما هذا؟ قال رجل: يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ابن المسيّب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن النّجَيبِيّ: كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة^(٢) فَأَتَيْتُ برجل [يقطع الدراهم]^(٣) وقد شَهِدَ عليه فضربه وحَلَقَهُ، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول: هذا جزاء من يقطع

(١) راجع ٢١٥/١٣. (٢) في ع: بالمدينة، وفي و: أمير المؤمنين.

(٣) من ع وزوك و ووى.

الدراهم: ثم أمر أن يُرَدَّ إليه: فقال: إنه لم يمنعني أن أقطع يدك إلا أنني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدّمت في ذلك فمن شاء فليقطع. قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه، وأما حلقه فقد فعله عمر؛ وقد كنت أيام الحكم [بين الناس] ^(١) أضرب وأحلق، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عوناً له على المعصية، وطريقاً إلى التجمل به في الفساد، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرهما، فإن الكسر إفساد الوصف، والقرض تنقيص للقدر، فهو أخذ مالٍ على جهة الاختفاء؛ فإن قيل: أليس الحرز أصلاً في القطع؟ قلنا: يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيتها للفصل بين الخلق ديناراً أو درهماً حرز لها، وحرز كل شيء على قدر حاله؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدراهم. وقد قال علماؤنا المالكية: إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها اسمه؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتماً لله كان أهلاً لذلك، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أذب، وخاتم الله تقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة. قال ابن العربي: وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرهما، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتي الحكم، إلا أنني كنت محفوفاً بالجهال، فلم أجبن ^(٢) بسبب المقال للحسدة الضلال فمن قدر عليه يوماً من أهل الحق فليفعله احتساباً لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ تقدم. ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي واسعاً حلالاً، وكان شعيب عليه السلام كثير المال، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق، والعلم والمعرفة، وفي الكلام حذف، وهو ما ذكرناه، أي أفلا أنهاكم عن الضلال! وقيل: المعنى «أرايتم إن كنت على بينة من ربي» أتبع الضلال؟ وقيل: المعنى «أرايتم إن كنت على بينة من ربي» أنا مروني ^(٣) بالعصيان في البخس والتطفيف، وقد أغناني الله [عنه] ^(١). ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ في موضع نصب بـ «أريد». ﴿إِلَىٰ مَا أَنهَاكُم عَنْهُ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به. ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

(١) من عوى. (٢) من ع وفي ز و وى: أحب. (٣) في ع: أفنأ مروني.

مَا اسْتَطَعْتُ ﴿١﴾ أَيُّ مَا أُرِيدُ إِلَّا فَعَلَ الصَّلَاحُ؛ أَيُّ أَنْ تَصْلَحُوا دُنْيَاكُمْ بِالْعَدْلِ، وَأَخَّرْتُمْ بِالْعِبَادَةِ، وَقَالَ: «مَا اسْتَطَعْتُ» لِأَنَّ الْإِسْطَاعَةَ مِنْ شُرُوطِ الْفِعْلِ دُونَ الْإِرَادَةِ. وَ«مَا» مُصَدِّرَةٌ، أَيُّ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحُ جَهْدِي وَاسْتَطَاعَتِي. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أَيُّ رَشْدِي، وَالتَّوْفِيقُ الرِّشْدُ. ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيُّ اعْتَمَدْتُ. ﴿وَاللَّهِ أُنِيبُ﴾ أَيُّ أَرْجِعُ فِيمَا يَنْزِلُ بِي مِنْ جَمِيعِ النَّوَائِبِ. وَقِيلَ: إِلَيْهِ أَرْجِعُ فِي الْآخِرَةِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْإِنَابَةَ الدُّعَاءُ، وَمَعْنَاهُ وَلَهُ أَدْعُو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَا قَوْمَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَابٍ «يُجْرِمَنَّكُمْ». ﴿شِقَاقِي﴾ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ. ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ، أَيُّ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَعَادَاتِي عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ الْكُفَّارَ [قَبْلَكُمْ] ^(١)، قَالَ الْحَسَنُ قَتَادَةَ. وَقِيلَ: لَا يَكْسِبَنَّكُمْ شِقَاقِي إِصَابَتَكُمْ الْعَذَابِ، كَمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَالَ الزَّجَاجُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى «يَجْرِمَنَّكُمْ» فِي «الْمَائِدَةِ» ^(٢) وَ«الشَّقَاقِ» فِي «الْبَقَرَةِ» ^(٣) وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْعِدَاوَةِ، قَالَ السَّدْيِيُّ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَخْطَلِ:

أَلَا مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي ^(٤) رَسُولاً فَكَيْفَ وَجَدْتُمْ طَعْمَ الشَّقَاقِ

وَقَالَ الْحَسَنُ [البصري] ^(٥): إِضْرَارِي. وَقَالَ قَتَادَةُ: فِرَاقِي. ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٌ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ. وَقِيلَ: وَمَا دِيَارُ قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ، أَيُّ بِمَكَانٍ بَعِيدٍ، فَلِذَلِكَ وَحَدَّ الْبَعِيدُ. قَالَ الْكِسَائِيُّ: أَيُّ دَوْرَهُمْ فِي دَوْرِكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَا قَوْمَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ تَقَدَّمَ. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ اسْمَانِ مِنْ أَسْمَائِهِ سَبْحَانَهُ، وَقَدْ بَيَّنَّا هُمَا فِي كِتَابِ «الْأَسْنَى فِي شَرْحِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِيِّ». قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ أَوْدَهُ وَدّاً إِذَا أَحْبَبْتَهُ، وَالْوَدُودُ الْمَحَبُّ، وَالْوَدُّ وَالْوَدُّ وَالْمُودَةُ الْمَحَبَّةُ. وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذَكَرَ شَعِيباً قَالَ: «ذَاكَ خُطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ».

(١) مَنْعٌ وَوَوِي.

(٢) رَاجِعٌ ٤٤/٦ وَمَا بَعْدَهَا.

(٣) رَاجِعٌ ١٤٣/٢.

(٤) الرَّسُولُ هُنَا بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ. وَفِي «الدِّيَوَانِ»: مَبْلَغٌ قِيَاساً.

(٥) مَنْعٌ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي ما نفهم؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله. وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقاراً لكلامه؛ يقال: فقه يفقه إذا فهم فقهاً؛ وحكى الكسائي: فقه فقهها وفقها إذا صار فقيهاً^(١). ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيل: إنه كان مصاباً ببصره^(٢)؛ قاله سعيد بن جبير وقتادة. وقيل: كان ضعيف البصر؛ قاله الثوري، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن جَمِير تقول للأعمى ضعيفاً؛ أي قد ضعف بذهاب بصره؛ كما يقال له ضرير؛ أي قد ضرّ بذهاب بصره؛ كما يقال له: مكفوف؛ أي قد كف عن النظر بذهاب بصره. قال الحسن: معناه مهين. وقيل: المعنى ضعيف البدن؛ حكاه علي بن عيسى. وقال السدي: وحيداً ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا. وقيل: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها. و«ضعيفاً» نصب على الحال. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفع بالابتداء، ورهط الرجل عشيرته الذي يستند إليهم ويتقوى بهم؛ ومنه الزَاهِطَاءُ الْجُرُحُ الْيَزْبُوعُ؛ لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده. ومعنى ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك بالرجم، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم. وقيل: معنى «لَرَجَمْنَاكَ» لشتمنناك؛ ومنه قول الجعدي:

نَصِيرُ كَأَنَّا فَرَسًا رِهَانِ تَرَا جَمْنَا بِمُرِّ الْقَوْلِ حَتَّى

والرجم أيضاً اللعن؛ ومنه الشيطان الرجيم. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيرٍ﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي﴾ «أَرَهْطِي» رفع بالابتداء؛ والمعنى أرهطي في قلوبكم ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ وأعظم وأجل وهو يملككم. ﴿وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وِرَاءَكُم ظَهْرِيًّا﴾ أي اتخذتم ما جئتمكم به من أمر الله ظهرياً؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم، وامتنعتم من قتلي مخافة قومي؛

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة، وصوبت عن كتب اللغة؛ وعبارة الأصل: فقه يفقه إذا فهم فقهها وفقها وحكى الكسائي: فقه، وفقه فقهاً إذا صار فقيهاً.

(٢) ليس شعيب الرسول عليه السلام ضريراً لأن هذا الوصف ينافي العصمة مما يقدح وإنما شعيب الضرير هو صاحب موسى وليس بنبي وبينهما ثلاثمائة سنة.

يقال: جعلت أمره يظهر إذا قصرت فيه، وقد مضى في «البقرة»^(١)، «إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ» أي من الكفر والمعصية. «مُحِيطٌ» أي عليم. وقيل: حفيظ.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ اغْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ» تهديد ووعد؛ وقد تقدّم في «الأنعام»^(٢). «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» أي يهلكه. و «من» في موضع نصب، مثل «يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ»^(٣). «وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ» عطف عليها. وقيل: أي وسوف تعلمون من هو كاذب منا. وقيل: في محل رفع؛ تقديره: ويخزي من هو كاذب. وقيل: تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه، ويذوق وبال أمره. وزعم الفراء أنهم إنما جاءوا بـ «هو» في «وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ» لأنهم لا يقولون مَنْ قائم؛ إنما يقولون: من قام، وَمَنْ يقوم، وَمَنْ القائم؛ فزادوا «هو» ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل. قال النحاس: ويدل على خلاف هذا قوله^(٤):

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَّا بِأَنِّي ضِيفْتُ دَزْعًا يَهْجُرُهَا وَالْكِتَابِ

«وَأَزْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» أي أنتظروا العذاب والسخطة، فإنني منتظر النصر والرحمة.

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا» قيل: صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم «نَجَّيْنَا شُعَبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ» أي صيحة جبريل. وأثت الفعل على لفظ الصيحة، وقال في قصة صالح: «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ» فذكر على معنى الصياح. قال ابن عباس: ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب، أهلكهم الله بالصيحة؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم. «فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ» تقدّم معناه. وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن السلمي قرأ «كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ» بضم العين. قال النحاس: المعروف في اللغة إنما يقال بعد

(١) راجع ٤٠/٢. (٢) راجع ٨٩/٧.

(٣) راجع ٦٢/٣. (٤) هو عمرو بن أبي ربيعة.

يَبْعَدُ بَعْدًا وَيُبْعَدُ إِذَا هَلَكَ. وقال المهدوي: من ضم العين من «بعدت» فهي لغة تستعمل في الخير والشر، ومصدرها البعد؛ وبعدت تستعمل في الشر خاصة؛ يقال: بَعْدَ يَبْعَدُ بَعْدًا؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني.

[٩٦] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

[٩٧] ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

[٩٨] ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَفْسُ الْوَرْدِ الْمَوْرُودُ﴾.

[٩٩] ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْسُ الرِّقْدِ الْمَرْقُودُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بين أنه أتبع النبي النبي لإقامة الحجة، وإزاحة كل علة «بِآيَاتِنَا» أي بالتوراة. وقيل: بالمعجزات. «وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ» أي حجة بيّنة؛ يعني العصا. وقد مضى في «آل عمران»^(١) معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة. ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي شأنه وحاله، حتى آتخذوه إلهًا، وخالفوا أمر الله تعالى. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي بسديد يؤدي إلى صواب وقيل «برشيد» أي بمرشد إلى خير.

قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم. يقال: قَدَّمَهُمْ يَقْدُمُهُمْ قَدَمًا وَقُدُّومًا إِذَا تَقَدَّمَهُمْ. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي أدخلهم فيها. ذُكِرَ بلفظ الماضي؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يُعْبَرُ عن المستقبل بالماضي. ﴿وَيَفْسُ الْوَرْدِ الْمَوْرُودُ﴾ أي بفس المدخل المدخول؛ ولم يقل بفس لأن الكلام يرجع إلى المورود، وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك. والمورود الماء الذي يورد، والموضع الذي يورد؛ وهو بمعنى المفعول.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ أي في الدنيا. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدّم هذا المعنى. ﴿بِشْرِ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ حكى الكسائي وأبو عبيدة: رَفَذْتُهُ أَرْفَدُهُ رَفْدًا؛ أي أعنته وأعطيته. وأسم العطية الرَّفْدُ؛ أي بشش العطاء والإعانة. والرفد أيضاً القدح الضخم؛ قاله الجوهري، والتقدير: بشش الرفد رفد المرفود. وذكر الماوردي: أن الرَّفْدَ بفتح الراء القدح، والرفد بكسرهما ما في القدح من الشراب؛ حكى ذلك عن الأصمعي: فكأنه ذم بذلك ما يسقونه في النار. وقيل: إن الرفد الزيادة؛ أي بشش ما يرفدون به بعد الغرق النار؛ قاله الكلبي.

- [١٠٠] ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.
- [١٠١] ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَنْبِيْهِ﴾.
- [١٠٢] ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.
- [١٠٣] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.
- [١٠٤] ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ﴾.
- [١٠٥] ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.
- [١٠٦] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.
- [١٠٧] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا مَلَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.
- [١٠٨] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾.
- [١٠٩] ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِنَصِيْبِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ «ذَلِكَ» رفع على إضمار مبتدأ، أي الأمر ذلك. وإن شئت بالابتداء؛ والمعنى: ذلك النبا المتقدم من أنباء القرى نقصه عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قال قتادة: القائم ما كان خاوياً على عروشه، والحصيد ما لا أثر له. وقيل: القائم العامر، والحصيد الخراب؛ قاله ابن عباس. وقال مجاهد: قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل؛ يعني محصوداً كالزروع إذا حصد؛ قال الشاعر:

والناس في قَسَمِ المنيّة بينهم كالزّرع منه قائمٌ وحَصِيدٌ

وقال آخر^(٢):

إنما نحن مثلُ خَامَةِ زَرْعٍ فمتى يَأْتِ مُخْتَصِدُهُ

قال الأخفش سعيد: حصيد أي محصود، وجمعه حصدى حصاد مثل مرضى ومراض؛ قال: يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتيل وقتلى. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أصل الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه، وقد تقدّم في «البقرة»^(٢) مستوفى. ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي. وحكى سيبويه أنه يقال: ظلم إياه ﴿فَمَا أَغْنَتْ﴾ أي دفعت. ﴿عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الكلام حذف، أي التي كانوا يعبدون؛ أي يدعون. ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيرٍ﴾ أي غير تخسير؛ قاله مجاهد وقاتدة. وقال لبيد:

فلقد بليتُ وكلُّ صاحبِ جدّةٍ ليلى يعودُ وذاكُمُ التّيسيرُ

والتّبات الهلاك والخسران، وفيه إضمار؛ أي ما زادتهم عبادة الأصنام، فحذف المضاف؛ أي كانت عبادتهم إياها قد خسرتهم ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي كما أخذ هذه القرى التي كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة. وقرأ عاصم الجحدري وطلحة بن مصرف «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى» وعن الجحدري أيضاً «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ» كالجماعة «إِذَا أَخَذَ

(١) البيت للطرماح كما في «اللسان».

(٢) راجع ٣٠٩/١ وما بعدها.

الْقُرَى». قال المهدوي من قرأ: «وكذلك أخذ ربك إِذْ أَخَذَ» فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدّم من الأمم؛ والمعنى: وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إِذْ أَخَذَهُمْ. وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى: كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه؛ فَإِذْ لما مضى؛ أي حين أخذ القرى؛ وإذا للمستقبل ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وأهلها ظالمون: فحذف المضاف مثل: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾. ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة. وفي صحيح مسلم والترمذي من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ ﴿وكذلك أَخَذَ ربك إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي لعبرة وموعظة. ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ﴾، ابتداء وخبر. ﴿مَجْمُوعٌ﴾ من نعته. ﴿لَهُ النَّاسُ﴾ أسم ما لم يسم فاعله؛ ولهذا لم يقل مجموعون؛ فإن قدرت أرتفاع «الناس» بالابتداء، والخبر «مَجْمُوعٌ لَهُ» فإنما لم يقل: مجموعون على هذا التقدير؛ لأن «له» يقوم مقام الفاعل، والجمع الحشر، أي يحشرون لذلك اليوم. ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء. وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب «التذكرة» وبيناهما والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي لأجل سبق به قضاؤنا، وهو معدود عندنا. ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ وقرئ «يَوْمَ يَأْتِ» لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة؛ تقول: لا أدر؛ ذكره القشيري. قال النحاس: قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج، وحذفها في الوقف؛ وروي أن أُبَيًّا وابن مسعود قرأا «يوم يأتي» بالياء في الوقف والوصل. وقرأ الأعمش وحزمة «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء في الوقف والوصل، قال أبو جعفر النحاس: الوجه في هذا ألا يوقف عليه، وأن يوصل بالياء، لأن جماعة من النحويين قالوا: لا تحذف الياء، ولا يجزم الشيء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول للكسائي؛ قال: لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذف الياء، كما

تُحذف الضمة. وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجتين: إحداهما - أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه بغير ياء. والحجة الأخرى - أنه حكى أنها لغة هذيل؛ تقول: ما أدر؛ قال النحاس: أما حجته بمصحف عثمان رضي الله عنه فشيء يردّه عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه ف قيل لي ذهب؛ وأما حجته بقولهم: «ما أدر» فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه. وأنشد الفراء في حذف الياء:

كَفَّاكَ كَفًّا مَا ثَلِيْقُ دَرَهْمًا جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدِّمَا

أي تعطي. وقد حكى سيويه والخليل أن العرب تقول: لا أدر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء؛ قال: والذي أراه أتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنّة؛ وقد جاء مثله في كلام العرب. ﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الأصل تتكلم؛ حذف إحدى التاءين تخفيفاً. وفيه إضمار؛ أي لا تتكلم فيه نفس إلا بالمؤذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح. وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه. وقيل: إن لهم في الموقف وقتاً يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه. وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين. فيقول لِمَ قال: ﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ و ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ^(١). وقال في موضع من ذكر القيامة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٢). وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾^(٣). وقال: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ﴾^(٤). وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾^(٥). والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن

(١) راجع ١٩/١٦٤.

(٢) راجع ٧٣/١٥ فما بعد. في الأصول «يتلاومون» وليست في المعنى المراد هنا.

(٣) راجع ١٠/١٩٣.

(٤) راجع ١٧/١٧٣.

الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، فسمي من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. وقال: قوم: ذلك اليوم طويل، وله مواطن ومواقف في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لهم الكلام؛ فهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي من الأنفس، أو من الناس؛ وقد ذكرهم في قوله: ﴿يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾. والشقي الذي كتبت عليه الشقاوة. والسعيد الذي كتبت عليه السعادة؛ قال لبيد:

فمنهم سعيدٌ آخذٌ بنصيبه ومنهم شقيٌّ بالمعيشة قانع

وروى الترمذي عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا نبي الله فعلام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يُفرغ منه؟ فقال: «بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأفلام يا عمر ولكن كل مُيسر لما خُلِقَ له». قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر؛ وقد تقدم في «الأعراف»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا﴾ ابتداء. ﴿فَفِي النَّارِ﴾ في موضع الخبر، وكذا ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال أبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق؛ وعنه أيضاً ضد ذلك. وقال الزجاج: الزفير من شدة الأنين، والشهيق من الأنين المرتفع جداً؛ قال: وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير في التهيق، والشهيق بمنزلة [آخر] صوت الحمار في التهيق. وقال ابن عباس رضي الله عنه عكسه؛ قال: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير مثل أول نهيق الحمار، والشهيق مثل آخره حين فرغ من صوته؛ قال الشاعر^(٢):

حَشْرَجَ فِي الْجَوْفِ^(٣) سَجِيلاً أَوْ شَهَقَ خَتَى يُقَالُ نَاهَقٌ وَمَا نَهَقَ

وقيل: الزفير إخراج النفس، وهو أن يمتلئ الجوف غمماً فيخرج بالنفس، والشهيق رد النفس. وقيل: الزفير ترديد النفس من شدة الحزن؛ مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدة؛

(١) راجع ٣١٤/٧. (٢) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة مطلعها:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق مشبه الأعلام لماع الخفق

(٣) في ع: في الصدر، والسحيل: الصوت الذي يدور في صدر الحمار.

والشهيق النفس الطويل الممتد؛ مأخوذ من قولهم: جبل شاهق؛ أي طويل^(١). والزفير والشهيق من أصوات المحزونين.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ «مَا دَامَتِ» في موضع نصب على الظرف؛ أي دوام السموات والأرض، والتقدير: وقت ذلك. واختلف في تأويل هذا؛ فقالت طائفة منهم الضحاك: المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفي التنزيل: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾^(٢). وقيل: أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده؛ كقولهم: لا أتيك ما جئ ليل، أو سال سيل، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية؛ فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك. وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض. وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش، وأن السموات والأرض في الآخرة تردان إلى النور الذي أخذتا منه؛ فهما دائمتان أبداً في نور العرش.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء ليس من الأول؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة: الأولى - أنه استثناء من قوله: ﴿فَفِي النَّارِ﴾ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك؛ وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري وجابر رضي الله عنهما. وإنما لم يقل من شاء؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾^(٣). وعن أبي نضرة عن رسول الله ﷺ «إِلَّا مَنْ شَاءَ إِلَّا يَدْخُلُهُمْ وَإِنْ شَقُوا بِالْمَعْصِيَةِ». الثاني - أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من «خَالِدِينَ»؛ قاله قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم. وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ نَاسٌ

(١) قال في النهاية: شاهق عال.

(٢) راجع ٢٧٤/١٥.

(٣) راجع ١٢/٥.

جهنم حتى إذا صاروا كالحُمَمَةِ^(١) أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون وقد تقدّم هذا المعنى في «النساء»^(٢) وغيرها. الثالث - أن الاستثناء من الرّفير والشّهيق؛ أي لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذي لم يذكره، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكر، وما لم يذكر. حكاه ابن الأنباري. الرابع - قال ابن مسعود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفتنيهم، ثم يجدد خلقهم.

قلت: وهذا القول خاص بالكافر والاستثناء له في الأكل، وتجديد الخلق. الخامس - أن «إلا» بمعنى «سوى» كما تقول في الكلام: ما معي رجل إلا زيد، ولي عليك ألفا درهم إلا الألف التي لي عليك^(٣). قيل: فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود. السادس - أنه استثناء من الإخراج، وهو لا يريد أن يخرجهم منها. كما تقول في الكلام: أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره، وأنت مقيم على ذلك القعل؛ فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزّجاج عن أهل اللغة، قال: ولأهل المعاني قولان آخران، فأحد القولين: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من مقدار موقفهم على رأس قبورهم، وللمحاسبة، وقدر مكثهم في الدنيا، والبرزخ، والوقوف للحساب. والقول الآخر - وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب، وتقديره: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادة العذاب لأهل الجحيم.

قلت: فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا واختاره^(٤) الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي، أي خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض، وذلك مدة العالم، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه وهو قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾^(٥) فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم، واشترى منهم أنفسهم

(١) الحمم: الرماد والفحم وكل ما احترق من النار، والواحدة حمة.

(٢) راجع ٣٣٢/٥. (٣) وبعبارة البحر: لي عندك ألفا درهم إلا الألف التي كنت أسلفتك

بمعنى سوى تلك الألف. (٤) يلاحظ أنه لم يذكر المصنف السابغ ولعله هو هذا.

(٥) راجع ص ٣٨٢ من هذا الجزء.

وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفى بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقبته يخلد في النار بمقدار دوام السموات والأرض؛ فإنما دامتا للمعاملة؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(١) فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحق الأحديّة، فمن لقيه موخداً لأحدثه بقي في داره أبداً، ومن لقيه مشركاً بأحدثه إلهاً بقي في السجن أبداً؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من زيادة المدة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبداً. وقد قيل: إن «إلا» بمعنى الواو، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو - الثامن - والمعنى: وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السموات والأرض في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(٢) أي ولا الذين ظلموا. وقال الشاعر^(٣):

وكلُّ أخٍ مفارقه أخوه لَعَمْرُ أَيْكَ إِلَّا الْفَرْقَدَانِ

أي والفرقدان. وقال أبو محمد مكي: وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون «إلا» بمعنى الواو، وقد مضى في «البقرة»^(٢) بيانه. وقيل: معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٤) أي كما قد سلف، وهو - التاسع، العاشر - وهو أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام؛ فهو على حدّ قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^(١) فهو استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك؛ كأنه قال: إن شاء ربك، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ونحوه عن أبي عبيد قال: تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى في خلود

(١) راجع ١٤٧/١٦ و ٢٨٩. (٢) راجع ١٢٨/٢.

(٣) البيت لعمر بن معدى كرب. وقيل: هو لحضرمي بن عامر. ويجوز أن تكون «إلا» هنا بمعنى غير. قال سيويه: كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه، فقد نعت «كلا» بها.

(٤) راجع ١٠٣/٥.

الفريقين في الدارين؛ فوقع لفظ الاستثناء، والعزيمة قد تقدّمت في الخلود، قال: وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ وقد علم أنهم يدخلونه حتماً، فلم يوجب الاستثناء في الموضوعين خياراً؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام؛ ونحوه عن الفراء. وقول - حادي عشر - وهو أن الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والاستثناء في الموضوعين راجع إليهم؛ وبيانه أن «ما» بمعنى «من» استثنى الله عز وجلّ من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد ﷺ بما معهم من الإيمان، واستثنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة. وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني؛ كأنه قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ألا يخلده فيها، وهم الخارجون منها من أمة محمد ﷺ بإيمانهم وبشفاعة محمد ﷺ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء؛ كما روى الضحاك عن ابن عباس إذ قال: الذين سَعِدُوا شَقُّوا بدخول النار ثم سَعِدُوا بالخروج منها ودخولهم الجنة.

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ بضم السين. وقال أبو عمرو: والدليل على أنه سَعِدُوا أن الأول شَقُّوا ولم يقل أشقوا. قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي «سَعِدُوا» مع علمه بالعربية! إذ كان هذا لحناً لا يجوز؛ لأنه إنما يقال: سَعِدَ فلان وأسعده الله، وأسعد مثل أمرض؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم: مسعود ولا حجة له فيه؛ لأنه يقال: مكان مسعود فيه، ثم يحذف فيه ويسمى به. قال المهدوي: ومن ضمّ السين من «سعدوا» فهو محمول على قولهم: مسعود وهو شاذ قليل؛ لأنه لا يقال: سَعِدَ الله، إنما يقال: أسعده الله. وقال الثعلبي: «سَعِدُوا» بضم السين أي رزقوا السعادة؛ يقال: سَعِدَ وأسعد بمعنى واحد وقرأ الباقون «سَعِدُوا» بفتح

السين قياساً على «شَقُوا» واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقال الجوهري: والسعادة خلاف الشقاوة؛ تقول: منه سَعِدَ الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سَلِمَ فهو سليم، وسُعد فهو مسعود؛ ولا يقال فيه: مُسَعَّد، كأنهم أَسْتَغْنُوا عنه بمسعود. وقال القشيري أبو نصر عبد الرحيم: وقد ورد سَعَدَ الله فهو مسعود، وأسعده الله فهو مسَعَّد؛ فهذا يقوي قول الكوفيين. وقال سيبويه: لا يقال سَعِدَ فلان كما لا يقال شُقِيَ فلان؛ لأنه مما لا يتعدى. ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ أي غير مقطوع؛ من جَذَه يَجْذُهُ أي قطعه؛ قال النابغة:

تَجَذُّ السُّلُوقِيَّ المِضَاعَفَ نَسْجُهُ وَثُقِدَ بِالصُّفَاحِ نَارَ الحُبَابِجِ^(١)

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزم بالنهي؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال. ﴿فِي مِزْيَةٍ﴾ أي في شك. ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من الآلهة أنها باطل. وأحسن من هذا؛ أي قل يا محمد لكل من شك ﴿لَا تَكُ فِي مِزْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أن الله عز وجل ما أمرهم به، وإنما يعبدونها كما كان آبائهم يفعلون تقليداً لهم. ﴿وَإِنَّا لَمُوقُوهُمْ نَصِيهِمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها - نصيهم من الرزق؛ قاله أبو العالية. الثاني - نصيهم من العذاب؛ قاله ابن زيد. الثالث - ما وعدوا به من خير أو شر؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

[١١٠] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لفضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر. قيل: المراد بين المختلفين في كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدق [به]^(٢) ومكذّب. وقيل: بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب. ولكن

(١) البيت للنابغة الذبياني يصف فيه السيوف. ويرى (تقد - ويوقدن). والسلوقي: الدرع المنسوب إلى سلق؛ قرية باليمن. والمضاعف: الذي نسج حلقتين. والصفاح: الحجارة العراض. والحبابج: ذباب له شعاع بالليل، وقيل: نار الحبابج ما اقتدح من شرر النار في الهواء يتصادم حجريين. (٢) من أو وى.

سبق الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ إن حملت على قوم موسى ؛ أي لفي شك من كتاب موسى فهم في شك من القرآن .

[١١١] ﴿ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي إن كلا من الأمم التي عددناها يرون جزاء أعمالهم ؛ فكذلك قومك يا محمد . وأختلف القراء في قراءة ﴿ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا ﴾ فقرأ أهل الحرمين - نافع وأبن كثير وأبو بكر معهم - « وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا » بالتخفيف ، على أنها « إن » المخففة من الثقيلة معملة ؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه ، قال سيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إن زيدا لمنطلق ؛ وأنشد قول الشاعر^(١) :

كَأَنَّ ظَبْيَةً تَعْطُو إِلَى وَارِقِ السَّلَمِ

أراد كأنها ظبية فخفف ونصب ما بعدها ؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إن » المشددة مع إعمالها ؛ وأنكر ذلك الكسائي وقال : ما أدري على أي شيء قرىء « وَإِنَّ كُلَّ » ! وزعم الفراء أنه نصب « كلاً » في قراءة من خفف بقوله : « لِيُوقِنَنَّ » أي وإن ليوقنهم كلاً ؛ وأنكر ذلك جميع النحويين ، وقالوا : هذا من كبير الغلط ؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربه^(٢) . وشدد الباقون « إن » ونصبوا بها « كلاً » على أصلها . وقرأ عاصم وحزمة وأبن عامر « لَمَّا » بالتشديد . وخففها الباقون على معنى : وإن كلاً ليوقنهم ، جعلوا « ما » صلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما ب « ما » . وقال الزجاج : لام « لَمَّا » لام « إن » و « ما » زائدة مؤكدة ؛ تقول : إن زيدا لمنطلق ؛ فإن

(١) هو : أبن صريم الإشكري ؛ وصدر البيت :

ويوماً توافينا بوجه مقسم

يجوز نصب الظبية بكان تشبيهاً بالفعل إذا حذف وعمل ، والخبر محذوف لعلم السامع ، ويجوز جر الظبية على تقدير : كظبية ، وأن زائدة مؤكدة .

(٢) قال الطبري : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين اسماً قبلها .

تقتضي أن يدخل على خبرها أو أسمها لام كقولك: إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾^(١). واللام في «ليوفينهم» هي التي يَتَلَقَى بها القسم، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشددة أو المخففة؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ «ما» و «ما» زائدة مؤكدة، وقال الفراء: «ما» بمعنى «من» كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ﴾^(٢) أي وإن كلا لمن ليوفينهم، واللام في «ليوفينهم» للقسم؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج، غير أن «ما» عند الزجاج زائدة وعند الفراء أسم بمعنى «من». وقيل: ليست بزائدة، بل هي أسم دخل عليها لام التأكيد، وهي خبر «إن» و «ليوفينهم» جواب القسم، التقدير: وإن كلا خلق ليوفينهم ربك أعمالهم. وقيل: «ما» بمعنى «من» كقوله: ﴿فَأَنكِحُوا﴾^(٣) مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ أي مَنْ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه. وأما من شدد «لما» وقرأ ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا﴾ بالتشديد فيهما - وهو حمزة ومن وافقه - فقليل: إنه لحن؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز؛ ولا يقال: إن زيدا إلا لأضربته، ولا لَمَّا لضربته. وقال الكسائي: الله أعلم بهذه القراءة، وما أعرف لها وجهاً. وقال هو وأبو علي الفارسي: التشديد فيهما مشكل. قال النحاس وغيره: وللنحويين في ذلك أقوال: الأول - أن أصلها «لمن ما» فقلبت النون ميماً، واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى فصارت «لما» و «ما» على هذا القول بمعنى «من» تقديره: وإن كلا لمن الذين؛ كقولهم:

وَإِنِّي لَمَّا أَضِدُّ الْأَمَرَ وَجْهَهُ إِذَا هُوَ أَغْيَا بِالسَّبِيلِ مَصَادِرُهُ

وزيف الزجاج هذا القول، وقال: «من» أسم على حرفين فلا يجوز حذفه. الثاني - أن الأصل لمن ما، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات، والتقدير: وإن كُلاً لِمَنْ خَلَقَ ليوفينهم. وقيل: «لَمَّا» مصدر «لَمَّ» وجاءت بغير تنوين حملاً للوصل على الوقف؛ فهي على هذا كقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلاً لَمَّا﴾^(٤) أي جامعاً للمال المأكول؛ فالتقدير على هذا: وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لَمَّا؛ أي جامعة لأعمالهم جمعاً، فهو كقولك: قياماً لأقومن. وقد قرأ الزهري «لَمَّا» بالتشديد والتنوين على هذا المعنى. الثالث -

أن «لما» بمعنى «إلا» حكى أهل اللغة: سألتك بالله لما فعلت؛ بمعنى إلا فعلت؛ ومثله قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾^(١) أي إلا عليها؛ فمعنى الآية: ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القشيري: وزيف الزجاج هذا القول بأنه لا نفي لقوله: «وإن كلاً لما» حتى تقدر «إلا» ولا يقال: ذهب الناس لما زيد. الرابع - قال أبو عثمان المازني: الأصل وإن كلاً لما بتخفيف «لما» ثم ثقلت كقوله^(٢):

لقد خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدَبًا في عامِنَا ذا بعدَ ما أَخَصَبَا

وقال أبو إسحاق الزجاج: هذا خطأ! إنما يخفف الممثل، ولا يثقل المخفف. الخامس - قال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولهم: لَمَمْتُ الشيءَ أَلَمُّهُ لما إذا جمعته، ثم بنى منه فعلى، كما قرئ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾^(٣) بغير تنوين وبتنوين. فالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحاق: القول الذي لا يجوز غيره عندي أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى «ما» مثل: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وكذا أيضاً تشدد على أصلها، وتكون بمعنى «ما» و«لما» بمعنى «إلا» حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن «لما» يستعمل بمعنى «إلا» قلت: هذا القول [الذي]^(٤) ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول صوابه^(٥) «إن» فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا^(٦) وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أبي: ﴿وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لِيُؤْفِقَهُنَّ﴾^(٧) وروي عن الأعمش «وإن كلٌّ لما» بتخفيف «إن» ورفع «كل» وبتشديد «لما». قال النحاس: وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها «إن» بمعنى «ما» لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة. «إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» تهديد ووعيد.

(١) راجع ٣/٢٠. (٢) البيت لرؤية. (٣) راجع ١٢/١٢٤.

(٤) من ووى. (٥) من أ و ج و و. (٦) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويهاً لعبارة القرطبي، ومذيلة بكلمة. (حاشية): (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول: إلا أن هذا القول «إن» فيه نافية والقول المتقدم «إن» فيه مخففة من الثقيلة فافترقا).

(٧) في ي: وإن كلاً إلا ليوفينهم. وفي السواد؛ وإن كل بفتح الكاف وتخفيف اللام لما.

[١١٢] ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولغيره. وقيل: له والمراد أمته؛ قاله السدي. وقيل: ﴿اسْتَقِمْ﴾ أطلب الإقامة على الدين من الله وأسأله ذلك. فتكون السين سين السؤال، كما تقول: استغفر الله أطلب الغفران [منه]^(١). والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ فاستقم على أمثال أمر الله. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك! قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال: دخلت على ابن عباس فقلت أوصني! فقال: نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبندع. ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي استقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته. قال ابن عباس ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال: «شيبني هود وأخواتها». وقد تقدّم في أول السورة. وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا علي السري^(٢) يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: «شيبني هود». فقال: «نعم» فقلت له: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم! فقال: «لا ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾. ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ نهى عن الطغيان والطغيان مجاوزة الحد؛ ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾^(٣). وقيل: أي لا تتجبروا على أحد.

[١١٣] ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

(١) من أ.

(٢) في الأصل (الشوي) وصبوب عن (الدر المثور).

(٣) راجع ٢٦٢/١٨.

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزْكُتُوا﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، قال قتادة : معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم ؛ وكله متقارب . وقال ابن زيد : الركون هنا الإذهان ^(١) وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم .

الثانية - قرأ الجمهور : «تَزْكُتُوا» بفتح الكاف ؛ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف و قتادة وغيرهما : «تركُتُوا» بضم الكاف ؛ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . وجوز قوم ركن يركن مثل منع يَمْنَعُ ^(٢) .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ^(٣) الآية . وقد تقدّم . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن موّدة ؛ وقد قال حكيم ^(٤) :

عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه فكلّ قرين بالمُقَارِنِ يَفْتَنِي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وثّقة فقد مضى القول فيها في «آل عمران» ^(٥) و «المائدة» ^(٦) . وصحبة الظالم على التّقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي تحرقكم . بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إغراضهم ^(٦) وموافقهم في أمورهم .

[١١٤] ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكْرَيْنِ ﴾

(٢) والآية من باب تعب .

(١) الإذهان : المصانعة .

(٤) هو طريقة بن العبد .

(٣) راجع ١٢/٦ ، و ٤١٧/٥ ، و ٢١٧ .

(٦) في ي : أغراضهم وموافقهم .

(٥) راجع ٥٧/٤ .

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النِّهَارِ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة؛ وخصها بالذكر لأنها ثمانية الإيمان، وإليها يفرع في النوائب؛ وكان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ^(١) أمر فزع إلى الصلاة.

وقال شيوخ الصوفية: إن المراد بهذه الآية أستغراق الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلًا؛ قال ابن العربي: وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك إلا واجباً لا نفلاً^(٢)، فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغَّب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الذنب على البذل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشر.

الثانية - قوله تعالى: ﴿طَرَفَيْ النِّهَارِ﴾ قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر؛ وأختره ابن عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب؛ قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني العصر وحده؛ وقاله قتادة والضحاك. وقيل: الطرفان الظهر والعصر. والرَّأْفُ المغرب والعشاء والصبح؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة. وحكى الماوردي أن الطرف الأول صلاة الصبح باتفاق.

قلت: وهذا الاتفاق ينقصه القول الذي قبله. ورجح الطبري أن الطرفين الصبح والمغرب، وأنه ظاهر؛ قال ابن عطية: ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل. قال ابن العربي: والعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل! فقلب القوس ركوة^(٣)، وحاد عن البرجاس^(٤) غلوة؛ قال الطبري: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدلَّ على أن الطرف الآخر المغرب، ولم يجمع معه على ذلك أحد.

(١) (حزبه): نزل به مهم، أو أصابه غم.

(٢) كذا في ع و و. والذي في ابن العربي: لم يتناول. ذلك لا واجباً فإنها خمس صلوات ولا نفلاً.

(٣) لفظ المثل كما في الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة). ويضرب في الإدبار وانقلاب الأمور.

(٤) البرجاس (بالضم): غرض على رأس رمح أو نحوه مولد والغلوة: قدر رمية بسهم.

قلت: هذا تحامل من ابن العربي في الرد، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد؛ وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح، وقد وقع الاتفاق - إلا من شذَّ - بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمداً أن يومه ذلك يوم فطر، وعليه القضاء والكفارة، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار؛ فدلَّ على صحة ما قاله الطبري في الصبح؛ وتبقى عليه المغرب والردة عليه فيه ما تقدّم. والله أعلم.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي في رُفْعٍ من الليل، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض؛ ومنه سميت المزدلفة؛ لأنها منزل بعد عَرَفة بقرب مكة. وقرأ ابن القَعْقَاع وابن أبي إسحاق وغيرهما «وَرُفْعًا» بضم اللام جمع زَلِيف؛ لأنه قد نطق بزليف، ويجوز أن يكون واحده «زُلفَة» لغة؛ كبُسرة وبُسر، في لغة من ضمّ السين. وقرأ ابن محيصن «وَرُفْعًا» من الليل بإسكان اللام؛ والواحدة زُلفَة تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدرة ودُرّ وبُرة وبُز. وقرأ مجاهد وأبن محيصن أيضاً «زُلفَى» مثل قُربى. وقرأ الباقر «وَرُفْعًا» بفتح اللام كخُزفة وعُرف. قال ابن الأعرابي: الزلف الساعات، واحدها زُلفَة. وقال قوم: الزُلفَة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العَتَمَة؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن: المغرب والعشاء. وقيل: المغرب والعشاء والصبح؛ وقد تقدّم. وقال الأخفش: يعني صلاة الليل ولم يعين.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين [رضي الله عنهم أجمعين]^(١) إلى أن الحسنات ها هنا هي الصلوات الخمس وقال مجاهد: الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قال ابن عطية: وهذا على جهة المثال في الحسنات، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات؛ لقوله ﷺ: «ما أَجْتَنَّبَ الْكِبَائِرَ».

قلت: سبب النزول يعضد قول الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليَسَر بن عمرو. وقيل: أسمه عَبَاد؛ خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج. روى

الترمذي عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك ؛ فلم يرده عليه رسول الله ﷺ شيئاً فانطلق الرجل فاتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه ، فتلا عليه : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ إلى آخر الآية ؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « [لا] ^(١) بل للناس كافة » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وخرج أيضاً عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله حرام فأتى النبي ﷺ فسأله عن كفارتها فنزلت : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل : إلى هذه يا رسول الله ؟ فقال : « لك ولمن عمل بها من أمتي » . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليسر قال : أتتني امرأة تبتاع تمرأً فقلت : إن في البيت تمرأً أطيب من هذا ، فدخلت معي في البيت فاهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : أستر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : أستر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر ، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : « أَخْلَقْتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا ؟ حَتَّى تَمْنَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ إِلَّا تِلْكَ السَّاعَةَ ، حَتَّى ظَنُّهُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . قَالَ : وَأَطْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ . قَالَ أَبُو الْيَسَرِ : فَأَتَيْتُهُ فَقَرَأَهَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَصْحَابُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَلِهَذَا خَاصَّةٌ أَمْ لِلنَّاسِ عَامَةٌ ؟ فَقَالَ : « بَلِ لِلنَّاسِ عَامَةٌ » . قَالَ أَبُو عَيْسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ^(٢) ، وَقَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ ضَعْفَهُ وَكَيْعٌ وَغَيْرُهُ ؛ وَقَدْ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَضَ عَنْهُ ، وَأَقِيمَتِ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَلَمَّا فَرِغَ مِنْهَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ بِالْآيَةِ فَدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : « أَشْهَدُ مَعَنَا

(١) الزيادة عن الترمذي .

(٢) الذي في صحيح الترمذي (صحيح) بدل (غريب) .

الصلاة؟ قال نعم؛ قال: «أذهب فإنها كفارة لما فعلت». وروي أن النبي ﷺ لما تلى عليه هذه الآية قال له: «قم فصل أربع ركعات». والله أعلم. وخرج الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثه لذنب قديم، **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾**».

الخامسة - دلت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ، وقد يستدلّ به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وُجدا في ثوب واحد، وهو اختيار ابن المنذر؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة ذكر هذا الحديث مشيراً إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتي ما للعلماء في هذا في «النور»^(١) إن شاء الله تعالى.

السادسة - ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال: **﴿اقِمِ الصَّلَاةَ﴾** الآية. وقال: **﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾**^(٢) الآية. وقال: **﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾**^(٣). وقال: **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾**^(٤). وقال: **﴿أَزْكُمُوا وَاسْجُدُوا﴾**. وقال: **﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾**^(٥). وقال: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾**^(٦) على ما تقدم. وقال: **﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾**^(٧) أي بقراءتك؛ وهذا كله مجمل أجمله في كتابه، وأحال على نبيه في بيانه؛ فقال جلّ ذكره: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾**^(٨) فبين ﷺ مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسجّادات، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح [الصلاة]^(٩) إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخاري: «صلّوا كما رأيتموني أصلي». ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة، على ما هو معلوم، ولم

(١) راجع ١٦١/١٢ و ٩٨. (٢) راجع ٣٠٣/١٠ و ٣٤٣ و ١٠٨.

(٣) راجع ١٤/١٤. (٤) راجع ٢٦٠/١١.

(٥) راجع ٢١٣/٣. (٦) راجع ٣٥٣/٧.

(٧) من أوع.

يمت النبي ﷺ حتى بين جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فأكمل الدين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المتفكرون بالذكرى. والذكرى مصدر جاء بألف التانيث.

[١١٥] ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١١٥).

[١١٦] ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^(١١٦).

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ أي على الصلاة؛ كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(٢). وقيل: المعنى وأصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المصلين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أي فهلاً كان. ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي من الأمم التي قبلكم. ﴿أُولُوا بَقِيَّةَ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر. ﴿يَتَهَوَّنَ﴾ قومهم. ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل: لولا ها هنا للنفي؛ أي ما كان من قبلكم؛ كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾^(٣) أي ما كانت. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن قليلاً. ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قوم يونس؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾. وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا وعصوا. ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

(١) راجع ٦/٦١.

(٢) راجع ١١/٢٦٣. (٣) راجع ٨/٣٨٣.

[١١٧] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

[١١٨] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

[١١٩] ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي أهل القرى. ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بترك وكفر. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودلّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستتصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب. وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده». وقد تقدّم^(١). وقيل: المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلماً لهم ونقصاً من حقهم، أي ما أهلك قوماً إلا بعد إعدار وإنذار. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح؛ لأنه تصرف في ملكه؛ دليله قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾^(٢). وقيل: المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أي مخلصون في الإيمان. فالظلم المعاصي على هذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال سعيد بن جبير: على ملّة الإسلام وحدها. وقال الضحاك: أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي على أديان شتى؛ قاله مجاهد وقتادة. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف. وقيل: مختلفين في الرزق، فهذا

غنيّ وهذا فقير. ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ بالقناعة؛ قاله الحسن. ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء [ويمان]^(١): الإشارة للاختلاف؛ أي وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال: ﴿وَلِذَلِكَ﴾ ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضاً فإن تأنيث الرحمة غير حقيقي، فحملت على معنى الفضل. وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار به «ذلك» إلى شيئين متضادين؛ كقوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْزُرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(٢) ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَتَفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٣) وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٤) وكذلك قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(٥) وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أي ولما ذُكر خلقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروي عن ابن عباس أيضاً قال: خَلَقَهُمْ فريقين، فريقاً يرحمه وفريقاً لا يرحمه. قال المهدوي: وفي الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى: ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم. وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ والمعنى: ولشهود ذلك اليوم خلقهم. وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي للسعادة والشقاوة خلقهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى «تمت» ثبت ذلك كما أخبر وقدّر في أزاله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ «من» لبيان الجنس؛ أي من جنس الجنة وجنس الناس. «أجمعين» تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه ﷺ^(٦) أنه يملأ جنته بقوله: «ولكل واحدة منكم مِلْؤُها». خرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدّم.

(١) من ع، أ، و، ي. (٢) راجع ٤٤٨/١.

(٣) راجع ٧٢/١٣. (٤) راجع ٣٤٣/١٠.

(٥) راجع ٣٥٣/٨. (٦) من ع.

[١٢٠] ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئْتُ بِهِمْ فُوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ﴾ «كَلَّا» نصب بـ «نقص» معناه وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك. وقال الأخفش: «كَلَّا» حال مقدّمة، كقولك: كَلَّا ضربت القوم. ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم. ﴿مَا نَبِّئْتُ بِهِ فُوَادَكَ﴾ أي على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتاً و يقيناً. وقال ابن عباس: ما نشد به قلبك. وقال ابن جريج: نُصِّبَر به قلبك حتى لا تجزع. وقال أهل المعاني: نُطَيِّب، والمعنى متقارب. و «ما» بدل من «كَلَّا» المعنى: نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي في هذه السورة؛ عن ابن عباس وأبي موسى وغيرهما؛ وخصّ هذه السورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار. وقيل: خصّها بالذكر تأكيداً وإن كان الحق في كل القرآن. وقال قتادة والحسن: المعنى في هذه الدنيا، يريد النبوة. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموعظة ما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشریف لهذه السورة؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة^(١) والذكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التخصيص. ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

[١٢١] ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾.

[١٢٢] ﴿وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾.

[١٢٣] ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ * وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، وقد تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي غيبهما وشهادتهما؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن عباس: خزائن السموات والأرض. وقال الضحاك: جميع ما غاب عن العباد فيهما. وقال الباقر: غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض. وقال أبو علي الفارسي: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي علم ما غاب فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً؛ لأنه حذف حرف الجر؛ تقول: غبت في الأرض وغبت ببلد كذا. ﴿وَالَّذِي يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي يوم القيامة؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص «يَرْجَعُ» بضم الياء ويفتح الجيم؛ أي يُرَدُّ. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي ألجأ إليه وثق به. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي يجازي كلا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة. الباقر: بياء على الخبر. قال الأخفش سعيد: «يعملون» إذا لم يخاطب النبي ﷺ معهم؛ قال: بعضهم وقال: «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبي ﷺ وقال: قل لهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وقال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة «هود» من قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة.

تمت سورة «هود»

ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية كلها. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها. وروي أن اليهود سألو رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة؛ وسيأتي. وقال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو قصصت علينا؛ فنزل: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو حدثنا؛ فأنزل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾^(١). قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل.

[١] ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿الر﴾ تقدم القول^(٢) فيه؛ والتقدير هنا: تلك آيات الكتاب، على الابتداء والخبر. وقيل: «الر» أسم السورة؛ أي هذه السورة المسماة «الر» ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعني [بالكتاب^(٣) المبين] القرآن المبين؛ أي المبين حلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه وهداه وبركته. وقيل: أي هذه تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التوراة.

[٢] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوز أن يكون المعنى: إنا أنزلنا القرآن عربياً؛ نصب «قرآنًا» على الحال؛ أي مجموعاً. و«عربياً» نعت لقوله: «قرآنًا». ويجوز أن يكون توطئة للحال، كما نقول: مررت بزيد رجلاً صالحاً، و«عربياً» على الحال،

أَيُّ يُقْرَأُ بَلِغْتَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ. أَعْرَبَ بَيْنَ، وَمِنْهُ «الْثَّيْبُ تُعْرَبُ عَنْ نَفْسِهَا». ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ لَكِي تَعْلَمُوا مَعَانِيهِ، وَتَفْهَمُوا مَا فِيهِ. وَبَعْضُ الْعَرَبِ يَأْتِي بِأَنَّ مَعَ «لَعَلَّ» تَشْبِيهًا بِعَسَى. وَاللَّامُ فِي «لَعَلَّ» زَائِدَةٌ لِلتَّوَكِيدِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(١):

يَا أَبْنَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَ

وَقِيلَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ لَتَكُونُوا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ؛ فَيَعُودُ مَعْنَى الشَّكِّ إِلَيْهِمْ لَا إِلَى الْكِتَابِ، وَلَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيُّ أَنْزَلْنَا خَبَرَ يَوْسُفَ؛ قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا أَشْبَهَ بِالْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ يَرُودُ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: سَلَوْهُ لَمْ أَنْتَقِلْ آلَ يَعْقُوبَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ؟ وَعَنْ خَبَرِ يَوْسُفَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا بِمَكَّةَ مُوَافِقًا لِمَا فِي التَّوْرَةِ، وَفِيهِ زِيَادَةٌ لَيْسَتْ عَنْدهُمْ. فَكَانَ هَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ - إِذْ أَخْبَرَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ كِتَابًا [قَطَّ]^(٢) - وَلَا هُوَ فِي مَوْضِعِ كِتَابٍ - بِمَنْزِلَةِ إِحْيَاءِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَيِّتَ عَلَى مَا يَأْتِي فِيهِ.

[٣] ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ. ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، وَالتَّقْدِيرُ: قَصَصْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ. وَأَصْلُ الْقَصَصِ تَتَبَعَ الشَّيْءَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾^(٣) أَيُّ تَتَبَعِي أَثَرَهُ؛ فَالْقَاصُّ يَتَّبِعُ الْآثَارَ فَيُخْبِرُ بِهَا. وَالْحَسَنُ يَعُودُ إِلَى الْقَصَصِ لَا إِلَى الْقِصَّةِ. يَقَالُ: فَلَانِ حَسَنَ الْاِقْتِصَاصِ لِلْحَدِيثِ أَيُّ جَيِّدِ السِّيَاقَةِ لَهُ. وَقِيلَ: الْقَصَصُ لَيْسَ مَصْدَرًا، بَلْ هُوَ فِي مَعْنَى الْأَسْمِ، كَمَا يَقَالُ: اللَّهُ رَجَاؤُنَا، أَيُّ مَرْجُوْنَا فَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا: نَحْنُ نَخْبِرُكَ بِأَحْسَنِ الْأَخْبَارِ. ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أَيُّ بِوَحْيِنَا فَ«مَا» مَعَ الْفِعْلِ بِمَنْزِلَةِ الْمَصْدَرِ. ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ نَصَبَ الْقُرْآنَ عَلَى أَنَّهُ نَعْتٌ لِهَذَا، أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ، أَوْ عَطْفٌ بَيَانٌ. وَأَجَازُ الْفَرَاءِ الْخَفْضُ؛ قَالَ: عَلَى التَّكْرِيرِ؛ وَهُوَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ «مَا».

(١) الرجز للعجاج، وصدر البيت:

تقول بتي قد أني أناكا

(٢) من ع. (٣) راجع ١٣/٢٥٤.

وأجاز أبو إسحاق الرفع على إضمار مبتدأ؛ كان سائلاً سألته عن الوحي فقيل له: هو [هذا] ^(١) القرآن. ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ أي من الغافلين عما عرفناكه ^(٢).

مسألة - وأختلف العلماء لِمَ سُميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة؛ وبيانه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ^(٣). وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم - بعد الالتقاء بهم - عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ^(٤). وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا. وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما. وقيل: «أحسن» هنا بمعنى أعجب. وقال بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ أنظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وأمرأة العزيز؛ قيل: والملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير.

[٤] ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَّجِدِينَ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ «إِذْ» في موضع نصب على الظرف؛ أي أذكر لهم حين قال يوسف. وقراءة العامة بضم السين. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «يُوسُفَ» بالهمز وكسر السين. وحكى أبو زيد «يُوسَفَ» بالهمز وفتح السين. ولم ينصرف لأنه أعجمي؛ وقيل: هو عربي. وسئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيماً - عن «يوسف» فقال: الأسف في اللغة

(١) من ع وى.

(٢) راجع ص ٢٧٧ و ٢٥٥ من هذا الجزء.

الحزن؛ والأسيف العبد، وقد أجمعا في يوسف؛ فلذلك سمي يوسف. ﴿لَأَيِّهِ يَا أَبَتِ﴾ بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحزمة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التانيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلاً من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التانيث على المذكر فيقال: رجل نُكَّحَ وهُزَّأ؛ قال النحاس: إذا قلت «يَا أَبَتِ» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها - أن قولك: «يا أبه» يؤذي عن معنى «يا أبي»؛ وأنه لا يقال: «يا أَبَتِ» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبَت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتى» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يَا أَبَتِ» فكسر دل على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحاق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يا أبتى»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يَا أَبَتِ» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتى» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفاً فصارت «يا أبتا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاماً أقبل. وأجاز الفراء «يا أَبَتِ» بضم التاء. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جاءني أحد عشر، ورأيت ومررت بأحد عشر، وكذلك ثلاثة عشر وتسعة عشر وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسماً واحداً وأعربوهما بأخف الحركات. قال السهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسنداً؛ رواه الحرث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة - وهو رجل من أهل الكتاب - فسأل النبي ﷺ عن الأحد عشر كوكباً الذي رأى يوسف فقال: «الحرثان»^(١) والطارق والذيال وقابس والمصبح^(٢) والضروح^(٣) وذو الكنفات وذو القرع والفليق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له. قال ابن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قتادة أيضاً: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) في حاشية الجمل: جريان - بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد التحتية منقول من اسم طوق القميص. وقابس مقتبس النار وعمودان تشبة عمود والفليق نجم مفرد والمصبح ما يطلع قبل الفجر والقرع بفاء وراء مهملة ساكنة وعين: نجم عند الدلو. ووثاب بتشديد المثلة سريع الحركة وذو الكنفين تشبة كف نجم كبير. وهذه نجوم غير مرصودة. (٢) كذا في «عقد الجمان» للعيني، وفي الأصل «المنطح». (٣) وفي الجمل: الصروح.

أبيه. ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تأكيد. وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فجاء مذكراً؛ فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنها كما يخبر عن من يعقل. وقد تقدم هذا المعنى في قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾^(١). والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله. وإن كان خارجاً عن الأصل.

[٥] ﴿قَالَ يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي يحتالوا في هلاكك؛ لأن تأويلها ظاهر؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ. واللام في «لك» تأكيد، كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

الثانية - الرؤيا حالة شريفة، ومنزلة رفيعة؛ قال ﷺ: «لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادرة يراها الرجل الصالح أو تُرى له». وقال: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً». وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وروي «من سبعين جزءاً من النبوة». وروي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «جزءاً من أربعين جزءاً من النبوة». ومن حديث ابن عمر «جزء من تسعة وأربعين جزءاً». ومن حديث العباس «جزء من خمسين جزءاً من النبوة». ومن حديث أنس «من ستة وعشرين» وعن عبادة بن الصامت «من أربعة وأربعين من النبوة». والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديث السبعين؛ ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين، أما سائرهما فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بطال. قال أبو عبد الله المازري: والأكثر والأصح عند أهل الحديث «من ستة وأربعين». قال الطبري: والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله: «إنها جزء من سبعين جزءاً من النبوة» فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان؛ وأما قوله: «إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين» فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق - رضي الله عنه - أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السَّيرَات^(١)، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة - إن شاء الله - جزء من أربعين جزءاً من النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادرة بين جزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع - والله أعلم - لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته في عبادة ربه وبقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب: كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢).

قلت: فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكره أبو سعيد الأسفَاقُسي^(٣) عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» فإن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ في النبوة ثلاثة وعشرين عاماً - فيما رواه عكرمة وعمر بن دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاماً وجدنا ذلك جزءاً من ستة وأربعين جزءاً؛ وإلى هذا القول أشار المازري في كتابه «المعلم» واختاره القنوي^(٤) في تفسيره من سورة «يونس» عند قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى^(٥) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. وهو فاسد من وجهين:

(١) السيرات (جمع سيرة) بسكون الباء: شدة البرد.

(٢) راجع ٢٧٨/١٠. (٣) كذا في الأصول وصوابه: الصفاقسي.

(٤) في ع: الغزنوي. (٥) راجع ٤٥٨/٨.

أحدهما - ما رواه أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدة الوحي كانت عشرين سنة، وأن النبي ﷺ بعث على رأس أربعين، فأقام بمكة عشر سنين، وهو قول عروة والشعبي وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس، وإذا ثبت هذا الحديث^(١) بطل ذلك التأويل - الثاني: أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة - إنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب؛ كما قال عليه السلام: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم» الحديث. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة؛ قال ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» وأن التصديق بها حق، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة.

الرابعة - إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلط أهلاً لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتين في السجن، ورؤيا بُخْتَنَصْر، التي فسرّها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي ﷺ، ومنام عاتكة، عمة رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري «باب رؤيا أهل السجن» - فالجواب أن الكافر والفاجر والفاقد والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة؛ وقد تقدّم في «الأنعام»^(٢) أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلّة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلب: إنما ترجم البخاري

(١) في ع وي: هذا الخلاف.

(٢) راجع ٣/٧ فما بعدها.

بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءاً من النبوة.

الخامسة - الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقاً لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر^(١) الأضغاث هي الحُلُم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغثاً، لأن فيها أشياء متضادة قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساماً تغني عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا ثلاثة منها أهويل الشيطان ليُحزن ابن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». قال قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله ﷺ.

السادسة - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام، رؤيا على وزن فعلى كالسُقيا والبُشرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقليل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائي علماً ناشئاً، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن الله ملكاً يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صوراً محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفي الحاليتين تكون مُبَشِّرة أو مُنْذِرة؛ قال ﷺ في صحيح مسلم وغيره: «رَأَيْتُ سَوْدَاءَ^(٢) نَائِثَةَ الرَّأْسِ تَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَهْبِيعَةٍ^(٣) فَأَوَّلَتْهَا الْحُمَى».

(١) ع حيز.

(٢) أي امرأة سوداء، كما في رواية النسائي.

(٣) المهبيعة: هي الجحفة، ميقات أهل الشام.

و «رأيت سيفي قد أُنْقَطِعَ صدرُهُ وَبَقِرَا تُنَحَّرُ فَأُولَتْهُمَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُقْتَلُ وَالْبَقَرُ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي يُقْتَلُونَ». و «رأيت أني أدخلت يدي في دِرْعٍ حَصِينَةٍ فَأُولَتْهَا الْمَدِينَةُ». و «رأيت في يدي سُوَارِينَ فَأُولَتْهُمَا كَذَابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي». إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولاً [فأولاً]^(١)، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكير؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقرأ فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة - إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيراً وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾؟ فالجواب - أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدّمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وُجِدَتْ كما رأى فلا اعتراض؛ روي أن يوسف عليه السلام كان ابن أئنتي عشرة سنة.

الثامنة - هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رَزِينِ الْعُقَيْلِيُّ أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة». و «الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو مُحِبّاً أو ناصحاً» أخرجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رَزِينِ أَسْمَهُ لَقِيطُ بْنُ عَامِرٍ. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: «بِالْنبوة يلعب؟» وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأوّلت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.

التاسعة - وفي هذه الآية دليل على أن مباحاً أن يحذر المسلم^(٢) أخاه المسلم من يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب - عليه السلام - قد حذر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً، وفيها أيضاً ما يدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً؛ وقال النبي ﷺ: «استعينوا على [إنجاح]»^(١) حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود». وفيها أيضاً دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدلّ أيضاً على أن يعقوب عليه السلام كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص^(٢) الرؤيا عليهم خوف أن تغلّ بذلك صدورهم فيعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدلّ على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبريّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردّه القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيويّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مَن من للهلاك، والتأمر في قتله، ولا ألتفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلّة نبيّ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصفائر على ما تقدّم ويأتي.

العاشرة - روى البخاريّ عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» وهذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيتها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لتزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدلّ على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدّم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣) أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاريّ مخرجه على الأغلب، والله أعلم.

(١) الزيادة عن «الجامع الصغير».

(٢) في ع: قص.

(٣) راجع ٤٥٨/٨.

الحادية عشرة - روى البخاري عن أبي سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره». قال علماؤنا: فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها؛ ألا ترى قول أبي قتادة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئاً. وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليصق عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً وليتحول عن جنبه الذي كان عليه». وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل». قال علماؤنا: وهذا كله ليس بمتعارض، وإنما هذا الأمر بالتحول، والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه، وإذا تمضمض تفل وبصق، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السحر من الليل.

[٦] ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيْدُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَلَاسِقُ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف في موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، وكذلك الكاف في قوله: ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ و «ما» كافة. وقيل: ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا. قال مقاتل: بالسجود لك. الحسن: بالنبوة. والاجتماع اختيار معالي الأمور للمجتبي، وأصله من جَبَيْتُ

الشيء أي حصلته، ومنه جبيبت الماء في الحوض؛ قاله النحاس. وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعدد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى؛ من التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا. قال عبد الله بن شداد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف ﷺ بعد أربعين سنة؛ وذلك منتهى الرؤيا. وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا ﷺ نحو ذلك، وكان الصديق رضي الله عنه من أعبر الناس لها، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم، والطبع والإحسان، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا. وقد قيل في تأويل قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة إلى النبوة، وهو المقصود بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي بالنبوة. وقيل: بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل: بإنجائك من كل مكروه. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بالخلعة، وإنجائه من النار. ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ بالنبوة. وقيل: من الذبح^(١)؛ قاله عكرمة. وأعلمه الله تعالى بقوله: ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أنه سيعطي بني يعقوب كلهم النبوة؛ قاله جماعة من المفسرين. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بما يعطيك. ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله بك.

[٧] ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾.

[٨] ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

[٩] ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ امْكُرُوا أَرْضًا يَحْتَلُّ لَكُمْ وَتَجَهُ أَيْكُمُ الْمَكِيدُونَ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ يعني من سأل عن حديثهم. وقرأ أهل مكة «آية» على التوحيد؛ وأختار أبو عبيد «آيات» على الجمع؛ قال: لأنها خير كثير. قال النحاس: و «آية» هنا قراءة حسنة؛ أي لقد كان للذين سألوا عن خبر

(١) تقدم أن الذبح هو إسماعيل وهو الحق وسيأتي في «الصفات» أيضاً، وفي ع: والفدا من الذبح.

يوسف آية فيما خبروا به، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج أبنته إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ وإنما وجّه اليهود [إليهم]^(١) من المدينة يسألونه عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة «يوسف» جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة؛ فكان ذلك آية للنبي ﷺ، بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم عليه السلام الميت. ﴿آيَاتُ﴾^(٢) موعظة؛ وقيل: عبرة. وروي أنها في بعض المصاحف «عبرة». وقيل: بصيرة. وقيل: عجب؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أي عجب. قال الثعلبي في تفسيره: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه؛ وقال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة، وقد تقدّم ردّ هذا القول. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ وأسماءهم: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً. قال السهيلي: وأمّ يعقوب أسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن أزر هو خال يعقوب. وقيل: في أسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٣). وقد تقدّم الردّ على ما قاله ابن زيد، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ﴾ «يوسف» رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد، وهي التي يتلقى بها القسم؛ أي والله ليوسف. ﴿وَأَخُوهُ﴾ عطف عليه. ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِثْلًا﴾ خبره، ولا يثنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتأمروا في كيده. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة، وكانوا عشرة. والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

(١) من ع وزوك وى.

(٢) في ع: آية. بالتوحيد وهو المطابق للتفسير.

(٣) راجع ١١٦/٥.

والرهط. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً؛ بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع أستوائهم في الانتساب إليه. وقيل: لفي خطأ بين بإيثاره يوسف وأخاه علينا.

قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ في الكلام حذف؛ أي قال قائل منهم: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ليكون أحسم لمادة الأمر. ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ أي في أرض، فأسقط الخافض وأنصب الأرض؛ وأنشد سيويه فيما حذف منه «في»:

لَذَنْ يَهْزُ الْكَفَّ يَغْسِلُ مَثْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّغْلَبُ^(١)

قال النحاس: إلا أنه في الآية حسن كثير؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدى الفعل إليه. والقائل قيل: هو شمعون، قاله وهب بن منبه. وقال كعب الأحبار؛ دان. وقال مقاتل: روبيل؛ والله أعلم. والمعنى أرضاً تبعد عن أبيه؛ فلا بد من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه في أرض^(٢). ﴿يَخْلُ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه: يخلص ويصفو. ﴿لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ﴾ فيقبل عليكم بكليته. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد الذنب، وقيل: من بعد يوسف. ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي تائبين؛ أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم؛ وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم. وقيل: ﴿صَالِحِينَ﴾ أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثره ولا تفضيل.

[١٠] ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

(١) البيت لمساعدة بن جزية وقد وصف فيه رمحاً لين الهز؛ فشبه اضطرابه في نفسه أو في حال هزه بعلان الثعلب في سيره؛ والعلسان: سير سريع في اضطراب. واللدن: الناعم اللين. ويروى: لذ؛ أي مستلذ عند الهز للينه. (شواهد سيويه).

(٢) في ع: أرضه.

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله ابن عباس. وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [الآية^(١)]. وقيل: شمعون. ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة «في غيابة الجب». وقرأ أهل المدينة «في غِيَابَاتِ الْجُبِّ» وأختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه، وأنكر الجمع لهذا. قال النحاس: وهذا تضيق في اللغة؛ «وغيابات» على الجمع يجوز [من وجهين^(٢)]: حكى سيبويه سير عليه عشيَّاتٍ وأصيلاتٍ، يريد عِشِيَّةً وأصيلًا، فجعل كل وقت منها عِشِيَّةً وأصيلًا؛ فكذا جعل كل موضع مما يُغَيَّبُ غِيَابَةً. [والآخر - أن يكون في الجب غيابات (جماعة)]. ويقال: غاب يَغِيْبُ^(٣) غَيْبًا وَغِيَابَةً وَغِيَابًا؛ كما قال الشاعر:

أَلَا فَالْبَيْتَا شَهْرَيْنِ أَوْ نَصْفَ ثَالِثٍ أَنَا ذَاكُمَا قَدْ غَيَّبْتَنِي غِيَابِيَا

قال الهروي: والغِيَابَةُ شبه لَجَفٍ^(٤) أو طاق في البئر فوق الماء، يغيب الشيء عن العين. وقال ابن عُرَيْزٍ: كل شيء غيبت عنك شيئاً فهو غِيَابَةٌ. قلت: ومنه قيل للقبر غِيَابَةٌ؛ قال الشاعر:

فَلَمَّا أَنَا يَوْمًا غَيَّبْتَنِي غِيَابَتِي فَسِيرُوا بِسِيرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ

والجب الرَكِيَّةُ التي لم تُطَوَّ، فإذا طُوِيَتْ فهي بئر؛ قال الأعشى:

لَنْ كُنْتُ فِي جِبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً وَرُقِيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ^(٥)

وسميت جُبًّا لأنها قُطِعَتْ في الأرض قَطْعًا؛ وجمع الجب جِبِيَّةٌ وَجِبَابٌ وَأَجِبَابٌ؛ وجمع بين الغِيَابَةِ والجِبِّ لأنه أراد ألقوه في موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل:

(١) من ع. (٢) الزيادة عن النحاس.

(٣) اللجف: الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف.

(٤) بعده كما في الديوان:

وتعلم أنني عنك لست بمجرم
كما شرقت صدر القناة من الدم

ليستدرجك القول حتى تهره
وتشرق بالقول الذي قد أذعته

هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن؛ قاله وهب بن منبه. مقاتل: وهو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب.

الثانية - قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة: «تَلْتَقِطُهُ» بالتاء، وهذا محمول على المعنى؛ لأن بعض السيارة سيارة؛ وقال سيبويه: سقطت بعض أصابعه، وأنشد^(١):

وَتَشْرِقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَعَتْهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَتَاةِ مِنَ الدِّمِّ

وقال آخر:

أَرَى مَرَّ السَّنِينِ أَخَذَنْ مَنِّي كَمَا أَخَذَ السَّرَّارُ^(٢) مِنَ الْهَلَالِ

ولم يقل شَرِقَ ولا أخذت. والسيارة الجمع الذي يسرون في الطريق للسفر؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود؛ فإن من التقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد؛ وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم.

الثالثة - وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاً ولا آخراً؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا. وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، فكانت هذه زلة منهم؛ وهذا يردّه أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه. وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله؛ وهذا أشبه، والله أعلم.

الرابعة - قال ابن وهب قال مالك: طُرح يوسف في الجب وهو غلام، وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعني أنه كان صغيراً؛ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

(١) البيت للأعشى، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشيباني، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة، فيقول له: يعود عليك مكروه ما أذعت عني من القول ونسبته إلي من القبيح، فلا تجد منه مخلصاً. والشرق بالماء كالغصص بالطعام.

(٢) سرار الشهر (بفتح السين المهملة وكسرهما) وسرره: آخر ليلة منه.

فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴿١﴾ قال: ولا يُلْتَقِطُ إِلَّا الصَّغِيرُ؛ وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ﴾ وذلك [أمر] ^(١) يختص بالصغار؛ وقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتُغٍ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

الخامسة - الالتقاط تناول الشيء من الطريق؛ ومنه اللَّقِيط واللَّقْطَةُ، ونحن نذكر من أحكامها ما دلَّت عليه الآية والسُّنة، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة؛ قال ابن عرفة: الالتقاط وجود الشيء على غير طلب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي يجده من غير أن يحتسبه. وقد اختلف العلماء في اللَّقِيط؛ فقيل: أصله الحرية لغلبة الأحرار على العبيد؛ وروي عن الحسن بن عليٍّ أنه قضى بأن اللَّقِيط حُرٌّ، وتلا ﴿وَشَرُّهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك؛ وهو قول عمر بن الخطاب، وكذلك روي عن عليٍّ وجماعة. وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: إن نوى رِقَه فهو مملوك، وإن نوى الحِسبة فهو حرٌّ. وقال مالك في موطنه: الأمر عندنا في المنبوذ أنه حرٌّ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه، وبه قال الشافعي؛ واحتج بقوله عليه السلام: «وإنما الولاء لمن أعتق» قال: فنفى الولاء عن غير المعتق. واتفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللَّقِيط لا يُوالي أحداً، ولا يرثه أحد بالولاء. وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللَّقِيط يوالي من شاء، فمن ولاءه فهو يرثه ويعقل عنه؛ وعند أبي حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقل عنه الذي والاه، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبداً. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن عليٍّ رضي الله عنه: المنبوذ حرٌّ، فإن أحب أن يوالي الذي التقطه والاه، وإن أحب أن يوالي غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة، وهو حرٌّ. قال ابن العربي: إنما كان أصل اللَّقِيط الحرِّية لغلبة الأحرار على العبيد، فقضى بالغالب، كما حكم أنه مسلم أخذاً بالغالب؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم: يُحكم بالأغلب؛ فإن وجد عليه زيُّ اليهود فهو يهودي، وإن وجد عليه زيُّ النصارى فهو نصراني، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام. وقال غيره: لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تغليياً لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلَى عليه، وهو مقتضى قول أشهب؛ قال أشهب: هو مسلم أبداً، لأنني أجعله مسلماً على كل حال، كما أجعله حراً على كل حال. واختلف الفقهاء في المنبوذ تدلّ^(١) البيّنة على أنه عبد؛ فقالت طائفة من أهل المدينة: لا يقبل قولها^(٢) في ذلك، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر: هو حرّ؛ ومن قضي بحريته لم تقبل البيّنة في أنه عبد. وقال ابن القاسم: تقبل البيّنة في ذلك؛ وهو قول الشافعي والكوفي.

السادسة - قال مالك في اللقيط: إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البيّنة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمداً، وإن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شيء على الأب، والملتقط متطوّع بالنفقة. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللقيط فهو متطوّع، إلا أن يأمره الحاكم. وقال الأوزاعي: كلّ من أنفق على من لا تجب عليه نفقة رجع بما أنفق. وقال الشافعي: إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال، فإن لم يكن ففيه قولان: أحدهما - يستقرض له في ذمته. والثاني - يقسّط على المسلمين من غير عوض.

السابعة - وأما اللقطة والضوّال فقد اختلف العلماء في حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم: اللقطة والضوّال سواء في المعنى، والحكم فيهما سواء؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي^(٣)، وأنكر قول أبي عبيد القاسم بن سلام - أن الضالة لا تكون إلا في الحيوان واللقطة في غير الحيوان - وقال هذا غلط؛ واحتج بقوله ﷺ في حديث الإفك للمسلمين: «إن أمّكم ضلّت فإلا دنتها» فأطلق ذلك على القلادة.

الثامنة - أجمع العلماء على أن اللقطة ما لم تكن تافهاً يسيراً أو شيئاً لا بقاء لها فإنها تُعرّف حولاً كاملاً، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له، وإن تصدّق بها فصاحبها مخير بين التضمين وبين أن ينزل على أجرها، فأبي ذلك تخيير كان

(١) في ع وك و ووى: تشهد. (٢) كذا في الأصول. (٣) في ع: الطبري.

ذلك له بإجماع؛ ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول. وأجمعوا أن ضالة الغنم المخوف عليها له أكلها.

التاسعة - وأختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلاً على إباحة التقاط اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلاً. وقال في الشاة: «لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّئِبِ» يحضه على أخذها، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيه ربه. ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول الله ﷺ كما قال في ضالة الإبل، والله أعلم. وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها؛ هذا قول إسماعيل بن إسحاق رحمه الله. وقال المزيّني عن الشافعي: لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها إذا كان أميناً عليها؛ قال: وسواء قليل اللقطة وكثيرها.

العاشرة - روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن اللقطة فقال: «اعْرِفْ عِفَاصَهَا»^(١) ووكاءها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها» قال: فضالة الغنم يا رسول الله؟ قال: «لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّئِبِ» قال: فضالة الإبل؟ قال: «مَا لَكَ وَلِهَا مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا». وفي حديث أبي قال: «أَحْفَظْ عَدَدَهَا وَوِعَاءَهَا وَوِكَاءَهَا فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا وَإِلَّا فَاسْتَمْتِعْ بِهَا» ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره. وأجمع العلماء أن عِفَاصَ اللقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلتها عليها؛ فإذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دُفعت له؛ قال ابن القاسم: يُجَبَّرُ عَلَيَّ دَفْعُهَا؛ فإن جاء مستحقٌ يستحقها بيّنة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئاً، وهل يُحْلَفُ مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأول لأشهب، والثاني لابن القاسم، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تدفع له إلا إذا أقام بيّنة أنها له؛ وهو بخلاف نص الحديث؛

(١) العفّاص: الرعاء الذي يكون به النفقة، جلدأ كان أو غيره. والوكاء هو الخيط الذي يشد به الرعاء. والمراد بالعفّاص والوكاء أن يعلم الملتقط صدق واصفها من كذبه، وبالحذاء خفها، فهي تقوى بأخفافها على السير وورود الماء والشجر.

ولو كانت البيّنة شرطاً في الدفع لما كان لذكر العِفَاصِ والوَكَاءِ والعَدَدِ معنى؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال؛ وكَمَّا جاز سكوت النبي ﷺ عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة. والله أعلم.

الحادية عشرة - نصّ الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما، وسكت عما عداهما من الحيوان. وقد اختلف علماؤنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقات الخيل والبغال والحمير، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة: لا تلتقط؛ وقول ابن القاسم أصح؛ لقوله عليه السلام: «احفظ على أخيك المؤمن ضالّته».

الثانية عشرة - واختلف العلماء في النفقة على الضوّالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم: إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره؛ قال: وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحقّ به كالرهن. وقال الشافعي: إذا أنفق على الضوّالّ من أخذها فهو متطوع؛ حكاه عنه الرّبيع. وقال المُرَني عنه: إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت ديناً، وما أدعى قُبُلَ منه إذا كان مثله قَصْداً. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها، والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة.

الثالثة عشرة - ليس في قوله ﷺ في اللّقطة بعد التعريف: «فاستمتع بها» أو «فشانك بها» أو «فهي لك» أو «فاستنفقها» أو «ثم كُلّها» أو «فهو مال الله يؤتية من يشاء» على ما في صحيح مسلم وغيره، ما يدلّ على التملك، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهنيّ عن النبي ﷺ: «فإن لم تعرّف»^(١)

(١) (إن لم تعرف): أي لم تعرف صاحبها.

فاستنفقها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوماً من الدهر فأدّاها إليه» في رواية «ثم كُلّها فإن جاء صاحبها فأدّاها إليه» خرجه البخاريّ ومسلم. وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحقّ بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله؛ لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام: «فأدّاها إليه».

[١١] ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾.

[١٢] ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك ببني يعقوب! ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلاب؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال. وقالوا ليعقوب: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول. وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي. قرأ يزيد بن القَعْقَاع وعمر بن عُبيد والزَّهْرِيُّ «لَا تَأْمَنَّا» بالادغام، وبغير إشمام وهو القياس؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكناً. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «لَا تَأْمَنَّا» بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رَزين - وروى عن الأعمش - «لَا تَيْمَنَّا» بكسر التاء، وهي لغة تميم؛ يقولون: أنت تَضرب؛ وقد تقدّم. وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدلّ على حال الحرف قبل إدغامه. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ أي في حفظه [وحيطته]^(١) حتى نردّه إليك. قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ الآية؛ فحينئذ قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيْخَزْنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فقالوا حينئذ جواباً لقوله: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ الآية. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ﴾ «غدا» ظرف، والأصل عند سيبويه غَدَوٌ، وقد نطق به على الأصل؛ قال النَّضْر بن شميل: ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدوة،

(١) من عوى. وفي أرو: وغفلة.

وكذا بكرة. «تَرْتَعُ وَتَلْعَبُ» بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة. والمعروف من قراءة أهل مكة. «تَرْتَعُ» بالنون وكسر العين. وقراءة أهل الكوفة. «يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ» بالياء وإسكان العين. وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَعَ الإنسان والبعير إذا أَكَلَا كيف شاء؛ والمعنى؛ نتسع في الخصب؛ وكل مخصب راتع؛ قال:

فارعي فزاره لا هناك المَرْتَعُ

وقال آخر^(١):

تَرْتَعُ ما غَفَلْتُ حتى إذا أَذْكَرْتُ فإِثْمًا هي إقبالٌ وإدبارُ

وقال آخر^(٢):

أَكْفَرًا بعد رَدِّ الموتِ عَنِّي وبعد عَطَائِكَ المائةِ الرِّتَاعَا

أي الراتعة لكثرة المرعى. وروى مَعْمَرُ عَنْ قَتَادَةَ «ترتع» تسعى؛ قال النحاس: أخذه من قوله: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ لأن المعنى: نستبق في العَدْوِ إلى غاية بعينها؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحده ﷺ. و«يرتع» بكسر العين من رعى الغنم، أي ليتدرب بذلك ويرتجل؛ فمرة يرتع، ومرة يلعب لصغره. وقال القُتَيْبِيُّ «ترتع» نتحارس ونتحافظ، ويرعى بعضنا بعضاً؛ من قولك: رعاك الله؛ أي حفظك. «ونلعب» من اللعب وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء. وقيل: المراد باللعب المباح من الانبساط، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم: «ونلعب». ومنه قوله عليه السلام: «فَهَلَّا بِكَرًّا تُلَاعِبُهَا وتُلَاعِبُكَ»^(٣).

(١) البيت للخنساء من قصيدة تراثي بها أخاها صخرًا. ومعنى: (ترتع) ترعى. تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها، فكلمها غفلت عنه رعت، فإذا أدركته حنت إليه فأقبلت وأدبرت، فضربتها مثلاً لفقدها أخاها صخرًا.

(٢) هو القطامي.

(٣) الخطاب لجابر بن عبد الله، وذكر ملا علي عن الطيبي: أن الملاعبة عبارة عن الألفة التامة، فإن الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول، فلم تكن محبتها كاملة، بخلاف البكر. ويروى: تداعبها وتداعبك. والدعابة الممازحة.

وقرأ مجاهد وقتادة: «يُرْتَع»^(١) على معنى يُرْتَع مطيته، فحذف المفعول؛ «وَيَلْعَبُ» بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى: هو ممن يلعب. «وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ» من كل ما تخاف عليه. ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا، ويحتمل أنهم كانوا رجالة. وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضراراً به.

[١٣] ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾^(١٣).

[١٤] ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ﴾^(١٤).

قوله تعالى: «قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» في موضع رفع؛ أي ذهابكم به. أخبر عن حزنه لغيبته. «وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شذ على يوسف، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكلبي. وقيل: إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل، وكان يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله، فدرأ عنه واحد، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة إخوته، لما تماثلوا على قتله، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام. وقيل: إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له، فكفى عنهم بالذئب مساترة لهم؛ قال ابن عباس: فسامهم ذئاباً. وقيل: ما خافهم عليه، ولو خافهم لما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحاري^(٢). والذئب مأخوذ من تذأبت^(٢) الريح إذا جاءت من كل وجه؛ كذا قال أحمد بن يحيى؛ قال: والذئب مهموز

(١) (يرتع) من ارتع، والذي في تفسير ابن عطية والألوسي وأبي حيان عن مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجزم (تلعب) قال ابن عطية: (وقراءة مجاهد وقتادة «نرتع» بضم النون وكسر التاء، و«تلعب» بالنون والجزم). (٢) في ع: البراري. ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزمخشري، وقال الأصمعي: إن تذأبت مشتق من الذئب، لأن الذئب يفعله في عدوه، وتعب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة قليل مخالف للقياس.

لأنه يجيء من كل وجه. وروى ورش عن نافع «الذَّيْبُ» بغير همز، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء. ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي مشغولون بالرعي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه. ﴿إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ﴾ أي في حفظنا أغنامنا؛ أي إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا. وقيل: ﴿لَخَّاسِرُونَ﴾ لجاهلون بحقه. وقيل: لعاجزون.

[١٥] ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ «أَنْ» في موضع نصب؛ أي على أن يجعلوه في غيابة الجب. قيل في القصة: إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظته، وسلمه إلى روبيل وقال: يا روبيل! إنه صغير، وتعلم يا بني شفقتي عليه؛ فإن جاع فأطعمه، وإن عطش فأسقه، وإن أعيا^(١) فأحمله ثم عجل برده إليّ. قال: فأخذوا يحملونه على أكتافهم، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يُشيعهم ميلاً ثم رجع؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الغيظ والعسف؛ فاستغاث بروبيل وقال: «أنت أكبر إخوتي، والخليفة من بعد والدي عليّ، وأقرب الأخوة إليّ، فارحمني وأرحم ضعفي» فلطمه لكمة شديدة وقال: لا قرابة بيني وبينك، فادع الأحد عشر كوكباً فلتنجك منا؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال: يا أخي! ارحم ضعفي وعجزي وحادثة سني، وارحم قلب أبيك يعقوب؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده؛ فرق قلب يهوذا فقال: والله لا يصلون إليك أبداً ما دمتُ حياً، ثم قال: يا إخوتاه! إن قتل النفس التي حرم الله من أعظم الخطايا، فردوا هذا الصبيّ إلى أبيه، ونعاهده

(١) أعيا الرجل في المشي: كلّ.

ألا يحدث والده شيء مما جرى أبداً؛ فقال له إخوته: والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب، والله لئن لم تدعه لنقتلك معه، قال: فإن أبيتم إلا ذلك فما هنا هذا الجب الموحش القفر، الذي هو مأوى الحيات والهوام فألقوه فيه، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد، وقد استرحتم من دمه، وإن انفلت على أيدي سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد؛ فأجمع رأيهم على ذلك؛ فهو قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجَبِّ﴾ وجواب «لما» محذوف؛ أي فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه في الجب عظمت فتنتهم. وقيل: جواب «لما» قولهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾. وقيل: التقدير فلما ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها، هذا على مذهب البصريين: وأما على قول الكوفيين فالجواب. «أوحينا» والواو مقحمة، والواو عندهم تزداد مع لما وحتى؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(١) أي فتحت، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ﴾^(٢) أي فار. قال امرئ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاخَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى^(٣)

أي انتحى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا وَلَهُ لِلْجَبِّينِ * وَنَادَيْنَاهُ﴾ أي ناديناه^(١). وفي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ دليل على نبوته في ذلك الوقت. قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة: أعطاه الله النبوة وهو في الجب على حجر مرتفع عن الماء. وقال الكلبي: ألقى في الجب وهو ابن ثماني عشرة سنة، فما كان صغيراً؛ ومن قال كان صغيراً فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه. وقيل: كان وحي إلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾^(٤). وقيل: كان مناماً، والأول أظهر - والله أعلم - وأن جبريل جاءه بالوحي.

قوله تعالى: ﴿لَتَنبَيِّنَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا﴾ فيه وجهان: أحدهما - أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب تقوية لقلبه، وتبشير له بالسلامة. الثاني - أنه أوحى إليه بالذي يصنعون به؛ فعلى هذا [يكون]^(٥) الوحي قبل إلقائه

(١) الصحيح أن الواو في هذه الآية ليس زائداً وإنما هو للحال مع تقدير قد وذلك لإفادة أن أهل الجنة هيأ الله لهم ما يزيد سرورهم بخلاف أهل النار فتحت لهم عند حضورهم زيادة في حسرتهم. راجع ٢٨٤/١٥ و ١٠٤. (٢) راجع ٣٠/٩. (٣) تمام البيت:

بنا بطن خبت ذي قفاف عقتل

(٤) راجع ١٣٣/١٠. (٥) منع.

في الجب إنذاراً له. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه. وقيل: بوحى الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: «الهاء» ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيعرفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم. ومما ذكر من قصته إذ ألقى في الجب - ما ذكره السدّي وغيره - أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر، تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه؛ فقال: يا إخوتاه! ردّوا عليّ قميصي أتواري به في هذا الجب، فإن متّ كان كفني، وإن عشت أوارى^(١) به عورتى؛ فقالوا: أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً فلتؤنسك وتكسك؛ فقال: إني لم أر شيئاً، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها. وقيل: إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدي؛ قال جبريل: فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعده على الصخرة سالماً. وكان ذلك الجب مأوى الهوام؛ فقام على الصخرة وجعل يبكي، فنادوه، فظن أنهارحمة عليه أدركتهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عرياناً نزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين ألقى في النار عرياناً أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحق، ثم ورثه يعقوب، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعله في عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما ألقى في الجب عرياناً أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه. قال وهب: فلما قام على الصخرة قال: يا إخوتاه! إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلّكم فأنس بعضكم بعضاً فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتي، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابي؛ فقال له جبريل: يا يوسف! كف عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله

(١) في ع: أتواري به وأستر عورتى.

بمكان؛ ثم علمه فقال: قل اللهم يا مؤنس كل غريب، يا صاحب كل وحيد، يا ملجأ كل خائف، يا كاشف كل كرب، يا عالم كل نجوى، يا منتهى كل شكوى، يا حاضر كل ملأ، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير؛ فقالت الملائكة: إلهنا! نسمع صوتاً ودعاء، الصوت صوت صبيّ، والدعاء دعاء نبيّ. وقال الضحّاك: نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الحبّ فقال له: ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهم عجل الله لك خروجك من هذا الحبّ؟ فقال: نعم! فقال له: قل يا صانع كل مصنوع، يا جابر كل كسير، يا شاهد كل نجوى، يا حاضر كل ملأ، يا مفرّج كل كرب، يا صاحب كل غريب، يا مؤنس كل وحيد، أيتني بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك؛ فرددها يوسف في ليلته مراراً؛ فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الحبّ.

[١٦] ﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أي ليلاً، وهو ظرف يكون في موضع الحال؛ وإنما جاءوا عشاءً ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة؛ ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العيينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار؛ فروي أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى في الغنم شيء؟ قالوا: لا. قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكله الذئب، فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ على ما يأتي بيانه [إن شاء الله] ^(١). وقال السديّ وابن حبان: إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشياً عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب؛ قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحسّ بنفس، ولم يتحرك له عرق؛ فقال لهم يهوذا: ويل لنا من ديان يوم الدين! ضيعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يقف يعقوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه

في حجر روبيل؛ فقال: يا روبيل! ألم آتمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهداً؟ فقال: يا أبت! كُفَّ عَنِّي بكاءك أخبرك؛ فكفَّ يعقوب بكاءه فقال: يا أبت ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾.

الثانية - قال علماؤنا: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر. وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إِذَا أَشْتَبَكَثَ دَمْعُ فِي خُذُودٍ تَبَيَّنَ مِنْ بَكْيٍ مِمَّنْ تَبَاكَى

[١٧] ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ نفتعل، من المسابقة. وقيل: أي نَسْتَضِلُّ؛ وكذا في قراءة عبد الله ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَضِلُّ﴾ وهو نوع من المسابقة؛ قاله الزجاج. وقال الأزهري: النضال في السهام، والرَّهَانُ في الخيل، والمسابقة تجمعهما. قال القشيري أبو نصر: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ أي في الرمي، أو على الفرس؛ أو على الأقدام؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو، لأنه الآلة في قتال العدو، ودفع الذئب عن الأغنام. وقال السدي وأبن حبان: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ نشد جرياً لنرى أيُّنا أسبق. قال ابن العربي: المسابقة شِرْعَةٌ في الشريعة، وَخَصْلَةٌ بديعة، وَعَوْنٌ على الحرب؛ وقد فعلها ﷺ بنفسه وبخيله، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها؛ فلما كبر رسول الله ﷺ سابقتها فسبقته؛ فقال لها: «هذه بتلك».

قلت: وسابق سلمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذي^(١) قَرَدَ إلى المدينة فسبقه سلمة؛ خرجه مسلم.

(١) ذي قرد: موضع قريب من المدينة أغاروا فيه على لقاح رسول الله ﷺ فغزاهم.

الثانية - وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أُضْمِرَتْ^(١) [من الحَفَيَاء^(٢)] وكان أمدُها ثِنِيَّةً^(٣) الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضْمَرْ من الثِنِيَّةِ إلى مسجد بني زُرَيْق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني - أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث - ألا يسابق المضمّر مع غير المضمّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيل التي يجب أن تُضْمَرْ ويسابق عليها، وتقام هذه السِّتة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة - وأما المسابقة بالتّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلاً فمِنَّا من يصلح خِباءه، ومنا من يَنْتَضِل، وذكر الحديث. وخرّج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا سَبَقَ^(٤) إلا في نَضَل أو خُف أو حافر». وثبت ذكر التّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي؛ وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العَضْبَاء لا تُسَبَق - قال حُمَيْد: أو لا تكاد تُسَبَق - فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: «حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

الرابعة - أجمع المسلمون^(٥) على أن السَّبَق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخفّ والحافر والتّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قمار. وقد زاد أبو البَخَرِيِّ

(١) تضيير الخيل: هو أن يظهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تelf إلا قوتاً لتخف. وقيل: تشد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشد لحمها، ويكون ذلك لغزو أو سباق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك). والحفيا (بالمد ويقصر): موضع بالمدينة بينه وبين ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة.

(٣) الثنية في الجبل كالعقبه فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثنية الوداع مشرفة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بني زريق ميل.

(٤) «لا سبق»: هو بفتح الباء ما يجعل للسابق على سبقه من المال؛ وبالسكون مصدر. قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح؛ أي لا يحل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

(٥) في ع و ك و ي: العلماء.

القاضي في حديث الخفّ والحافر والتّصل «أو جناح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد رُوي عن مالك أنه قال: لا سَبَقَ إلا في الخيل والرمي، لأنه قوّة على أهل الحرب؛ قال: وسَبَقَ الخيل أحبّ إلينا من سَبَقَ الرمي. وظاهر الحديث يسوّي بين السَبَق على الثُّجُب والسَبَق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. ورُوي عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤوّل قوله^(١)؛ لأنّ حملته على العموم [في كل شيء]^(١) يؤدّي إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق.

الخامسة - لا يجوز السَبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمدّ معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرمي لا يجوز السَبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشَق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشترط خَصَقاً^(٢) أو إصابة بغير شرط. والأسباق ثلاثة: سَبَق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوّعاً فيجعل للسابق شيئاً معلوماً؛ فمن سبق أخذه. وسَبَق يخرج أحدهما المتسابقين دون صاحبه، فإن سَبَقه صاحبه أخذه، وإن سَبَق هو صاحبه أخذه؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسَبَق الثالث - اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئاً مثل ما يخرج صاحبه، فأيهما سَبَق أحرز سَبَقه وسَبَق صاحبه؛ وهذا الوجه^(٣) لا يجوز حتى يُدخِل بينهما محللاً لا يأمن أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلّل أحرز السَبَقين جميعاً وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سَبَقه وأخذ سَبَق صاحبه، ولا شيء للمحلّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران - من أصحاب الشافعي -: وحكم الفرس المحلّل أن يكون مجهولاً جريه؛ وسمي محللاً لأنه يحلّل السَبَق للمتسابقين أو لهُ. وأتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلّل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سَبَقه وسَبَق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ

(١) في ع و ك و و ي: تؤول عليه.

(٢) خسق السهم وخزق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها.

(٣) في ع: السبق.

قال: «من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قمار». وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال: ليس برهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلل، فإن سبق أخذ السبق، وإن سبق لم يكن عليه شيء؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم. وأختلف في ذلك قول مالك؛ فقال مرة لا يجب المحلل في الخيل، ولا نأخذ فيه بقول سعيد، ثم قال: لا يجوز إلا بالمحلل؛ وهو الأجود من قوله.

السادسة - ولا يحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم، ولو ركبها أربابها كان أولى؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها. وقال الشافعي: وأقل السبق أن يسبق بالهادي^(١) أو بعضه، أو بالكفل أو بعضه. والسبق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي.

السابعة - روي عن النبي ﷺ أنه سابق أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فسبق رسول الله ﷺ، وصلى أبو بكر وثلاث عمر؛ ومعنى وصلى أبو بكر: يعني أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله ﷺ، والصّلوان موضع العجز.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ أي عند ثيابنا وأقمشتنا حارساً لها. ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ﴾ أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي بمصدق. ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ أي وإن كنا؛ قاله المبرد وأبن إسحق. ﴿صَادِقِينَ﴾ في قولنا؛ ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر له منهم من قوة التهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه على ما يأتي بيانه. وقيل: ﴿ولو كنا صادقين﴾ أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولا تهمتنا في هذه القضية، لشدة محبتك في يوسف؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما.

(١) الهادي: العنق لتقدمه؛ والجمع (هواد).

[١٨] ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال مجاهد: كان دم سخلة أو جذي ذبحوه^(١). وقال قتادة: كان دم ظبية؛ أي جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه، فوصف الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدم ذي كذب؛ مثل: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر؛ يقال: هذا ضَرْبُ الأمير، أي مضروبه؛ وماء سَكَبَ أي مسكوب، وماء غَوَزَ أي غائر، ورجل عَدَلَ أي عادل.

وقرأ الحسن وعائشة: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ بالدال غير المعجمة، أي بدم طرِي؛ يقال للدم الطرِي الكَذِبُ. وحكى أنه المتغير؛ قاله الشعبي. والكذب أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث؛ فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اختلاف اللونين.

الثانية - قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التَّنْيَبِ^(٢)؛ إذ لا يمكن أفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقاً ولا أثراً أَسْتَدَلَّ بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص! قاله ابن عباس وغيره؛ روى إسرائيل عن سِمَاك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان الدم دم سَخْلَةٍ. وروى سفيان عن سِمَاك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نظر إليه قال كذبتُم؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص. وحكى الماوردي أن في القميص ثلاث آيات: حين جاءوا عليه بدم كذب، وحين قُدِّ قَمِيصُهُ من دبر، وحين أُلْقِيَ على وجه أبيه فارتدَّ بصيراً.

(١) في ع: أو نحوه. (٢) في ع: التخريق.

قلت: وهذا مردود؛ فإن القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قدّ، وغير القميص الذي أتاه البشير به. وقد قيل: إن القميص الذي قدّ هو الذي أتى به فارتدّ بصيراً، على ما يأتي بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى. وروي أنهم قالوا له: بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فأتهمهم، فقال لهم يعقوب: تزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضي إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه؟! فقالوا عند ذلك: ﴿وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين﴾ عن الحسن وغيره؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا.

الثالثة - أستدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام أستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله أبن العربي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - روي أن يعقوب لما قالوا له: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ﴾ قال لهم: ألم يترك الذئب له عضواً فتأتوني به أستأنس به؟ ألم يترك لي^(١) ثوباً أشم فيه رائحته؟ قالوا: بلى! هذا قميصه ملطوخ بدمه؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه: أروني قميصه، فأروه فشمه وقبله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقاً ولا تمزيقاً، فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كالיום ذنباً أحكم منه؛ أكل أبني واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكياً حزيناً وقال: يا معشر ولدي! دلوني على ولدي؛ فإن كان حياً رددته إليّ، وإن كان ميتاً كفنته ودفنته، فقليل قالوا حينئذ: ألم تروا إلى أيننا كيف يكذبنا في مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضواً عضواً، ونأت أباناً بأحد أعضائه فيصدقنا

(١) في ع: له.

في مقالتنا ويقطع يأسه؛ فقال يهوذا: والله لئن فعلتم لأكوننّ لكم عدواً ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنيعكم؛ قالوا: فإذا منعنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئباً، قال: فاصطادوا ذئباً ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا: يا أبانا! إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه؛ فقال يعقوب: أطلقوه؛ فأطلقوه، وتَبَصَّرَ له الذئب، فأقبل يدنو [منه] ^(١) ويعقوب يقول له: أدن أدن؛ حتى ألصق خذّه بخذّه ^(٢) فقال له يعقوب: أيها الذئب! لم فجعتني بولدي وأورثتني حزناً طويلاً؟! ثم قال اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال: والذي أصطفاك نبياً ما أكلت لحمة، ولا مزقت جلده، ولا نتفت شعرة من شعراته، ووالله! ما لي بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقد، فلا أدري أحي هو أم ميت، فاصطادني أولادك وأوثقوني، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله! لا أقمت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش؛ فأطلقه يعقوب وقال: والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمَام أخيه، وأنتم ضيعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زينت. ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ غير ما تصفون وتذكرون. ثم قال توطئة لنفسه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي:

الثانية - قال الزجاج: أي فشأنِي والذي اعتقده صبر جميل. وقال قُطْرُب: أي فصبري صبر جميل. وقيل: أي فصبر جميل أولى بي؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف. ويروى أن النبي ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال: «هو الذي لا شكوى معه». وسيأتي له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله. قال أبو حاتم: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسف «فصبراً جميلاً» قال: وكذا قرأ الأشهب العُقَيْلي؛ قال وكذا في مصحف أنس وأبي صالح. قال المبرّد: «فصبر جميل» بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى: قال رب عندي صبر جميل؛ قال: وإنما النصب على المصدر، أي فلأصبرنّ صبراً جميلاً؛ قال:

شكا إليّ جملي طول الشرى صبرا^(١) جميلاً فكلاًنا مُبتلى

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى. وقيل: المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم؛ وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم. وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقه؛ فقليل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان؛ فأوحى الله إليه أشكوني يا يعقوب؟! قال: يا رب! خطيئة أخطأتها فاغفر لي. ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ ابتداء وخبر. ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي على احتمال ما تصفون من الكذب.

الثالثة - قال ابن أبي رفاعه: ينبغي لأهل الرأي أن يهتموا رأيهم عند ظن يعقوب عليه السلام وهو نبي؛ حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأصاب هنا؛ ثم قالوا له: ﴿إِنْ أَتَيْتَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾^(٢) قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فلم يصب.

[١٩] ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلُومٌ قَالَ يَبْنَشِرُنِي هَذَا عُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي رفقة مارة يسرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران، إنما هو للرعاة والمجتاز، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف. ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ فذكر على المعنى؛ ولو قال: فأرسلت واردها لكان على اللفظ، مثل «وجاءت». والوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم؛ وكان اسمه - فيما ذكر المفسرون - مالك بن دعر^(٣).

(١) ويروى (صبر جميل) في البيت، وتحمل على إضمار مبتدأ أو خبر. ويروى (صبراً جميلاً) على نداء الجمل.

(٢) راجع ص ٢٤٤ من هذا الجزء.

(٣) دعر: هو بالبدال المهملة وبالذال تصحيف كما في القاموس.

من العرب العاربة. ﴿فَأَذَلَّى ذَلُوهُ﴾ أي أرسله؛ يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها ليملاها، ودَلَّاهَا أي أخرجها: عن الأصمعي وغيره. ودلا - من ذات الواو - يدلوا دلوأ، أي جذب وأخرج، وكذلك أدلى إذا أرسل، فلما ثقل رده إلى الياء، لأنها أخف من الواو؛ قاله الكوفيون. وقال الخليل وسيبويه: لما جاوز ثلاثة أجرف رجع^(١) إلى الياء، اتباعاً للمستقبل. وجمع ذَلُو في أقل العدد أَذَلٍ فإذا كثرت قلت: ذُلِّي وذِلِّي؛ فقلبت الواو ياء، إلا أن الجمع بابُه التغير، وليفرق بين الواحد والجمع؛ ودلاء أيضاً. فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من صحيح مسلم: «فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن». وقال كعب الأحمار: كان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحيه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثنياه، لا يستطيع أحد وصفه، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية. وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن؛ فلما رآه مالك بن دعر قال: «يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ» هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة؛ إلا ابن أبي إسحق فإنه قرأ «يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ» فقلب الألف ياء، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضاً. وقرأ أهل الكوفة «يَا بُشْرَى» غير مضاف؛ وفي معناه قولان: أحدهما - أسم الغلام، والثاني - [معناه]^(٢) يا أيتها البشري هذا حينك وأوانك. قال قتادة والسدي: لما أدلى المدلي دلوه تعلق بها يوسف فقال: يا بشري هذا غلام؛ قال قتادة: بشر أصحابه بأنه وجد عبداً. وقال السدي: نادى رجلاً اسمه بشري. قال النحاس: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيراً؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾^(٣) وهو عقبة بن أبي معيط، وبعده ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ وهو أمية

(١) في ع: رده.

(٢) من ع.

(٣) راجع ٢٥/١٣.

ابن خلف؛ قاله النحاس. والمعنى في نداء البشري: التبشير لمن حضر؛ وهو أوكد من قولك تبشرت، كما تقول: يا عجباه! أي يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك، فاحضر؛ وهذا مذهب سيوبه، وكذا قال السهيلي. وقيل: هو كما تقول: واسروراه! وأن البشري مصدر من الاستبشار: وهذا أصح؛ لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم؛ وعلى هذا يكون «بُشْرَايَ» في موضع نصب، لأنه نداء مضاف؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه، أي انتبهوا لفرحتي وسروري؛ وعلى قول السدّي يكون في موضع رفع كما تقول: يا زيد هذا غلام. ويجوز أن يكون محله نصباً كقولك: يا رجلاً، وقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾^(١) ولكنه لم ينون «بُشْرَى» لأنه لا ينصرف. ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكناية عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين اشتروه، وقيل: عن الوارد وأصحابه. «بِضَاعَةً» نصب على الحال. قال مجاهد: أسره مالك بن دُغر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرقعة، وقالوا لهم: هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة. وقال ابن عباس: أسره إخوة يوسف بضاعة لما أستخرج من الجب؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا: بشس ما صنعتُم! هذا عبد لنا أبى، وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تُقرّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك؛ فقال: أنا أقرّ لكم بالعبودية، فأقرّ لهم فباعوه منهم. وقيل: إن يهوذا وصّى أخاه يوسف بلسانهم أن أعترف لإخوتك بالعبودية فإنني أخشى إن لم تفعل قتلوك؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجاً، وتنجو من القتل، فكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته؛ فقال مالك: والله ما هذه سمة العبيد! قالوا: هو ترّبي في حجورنا، وتخلق بأخلاقنا وتأدّب بآدابنا؛ فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا! تربيت في حجورهم، وتخلّقت بأخلاقهم؛ فقال مالك: إن بعتموه مني اشتريته^(٢) منكم؛ فباعوه منه؛ فذلك.

[٢٠] ﴿وَشَرَوْهُ بِشَمْنٍ بِخَمْسِ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

(١) راجع ٢٢/١٥.

(٢) في ع: اشتريتك منهم. أي على الالتفات.

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يقال : شريت بمعنى أشرتيت ، وشريت بمعنى بعت لغة ؛ قال الشاعر ^(١) :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي
مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهُ
أي بعت . وقال آخر :

فلما شَرَّاهَا فاضتِ العينُ عَبْرَةً وفي الصِّدْرِ حُرَّازٌ مِنَ اللُّؤْمِ حَامِرٌ ^(٢)

﴿بِئْسَ بَخْسٍ﴾ أي نقص ؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أي باعوه بضمن مبخوس ، أي منقوص . ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلوة وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجب فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرفون الخبر ، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قتادة : «بَخْسٍ» ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسدي وابن عطاء : «بَخْسٍ» حرام . وقال ابن العربي : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلوة وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا ؛ أو قالوا ^(٣) لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعْطُوا عنه ثمنا وأن ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله : «وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة» يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه ^(٤) كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدي وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشَّعبي : قليل . وقال ابن حيان : زَيْف . وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهماً أخذ كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ وقاله قتادة والسدي . وقال أبو العالية

(١) هو يزيد بن مفرغ الحميري ، و (برد) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للشماخ ، قاله في رجل باع قوسه من رجل . وحامز : عاصر ، وقيل : أي ممض محرق . وروى : من الوجد . (اللسان) . (٣) في ع و ك و و : وقالوا . (٤) في ع و ك و ي : وافية كاملة .

ومقاتل: اثنين وعشرين درهماً، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين: وقاله مجاهد. وقال عكرمة؛ أربعين درهماً؛ وما روي عن الصحابة أولى. و «بخس» من نعت «ثمن». «دَرَاهِمٌ» على البدل والتفسير له. ويقال: دراهيم على أنه جمع دراهم، وقد يكون اسماً للجمع عند سيبويه، ويكون أيضاً عنده على أنه مذ الكسرة فصارت ياء، وليس هذا مثل مذ المقصور؛ لأن مذ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره. وأنشد النحويون:

تَنْفِي يداها الحَصَى في كُلِّ هاجِرَةٍ نَفْيِ الدَّرَاهِمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِفِ^(١)

«مَعْدُودَةٌ» نعت؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجري عندهم عدلاً لا وزناً بوزن^(٢). وقيل: هو عبارة عن قلة الثمن؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما [كان]^(٣) دون الأوقية، وهي أربعون درهماً.

الثانية - قال القاضي ابن العربي: وأصل النقيدين الوزن؛ قال عليه السلام: «لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزناً بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى». والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار؛ فأما عينها فلا منفعة فيه، ولكن جرى فيها العد^(٤) تخفيفاً عن الخلق لكثرة المعاملة، فيشق الوزن؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدلاً^(٤) إذا لم يكن بها نقصان ولا رجحان؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدم.

الثالثة - واختلف العلماء في الدراهم والدنانير هل تتعين أم لا؟ وقد اختلفت الرواية في ذلك عن مالك: فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين، وهو الظاهر من قول مالك؛ وبه قال أبو حنيفة. وذهب أبن القاسم إلى أنها تتعين، وحكي عن الكرخي؛ وبه قال الشافعي. وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تتعين فإذا قال: بعثك هذه الدنانير بهذه

(١) البيت للرزديق؛ وصف ناقة سريعة السير في الهواجر، فشبّه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم عن الأصابع إذا نطقت.

(٢) في ع وى: يوزن.

(٣) من ع وك وى.

(٤) في ع وك و وى: العدد.

الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتها شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.

الرابعة - روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللقيط أنه حر، وقرأ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وقد مضى القول فيه.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ قيل: المراد إخوته. وقيل: السيارة. وقيل: الواردة؛ وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غيبطاً، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أبى منا - والزهد قلة الرغبة - ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى.

السادسة - في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير، ويكون البيع لازماً؛ ولهذا قال مالك: لو باع ذرة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها ذرة وحسبتها مخشلبة^(١) لزمه البيع ولم يلتفت إلى قوله. وقيل: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي في حسنه؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواعي نفوس القوم إليه إكراماً له. وقيل: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ لم يعلموا منزلته عند الله تعالى. وحكى سيويه والكسائي: زهدت وزهدت بكسر الهاء وفتحها.

[٢١] ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَةَ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(١) المخشلبة: خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ قيل: الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال؛ إذ لم يكن ذلك عقداً، مثل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾^(١). وقيل: إنهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن. قال الضحّاك: هذا الذي اشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز. السّهيلي: وأسمه قطفير. وقال ابن إسحق: إطفير بن رويحب اشتراه لامرأته راعيل؛ ذكره الماوردي. وقيل: كان اسمها زليخاء. وكان الله ألقى محبة يوسف على قلب العزيز، فأوصى به أهله؛ ذكره القشيري. وقد ذكر القولين في اسمها الثعلبي وغيره. وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد. وقيل: الوليد بن الريان، وهو رجل من العمالة. وقيل: هو فرعون موسى؛ لقول موسى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وأنه عاش أربعمئة سنة. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتي في «غافر»^(٢) بيانه. وكان هذا العزيز الذي اشتري يوسف على خزائن الملك؛ واشتری يوسف من مالك بن دُعر بعشرين ديناراً، وزاده حلة ونعلين. وقيل: اشتراه من أهل الرّفقة. وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلىء وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن؛ قاله وهب بن منبه. وقال وهب أيضاً وغيره: ولما اشتري مالك بن دُعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً: «هذا ما اشتري مالك بن دعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً، وقد شرطوا له أنه أبقي، وأنه لا ينقلب به إلا مقيداً مسلسلّاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله. قال: فودّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتموني، نصركم الله وإن خذلتموني، رحمكم الله وإن لم ترحموني؛ قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عبيطاً»^(٣) لشدة هذا التوديع، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيداً مكبلاً مسلسلّاً، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه - وقد كان وكل به أسود يحرسه فعغل الأسود - فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه فجعل يتمرّغ

(١) راجع ٢١/١.

(٢) راجع ٣١٢/١٥.

(٣) الدم العبيط: الطري.

ويعتقن القبر ويضطرب ويقول: يا أماه! أرفعي رأسك تري ولدك مكبلاً مقيداً مسلسلاً مغلولاً؛ فرّقوا بيني وبين والدي، فاسألني الله أن يجمع بيننا في مستقرّ رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضرباً وجيعاً؛ فقال له: لا تفعل! والله ما هربت ولا أبقت وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون؛ فقال الأسود: والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك؛ فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني؛ فضجّت الملائكة في السماء، ونزل جبريل فقال له: يا يوسف! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال: تثبت يا جبريل، فإن الله حلیم لا يعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت، وأرتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً؛ فقال رئيس القافلة: من أحدث منكم حدثاً؟ - فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا - فقال الأسود: أنا لطمت ذلك الغلام العبرانيّ فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا؛ فقال له: ما أردت إلا هلاكنا! آيتنا به، فأتاه به، فقال له: يا غلام! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتصص فاقتصص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظنّ بك؛ قال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر، وردّ عليه جماله، ودخل به البلد نهاراً فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك؛ قاله ابن عباس على ما تقدّم. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك ويوسف يومئذٍ على خزان الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى. ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن؛ وهو

مأخوذ من ثوى بالمكان أي أقام به؛ وقد تقدّم في «آل عمران»^(١) وغيره ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أي يكفيننا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ قال ابن عباس: كان حَصُورًا لا يولد له، وكذا قال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولد له. فإن قيل: كيف قال: ﴿أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ وهو ملكه، والولدية مع العبدية تتناقض؟ قيل له: يعتقه ثم يتخذه ولداً بالتبني؛ وكان التّبني في الأمم معلوماً عندهم، وكذلك كان في أول الإسلام، على ما يأتي بيانه في «الأحزاب»^(٢) إن شاء الله تعالى. وقال عبد الله بن مسعود: أحسن الناس فراسة ثلاثة؛ العزيز حين تفرّس في يوسف فقال: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾، وبنت شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿أَسْتَأْجِرُهُ إِنْ خَيْرَ مَنْ أَسْتَأْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾^(٣)، وأبو بكر حين استخلف عمر. قال ابن العربي: عجباً للمفسرين في اتفاقهم على جلب هذا الخبر! والفراسة هي علم غريب على ما يأتي بيانه في سورة «الحجر»^(٤) وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصديق إنما ولّى عمر بالتجربة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنة، وليس ذلك من طريق الفراسة؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتي بيانه في «القصص»^(٤). وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الكاف في موضع نصب؛ أي وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكنا له؛ أي عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد الذي الملك مستولٍ عليه. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي فعلنا ذلك تصديقاً لقول يعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. وقيل: المعنى مكناه لنوحى إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أي لا يغلب الله شيء، بل هو الغالب على أمر

(١) راجع ٢٣٣/٤.

(٢) راجع ١١٨/١٤ فما بعد و ١٨٨ فما بعد.

(٣) ٤٢/١٠ فما بعد. (٤) راجع ٢٧١/١٣.

نفسه فيما يريد أن يقول له: كُنْ فَيَكُونُ. وقيل: ترجع إلى يوسف؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيدٌ كائد. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يطلعون على غيبه. وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحداً لا يعلم الغيب. وقيل: هو مجرى على ظاهره؛ إذ قد يُطلع من يريد على بعض غيبه. وقيل: المعنى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله غالب على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر. وقالت الحكماء في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ حيث أمره يعقوب ألا يقصّ رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قصّ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكاً وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، وأفتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ﴾ ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقرّوا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص [فغلب أمر الله] ^(١) فلم ينخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبّرت امرأة العزيز أنها إن أبدرتّه بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز: ﴿أَسْتَغْفِرِي لِدُنْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، ثم دبّر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى فغلب أمر الله فنسي الساقى، ولبث يوسف في السجن بضع سنين.

[٢٢] ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ «أشده» عند سيوبه جمع، واحده شِدَّة. وقال الكسائي: واحده شدٌّ؛ كما قال الشاعر ^(٢):

عَهْدِي بِهِ شِدُّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلَمِ

(١) من ع و ك و و ي. (٢) هو عترة العبي. وشد النهار: أي أشده، يعني أعلاه. واللبنان: الصدر، وقيل: وسطه، وقيل: ما بين الثديين، ويرى: «البنان». والعظم عصاره شجر أو نبت يصيغ به، أو الوسمة، وهي شجرة ورقها خضاب.

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه أستكمال القوة ثم يكون النقصان بعد. وقال مجاهد وقتادة: الأشدُّ ثلاث وثلاثون سنة. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأشدُّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء»^(١) و«الأنعام»^(٢) مستوفى. «آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» قيل: جعلناه المستولي على الحُكْم، فكان يحكم في سلطان الملك؛ أي وآتيناه علماً بالحُكْم. وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوة. وقيل: الحُكْم النبوة، والعِلْم علم الدين؛ وقيل: علم الرؤيا؛ ومن قال: أوتي النبوة صبيّاً قال: لما بلغ أشده زدها فهماً وعلماً. «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» يعني المؤمنين. وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك. وقال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ؛ يقول الله تعالى: كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته، كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكّن لك في الأرض.

[٢٣] ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

[٢٤] ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهٍ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَمَاهُ رَبُّهُنَّ رَبِّيَ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وهي امرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها. وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين. والرؤد، والرياد طلب الكلاء؛ وقيل: هي من رويد؛ يقال: فلان يمشي رويداً، أي برفق؛ فالمرادة الرفق في الطلب؛ يقال

(١) راجع ٣٤/٥ فما بعد.

(٢) راجع ١٣٤/٧ فما بعد.

في الرجل: راودها عن نفسها، وفي المرأة راودته عن نفسه. والرود التأني؛ يقال: أرودني أمهلني. «وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ» غلقت للكثير، ولا يقال: غلق الباب؛ وأغلق يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلتُ أغلقُ أبواباً وأفتحُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمارٍ

يقال: إنها كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعت إلى نفسها. «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» أي هَلُمَّ وأقبل وتعال؛ ولا مصدر له ولا تصريف. قال النحاس: فيها سبع قراءات؛ فمن أجل ما فيها وأصحه إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ «هَيْتَ لَكَ» قال فقلت: إن قوماً يقرءونها «هَيْتَ لَكَ» فقال: إنما أقرأ كما علّمت. قال أبو جعفر: وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ، ولا يبعد ذلك؛ لأن قوله: إنما أقرأ كما علّمت يدلّ على أنه مرفوع، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبّير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحزمة والكسائي. قال عبد الله بن مسعود: لا تقطعوا في القرآن؛ فإنما هو مثل قول أحدكم: هَلُمَّ وتعال. وقرأ ابن أبي إسحق النحوي «قَالَتْ هَيْتَ لَكَ» بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبن كثير «هَيْتُ لَكَ» بفتح الهاء وضم التاء؛ قال طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داعٍ من العشيّرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهنّ مفتوحة. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» بكسر الهاء وفتح التاء. وقرأ يحيى بن وثّاب «وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة. وروى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس ومجاهد وعكرمة: «وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة. وعن ابن عامر وأهل الشام: «وَقَالَتْ هَيْتُ» بكسر الهاء وباللهزمة وبفتح التاء؛ قال أبو جعفر: «هَيْتَ لَكَ» بفتح التاء لالتقاء الساكنين، لأنه صوت نحو مة وصة يجب ألا يعرب،

والفتح خفيف؛ لأن قبل التاء ياء مثل أَيْنَ وكيف؛ ومن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر، ومن ضم فلان فيه معنى الغاية؛ أي قالت: دعائي لك، فلما حذفت الإضافة بني على الضم؛ مثل حيثُ وبعدُ. وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما - أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر. والآخر - أن يكون فعلاً من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يَجِيء؛ فيكون المعنى في «هِتْ» أي حسنت هيتك، ويكون «لَكَ» من كلام آخر، كما تقول: لَكَ أعني. ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك؛ وكذلك من قرأ «هِتْ لَكَ». وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة - مُعَمَّر بن الْمُثَنَّى: سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزاً فقال أبو عمرو: باطل؛ جعلها من تهيأتُ! أذهب فاستعِرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن هل تعرف أحداً يقول هذا؟! وقال الكسائي أيضاً؛ لم تُحَكَّ «هِتْ» عن العرب. قال عكرمة: «هِتْ لَكَ» أي تهيأت لك وتزينت وتحسنت، وهي قراءة غير مرضية، لأنها لم تسمع في العربية. قال النحاس: وهي جيدة عند البصريين؛ لأنه يقال: هَاءَ الرجلُ يَهَاءُ وَيَهِيءُ هِياًةً فهَاءُ يَهِيءُ مثل جاء يَجِيءُ وَهِتُّ مثل جئت. وكسر الهاء في «هِتْ» لغة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها. قال الزجاج: أجود القراءات «هِتْ» بفتح الهاء والتاء؛ قال طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ
بفتح الهاء والتاء.

وقال الشاعر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتَا
إنَّ العراقَ وأهلَهُ سلِّمٌ إليك فهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن: «هِتْ» كلمة بالسريرية تدعوه إلى نفسها. وقال السدي: معناها بالقبطية^(١) هلم لك. قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعال؛ قال أبو عبيد: فسألت شيخاً عالماً من حوران فذكر أنها

لغتهم؛ وبه قال عكرمة. وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمة حث وإقبال على الأشياء؛ قال الجوهري: يقال هَوَّتَ به وهَيْتَ به إذا صاح به ودعاه؛ قال:

قَدْ رَأَيْتَنِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَنَّا لَوْ كَانَ مَعْنِيًا بِهَا لَهَيْتَا

أي صاح؛ وقال آخر:

يَخْدُو بِهَا كُلُّ فِتَى هَيَاتِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه؛ وهو مصدر، أي أعوذ بالله معاذاً؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى أسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول: مررت بزيد مروراً عمرو أي كمروري بعمرو. ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني زوجها، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وأبن إسحق والسدي. وقال الزجاج: أي إن الله ربي تولاني بلطفه، فلا أركب ما حرّمه. ﴿إِنَّهُ لَا يُلْحِقُ الظَّالِمُونَ﴾ وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرّجَمِ صورتي ربّي؛ قالت: يا يوسف ما أحسن شعرك! قال: هو أول شيء يبلى منّي في قبري؛ قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك؟ قال: بهما أنظر إلى ربّي. قالت: يا يوسف! أرفع بصرك فأنظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي. قالت يا يوسف! أدنو منك وتتباعد مني؟! قال: أريد بذلك القرب من ربّي. قالت: يا يوسف! القَيْطُونَ^(١) [فرشته^(٢) لك] فأدخل معي، قال: القَيْطُونَ لا يسترني من ربّي. قالت: يا يوسف! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتي، قال: إذا يذهب من الجنة نصيبي؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها. وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف مثل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هبة النبوة؛ فشغلت هيئته كل من رآه عن حسنه. واختلف العلماء في همّه؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القيطون: المخدع، أعجمي، وقيل: بلغة أهل مصر والبربر.

(٢) من ي.

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما هم ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء قال الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذا في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي لولا أن رأى برهان^(١) ربه هم بها . قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية ، قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ؛ كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . وقال أحمد بن يحيى : أي همت زليخاء بالمعصية وكانت مصرّة ، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به ؛ فبين الهمتين فرق ، ذكر هذين القولين الهروي في كتابه . قال جميل :

هَمَمْتُ بِهِمْ مِنْ بُيُوتَةٍ لَوْ بَدَا شَفِيتُ غَلِيلَاتِ الْهَوَى مِنْ فُؤَادِيَا

آخر :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عِثْمَانِ تَبْكِي حُلَاثُهُ

فهذا كله حديث نفس من غير عزم . وقيل : هم بها تمنى زوجيتها . وقيل : هم بها أي بضربها^(٢) ودفعها عن نفسه ، والبرهان كفه عن الضرب ؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضرربها . وقيل : إن هم يوسف كان معصية ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من أمراته ؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم ، فيما ذكر القشيري أبو نصر ، وأبن الأنباري والنحاس والماوردي وغيرهم . قال ابن عباس : حلّ الهميان^(٣) وجلس منها مجلس الخاتن ، وعنه : استلقت على قفاها وقعد بين رجلها ينزع ثيابه . وقال سعيد بن جبيرة : أطلق تَكَّةَ سراويله . وقال مجاهد ؛ حلّ السراويل حتى بلغ الألتين ، وجلس منها مجلس الرجل من أمراته . قال ابن عباس : ولما قال : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل : ولا حين هممت بها يا يوسف ؟ ! فقال عند ذلك : ﴿وَمَا أَبْرِئُ نَفْسِي﴾ . قالوا : والانكفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص ، وأعظم للثواب .

(١) في ع : رأى البرهان برهان .

(٢) هذا هو اللائق بالمعصوم دون سواء من المعاني . (٣) الهميان شداد السراويل .

قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكِفل حسب ما يأتي بيانه في «ص»^(١) إن شاء الله تعالى. وجواب «لولا» على هذا محذوف؛ أي لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به؛ ومثله «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ»^(٢) وجوابه لم تتنافسوا؛ قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له؛ حكاه الطبري. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها، وهم أعلم بالله وبأويل كتابه، وأشد تعظيماً للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها؛ ولكنه ذكرها لكيلا تيسوا من التوبة. قال الغزنوي: مع أن لزلة الأنبياء حكماً: زيادة الوجل، وشدة الحياء بالخجل، والتخلي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل. قال القشيري أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف هم، وكان ذلك [الهم]^(٣) حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ؛ فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤخذ بما هجس في النفس؛ والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزمًا مصممًا.

قلت: هذا قول حسن؛ وممن قال به الحسن. قال ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً وعلماً، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقفته وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة؛ وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكته

(١) راجع ٢١٨/١٥ و ٣٢٧/١١. (٢) راجع ١٧٣/٢٠. (٣) من عوك وو.

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة. وما روي من أنه قيل له: «تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء» فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من [هذا]^(١) التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ وإذا كان نبياً فلم يبق إلا أن يكون الهمّ الذي همّ به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذه عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه؛ ويكون قوله: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي﴾ - إن كان من قول يوسف - أي من هذا الهمّ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف، لمخالفة النفس لما زكّى به قبل وبرّء؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ على ما تقدّم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله؛ فما تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفرّ منها؛ حكمة خص بها، وعملاً بمقتضى ما علمه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال أرقبوه فإن عملها فأكتبوها له بمثلها وإن تركها فأكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّاي»^(٢). وقال عليه السلام مخبراً عن ربه: «إذا همّ عبدي بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة» فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفي الصحيح: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به» وقد تقدّم. قال ابن العربي: كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، - وأيّ إمام - يعرف بابن عطاء! تكلم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخلقة من كل طائفة فقال: يا شيخ! يا سيدنا! فإذا يوسف همّ وما تمّ؟ قال: نعم! لأن العناية من ثمّ. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وأنظر إلى فطنة العامي في سؤاله،

(١) من ع. (٢) من جرای: أي من أجلي، وفي نسخة من صحيح مسلم «من جرائي».

وجواب العالم في اختصاره وأستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة.

قلت: وإذا تقرر عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُضْعَب بن عثمان: إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فاشتاقته امرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكرها، فقالت: إن لم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالساً فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذي هممتُ، وأنت سليمان الذي لم تهتم؟! فإن هذا يقتضي أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال؛ ولو قدرنا يوسف غير نبي فدرجة الولاية، فيكون محفوظاً كهو؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب، وروجع في المقال والخطاب، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة، وعظيم المحنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [١] «أن» في موضع رفع أي لولا رؤية برهان ربه [٢] والجواب محذوف لعلم السامع؛ أي لكان ما كان. وهذا البرهان غير مذكور في القرآن؛ فَرَوِيَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن زليخاء قامت إلى صنم مكلَّل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في [٣] هذه الصورة؛ فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله؛ وهذا أحسن ما قيل فيه، لأن فيه إقامة الدليل. وقيل: رأى مكتوباً في سقف البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [٤]. وقال [٥] ابن عباس: بدت كف مكتوب عليها ﴿وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [٦] وقال قوم: تذكَّر عهد الله وميثاقه. وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوب في [ديوان] [٧] الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أناملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير. وروى الأعمش عن مجاهد قال: حلَّ سراويله فتمثل له يعقوب، وقال له:

(١) من ع، ك. (٢) في ع وك: على. (٣) راجع ٢٥٣/١٠.

(٤) في ع: وعن. (٥) راجع ٢٤٥/١٩. (٦) من ع.

يا يوسف! فولّى هارباً. وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال: مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله؛ قال مجاهد: فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكراً إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان، ونقص بتلك الشهوة ولده؛ وقيل غير هذا. وبالجملّة: فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوي إيمانه، وأمتنع عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ الكاف من «كَذَلِكَ» يجوز أن تكون رفعاً، بأن يكون خبر ابتداء محذوف، التقدير: البراهين كذلك، ويكون نعتاً لمصدر محذوف؛ أي أريناه البراهين رؤية كذلك. والسوء الشهوة، والفحشاء المباشرة. وقيل: السوء الثناء القبيح، والفحشاء الزنى. وقيل: السوء خيانة صاحبه، والفحشاء ركوب الفاحشة. وقيل: السوء عقوبة الملك العزيز. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «المخلصين» بكسر اللام؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله. وقرأ الباقر بفتح اللام، وتأويلها: الذين أخلصهم الله لرسالته؛ وقد كان يوسف ﷺ بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلصاً في طاعة الله تعالى، مستخلصاً لرسالة الله تعالى.

[٢٥] ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قالت العلماء: وهذا من اختصار القرآن المعجز الذي يجتمع فيه المعاني؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا، هي لترده إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فأدرسته قبل أن يخرج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي من خلفه؛ قبضت في أعلى قميصه فتخرق القميص عند طوقه، ونزل التخریق إلى أسفل القميص.

والاستباق طلب السبق إلى الشيء؛ ومنه السباق. والقَدَّ القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً؛ قال النابغة^(١):

تَقَدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقَدُ بِالْصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَّاحِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضاً. وقال المفضل بن حرب: قرأت في مصحف «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عَطً مِنْ دُبُرٍ» أي شَقَّ. قال يعقوب: العَطَّ الشَّقُّ في الجلد الصحيح والثوب الصحيح. وحذفت الألف من «أَسْتَبَقَا» في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها؛ كما يقال: جاءني عبد الله في الثنية؛ ومن العرب من يقول: جاءني عبد الله بإثبات الألف بغير همز، يجمع بين ساكنين؛ لأن الثاني مدغم، والأول حرف مدّ ولين. ومنهم من يقول: عبد الله بإثبات الألف والهمز، كما تقول في الوقف.

الثانية - في الآية دليل على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لما ذكر من قدَّ القميص مقبلاً ومدبراً، وهذا أمر أنفرد به المالكية في كتبهم؛ وذلك أن القميص إذا جُبِّذ من خلف تمزَّق من تلك الجهة، وإذا جُبِّذ من قدام تمزَّق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب، وعُني بالسِّبْد الزوج؛ والقبط يستمون الزوج سيِّداً. يقال: ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه وولاطه كله بمعنى واحد^(٣)؛ فلما رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة وكادت^(٤) فـ ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي زنى. ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجِّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تقول: يُضْرَب ضرباً وجيعاً. و «مَا جَزَاءُ» ابتداء، وخبره «أَنْ يُسَجِّنَ». «أَوْ عَذَابٌ» عطف على موضع «أَنْ يُسَجِّنَ» لأن المعنى: إلا السَّجْن. ويجوز أو عذاباً أليماً بمعنى: أو يعذب عذاباً أليماً؛ قاله الكسائي.

(١) يصف السيف، وقد تقدّم شرح البيت بهامش ص ١٠٣ من هذا الجزء.

(٢) في ع و ك: في.

(٣) كذا العبارة في الأصول وفي «البحر المحيط» ولم نقف على مادة (وارط ووالط وولاط) بمعنى (ألفى) في «معجم اللغة».

(٤) من الكيد.

[٢٦] ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦).

[٢٧] ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧).

[٢٨] ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨).

[٢٩] ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قال العلماء^(١): لما برأت نفسها؛ ولم تكن صادقة في حبه - لأن من شأن المحب إثارة المحبوب - قال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه. قال توف الثامني وغيره: كأن يوسف عليه السلام لم يبين عن كشف القضية، فلما بغت به غضب فقال الحق.

الثانية - ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لأنهما لما تعارضا في القول أحتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهد من أهلها، أي حكم حاكم من أهلها؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة. وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة: الأول - أنه طفل في المهد تكلم؛ قال السهيلي: وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ، وهو قوله: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» وذكر فيهم شاهد يوسف. وقال القشيري أبو نصر: قيل [فيه]^(٢): كان صبياً في المهد في الدار وهو ابن خالتها؛ وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر منهم شاهد يوسف؛ فهذا قول. الثاني - أن الشاهد قد القميص؛ رواه ابن أبي نجيع عن مجاهد، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال؛

(١) في ع: الحسن.

(٢) من ع.

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثير في أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد لِمَ تَشْقِي؟ قال له: سَلْ من يدُّني. إلا أن قول الله تعالى بعد «مِنْ أَهْلِهَا» يبطل أن يكون القميص. الثالث - أنه خَلَقَ من خلق الله تعالى ليس بإنسي ولا بجني؛ قاله مجاهد أيضاً، وهذا يرده قوله تعالى: «مِنْ أَهْلِهَا». الرابع - أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشير به في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت^(١) الاستبداد والجلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدرى أيكما كان قدام صاحبه؛ فإن كان شقَّ القميص من قدامه فأنث صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضاً والسدي. قال السدي: كان ابن عمها؛ وروي عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب، والله أعلم. وروي عن ابن عباس - رواه [عنه]^(٢) إسرائيل عن سمالك عن عكرمة - قال: كان رجلاً ذا لحية. وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبي، ولكن كان رجلاً حكيماً. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلاً. قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف ﷺ تغني عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بمخالف للحديث «تكلم أربعة وهم صغار» منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صغيراً ليس بشيخ؛ وفي هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي ﷺ، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي.

قلت: قد روي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن جُبَيْر وهلال بن يساف^(٣) والضحاك أنه كان صبيّاً في المهد؛ إلا أنه لو كان صبيّاً تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى

(١) في ع: سمعنا.

(٢) من ع وى.

(٣) هو بالكسر وقد يفتح.

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة؛ والله أعلم. وسيأتي من تكلم في المهد من الصبيان في سورة «البروج»^(١) إن شاء الله.

الثالثة - إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلاً صغيراً فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلاً فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها، وليست لهم بيّنة فإن السلطان يتكلم^(٢) لهم في ذلك؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم. وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل، لأن حروف الشرط تردّ الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد: هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى إن يكن؛ أي إن يُعلم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدي عن العلم. «قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» فخبّر عن «كان» بالفعل الماضي؛ كما قال زهير:

وكان طوى كشحاً على مُسْتَكِنَةٍ فلا هو أبداها ولم يتقدّم^(٣)

وقرأ يحيى بن يعمر وأبن أبي إسحق «مِنْ قُبُلٍ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرٍ» قال الزجاج: يجعلهما غايتين كقُبُلٍ وبعْدُ؛ كأنه قال: من قُبُلِهِ ومن دُبُرِهِ، فلما حذف المضاف إليه - وهو مراد - صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له. ويجوز من قُبُلٍ «ومن دُبُرٍ» بفتح الراء واللام تشبيهاً بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه. وروى محبوب عن أبي عمرو «مِنْ قُبُلٍ» «ومن دُبُرٍ» مخفّفان مجروران.

(١) راجع ٢٨٧/١٩. (٢) التلوم: تنتظر للأمر تريده.

(٣) الكشح: الجنب، ويقال: طوى كشحه على كذا إذا أضمره. والمستكنة: الحقد. ويروى: (ولم يتجمجم).

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل: قال لها ذلك العزيز عند قولها: ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾. وقيل: قاله لها الشاهد. والكيد: المكر والحيلة، وقد تقدّم في «الأنفال»^(١). ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وإنما قال «عَظِيمٌ» لعظم فتنهنّ وأحتيالهنّ في التخلص من ورطتهنّ. وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾»^(٢) وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ القائل هذا هو الشاهد. و«يوسف» نداء مفرد، أي يا يوسف، فحذف. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي لا تذكره لأحد وأكتمه. ثم أقبل عليها فقال: وَأَنْتِ ﴿أَسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يقول: استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك. ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلب المذكر؛ والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين؛ مثل ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(٣) ﴿وَكَاْنَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾^(٤). وقيل: إن القائل ليوسف أعرض ولها أستغفري زوجها الملك؛ وفيه قولان: أحدهما - أنه لم يكن غيورا؛ فلذلك كان ساكنا. وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود. الثاني - أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا^(٥) عنها.

[٣٠] ﴿ وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ اْمْرَاَتُ الْعَزِيْزِ تُرْوَدُ فَتَدْخُلُهَا عَنْ نَفْسِهِۦٓ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا اِنَّا لَنَرٰهَا فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ﴾.

(١) راجع ٣٨٦/٧.

(٢) راجع ٢٨٠/٥.

(٣) راجع ٢٠٧/١٣.

(٤) راجع ٢٠٤/١٨.

(٥) في ع وك وى: حلم.

[٣١] ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِأً وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ .

[٣٢] ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُفَّنَ لِيَ كُوْنًا مِّنَ الصَّغِيرِ ﴿٣٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ويقال: «نُسوة» بضم النون، وهي قراءة الأعمش والمفضل والسلمي، والجمع الكثير نساء. ويجوز: وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة أنتشرت في أهل مصر فتحدث النساء. قيل: امرأة ساقى العزيز، وأمرأة خبازه، وأمرأة صاحب دوابه، وأمرأة صاحب سجنه. وقيل: امرأة الحاجب؛ عن ابن عباس وغيره. ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ الفتى في كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قيل: شغفها غلبها. وقيل: دخل حبه في شغافها؛ عن مجاهد وغيره. وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل تحت شغافها. وقال الحسن: الشَّغَفُ باطن القلب. السَّدي وأبو عبيد^(١): شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه. وقيل: هو وسط القلب؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى: وصل حبه إلى شغافها فغلب عليه؛ قال النابغة:

وقد حال همٌّ دون ذلك داخلٌ دخولَ الشَّغافِ تبتغيه الأصابع^(٢)

وقد قيل: إن الشَّغاف داء؛ وأنشد الأصمعي للراجز:

يتبعها وهي له شَغَافٌ

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال ابن الأعرابي: معناه أحرق حبه قلبها؛ قال: وعلى الأول العمل. قال الجوهري: وشَعَفَه الحبُّ أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أمرضه. وقد شُعِفَ بكذا فهو مشعوف. وقرأ الحسن «قَدْ شَعَفَهَا» قال: بَطْنُهَا حُبًّا. قال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب؛

(١) في ع و ك و ي: أبو عبيدة.

(٢) يعني أصابع المطبيين؛ يقول: قد حال عن البكاء على الديار همٌّ دخل في الفؤاد، حتى أصابه منه داء.

لأن شِعَافَ الجبال. أعاليها؛ وقد شُغِفَ بذلك شُغْفًا بِإِسْكَانِ الْغَيْنِ إِذَا أُولِعَ بِهِ؛ إِلَّا أَنْ أَبَا عبيدة أنشد بيت امرئ القيس:

لَتَقْتَلَنِي^(١) وَقَدْ شَغَفْتُ فَوَادَهَا كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوءَ^(٢) الرَّجُلُ الطَّالِي

قال: فشبهت لوعة الحبِّ وَجَوَاهُ بذلك. ورُوي عن الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: الشَّغْفُ بِالْغَيْنِ الْمَعْجَمَةُ حُبٌّ، وَالشَّغْفُ بِالْعَيْنِ غَيْرُ الْمَعْجَمَةِ جُنُونٌ. قال النحاس: وحكي «قَدْ شَغَفَهَا» بِكَسْرِ الْغَيْنِ، وَلَا يَعْرِفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا «شَغَفَهَا» بَفَتْحِ الْغَيْنِ، وَكَذَا «شَغَفَهَا» أَي تَرَكَهَا مَشْغُوفَةً. وقال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ عَنْ الْحَسَنِ: الشَّغَافُ حِجَابُ الْقَلْبِ، وَالشَّعَافُ سَوِيْدَاءُ الْقَلْبِ، فَلَوْ وَصَلَ الْحُبُّ إِلَى الشَّعَافِ لَمَاتَ؛ وَقَالَ الْحَسَنُ: وَيُقَالُ إِنَّ الشَّغَافَ الْجِلْدَةَ اللَّاصِقَةَ بِالْقَلْبِ^(٣) الَّتِي لَا تَرَى، وَهِيَ الْجِلْدَةُ الْبَيْضَاءُ، فَلَصِقَ حَبْنَهُ بِقَلْبِهَا كَلَصِقَ الْجِلْدَةُ بِالْقَلْبِ^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أَي فِي هَذَا الْفِعْلِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: «قَتَاهَا» وَهُوَ فَتَى زَوْجَهَا، لِأَنَّ يُوسُفَ كَانَ عَنْدهُمْ فِي حُكْمِ الْمَمَالِيكِ، وَكَانَ يَنْفِذُ أَمْرَهَا فِيهِ. وَقَالَ مِقَاتِلُ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ التَّهْدِيّ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ: إِنَّ أَمْرَآةَ الْعَزِيزِ اسْتَوْهَبَتْ زَوْجَهَا يُوسُفَ فَوَهَبَهُ لَهَا، وَقَالَ: مَا تَصْنَعِينَ بِهِ؟ قَالَتْ: أَتُخْذُهُ وَلَدًا؛ قَالَ: هُوَ لَكَ؛ فَرَبَّتَهُ حَتَّى أَتَفَعَ وَفِي نَفْسِهَا مِنْهُ مَا فِي نَفْسِهَا، فَكَانَتْ تَنْكَشِفُ لَهُ وَتَتَزَيَّنُّ وَتَدْعُوهُ مِنْ وَجْهِ اللَّطْفِ فَعَصَمَهُ اللَّهُ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أَي بِغَيْبَتِهِنَّ إِيَّاهَا، وَأَحْتِيَالِهِنَّ فِي ذِمَّهَا. وَقِيلَ: إِنَّهَا أَطْلَعَتْهُنَّ وَاسْتَأْمَنْتَهُنَّ فَأَفْشَيْنَ سِرَّهَا، فَسُمِّيَ ذَلِكَ مَكْرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ﴾ فِي الْكَلَامِ حَذَفَ؛ أَي أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ تَدْعُوهُنَّ إِلَى وَلِيمَةٍ لَتُوقِعَهُنَّ فِيمَا وَقَعَتْ فِيهِ؛ فَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ: إِنَّ أَمْرَآةَ الْعَزِيزِ قَالَتْ لَزَوْجِهَا إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتُخْذَ طَعَامًا فَأَدْعُو هَؤُلَاءِ النِّسَاءَ؛ فَقَالَ لَهَا: أَفْعَلِي؟ فَاتَّخَذَتْ طَعَامًا، ثُمَّ تَجَدَّتْ لِهِنَّ الْبُيُوتَ؛ تَجَدَّتْ أَي زَيَّنَّتْ؛ وَالتَّجَدُّ مَا يُتَجَدُّ

(١) فِي ي وَالتَّطْبَرِي: أَتَقْتَلَنِي. وَهُوَ الْأَشْبَهُ. (٢) الْمَهْنُوءَةُ: الْمَطْلِيَّةُ بِالْقَطْرَانِ، وَإِذَا هْنَى الْبَعِيرُ بِالْقَطْرَانِ يَجِدُ لَهُ لَذَةً مَعَ حَرَقَةٍ، كَحَرَقَةِ الْهَوَى مَعَ لَذَتِهِ. (٣) فِي ع وَو: الْكَبْدُ. وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ.

به البيت من المتاع أي يُزَيَّن، والجمع نُجُود عن أبي عُبَيْد^(١)؛ والتَّجِيد التَّزِين؛ وأرسلت إليهن أن يحضرن طعامها، ولا تتخلف منكن امرأة ممن سميت. قال وهب بن مُنْبَه: إنهن كن أربعين امرأة فجنن على كره منهن، وقد قال فيهن أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

حتى إذا جئنهما قسراً ومهدت لهن أنضاداً وكباباً^(٢)

ويُروى: أنماطاً. قال وهب بن [مُنْبَه]^(٣): فجنن وأخذن مجالسهن. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكاً﴾ أي هيات لهن مجالس يتكثن عليها. قال ابن جُبَيْر: في كل مجلس جَام فيه عسل وأُتْرُج وسكّين حاد. وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبَيْر «مُتْكَاً» مخففاً غير مهموز، والمُتْكَ هو الأُتْرُج بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد. روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: المُتْكَ مثقلاً [هو]^(٤) الطعام، والمُتْكَ مخففاً [هو]^(٥) الأُتْرُج؛ وقال الشاعر:

نَشْرَبُ الْإِنَّم بِالصُّوَاعِ جِهَاراً وَتَرَى الْمُتْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَاراً

وقد تقول أَرُودُ شَنْوَةً: الأُتْرُجَةُ المُنْكَةُ؛ قال الجوهري: المُنْك ما تُبْقِيه الخاتنة. وأصل المُنْك الزُّمَارُود^(٦). والمُنْكَاء من النساء التي لم تُخَفِّض^(٧). قال الفراء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُنْك مخففاً الزُّمَارُود. وقال بعضهم: إنه الأُتْرُج؛ حكاها الأخفش. ابن زيد: أترجاً وعسلاً يؤكل به؛ قال الشاعر^(٨):

فَظَلْنَا بِنَعْمَةٍ وَأَتَكْنَا وَشَرَبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلْبِهِ

أي أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ من العَتَاد؛ وهو كل ما جعلته عُدَّةً لشيء. «مُتْكَاً» أصح ما قيل فيه ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: مجلساً، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكاً، مثل: ﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾؛ ودل على

(١) كذا في الأصول: ولعل الصواب أبو عبيدة كما يؤخذ من «اللسان».

(٢) كذا البيت في الأصول.

(٣) من ع.

(٤) الزما ورد: الرقاق الملفوف باللحم وغيره، أو هو شيء يشبه الأُتْرُج.

(٥) خفض الجارية: ختنها، وكذا الصبي، والعرف أن الخفض للجارية خاصة والختان للصبي.

(٦) هو جميل بن معمر، والقلل جمع قلة، والقلة الحب العظيم. وقيل: الجرة الكبيرة. وقيل:

الكوز الصغير. وقيل: غير ذلك.

هذا الحذف ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾ لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين؛ كذا قال في كتاب «إعراب القرآن» له. وقال في كتاب «معاني القرآن» [له]^(١): «وروى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «الْمَتَكَا» الطعام. وقيل: «الْمَتَكَا» كل ما أَتَكَى عليه عند طعام أو شراب أو حديث؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، إلا أن الروايات قد صحت بذلك. وحكى القُتَيْبِيُّ أَنَّهُ يَقَالُ: أَتَكَأْنَا عِنْدَ فُلَانٍ أَي أَكَلْنَا، وَالْأَصْلُ فِي «مَتَكَا» مَوْتَكَا، وَمِثْلُهُ مُتَرَنَ وَمُتَعَدٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ وَزَنَتِ وَوَعَدَتْ وَوَكَّأَتْ، وَيُقَالُ: أَتَكَأَ يَتَكَأُ أَتَكَأُ. ﴿كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾ مفعولان؛ وحكى الكسائي والفراء أَن السَّكِينِ يَذْكُرُ وَيُؤْنَتُ، وَأَنشَدَ الْفَرَاءُ:

فَعَيْتَ^(٢) فِي السَّنَامِ غَدَاةً قُرٌّ بِسَكِينٍ مُوْتَقَّةٍ النَّصَابِ
الجوهري: والغالب عليه التذكير، وقال:

يُرى ناصحاً فيما بَدَا فإذا خَلَا فذلك سَكِينٌ عَلَى الْحَلْقِ حَاذِقٌ
الأصمعي: لا يعرف في السكين إلا التذكير.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة، وكسرت التاء على الأصل. قيل: إنها قالت لهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت لخدامها: إذا قلت لك أدع لي إيلاً فأدع يوسف؛ وإيل: صنم كانوا يعبدونه، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شدّ مِئْزَرُهُ، وحسّرَ عن ذِراعِيهِ؛ فقالت للخدام: أدع لي إيلاً؛ أي أدع لي الرب؛ وإيل بالعبرانية الرب؛ قال: فتعجب النسوة وقلن: كيف يجيء؟! فصعدت الخادم فدعت يوسف، فلما أنحدر قالت لهن: أقطعن ما معكن. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بِالْمُدَى حَتَّى بَلَغَتِ السَّكَائِينَ إِلَى الْعِظَمِ؛ قَالَهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ. سعيد بن جبیر: لم يخرج عليهن حتى زينتته، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه، وتحيرن لحسن وجهه وزينتته وما عليه، فجعلن يقطعن أيديهن، ويحسبن

(١) من ع.

(٢) عيث في السنام بالسكين أثر.

أنهن يقطعن الأثرَج؛ وأختلف في معنى «أكْبَرَنَ» فروى جُوَيْر عن الضحَّاك عن ابن عباس: أعظمته^(١) وهَبْنِه؛ وعنه أيضاً أَمْنَيْن وأَمْذِين من الدَّهْش؛ وقال الشاعر:

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قارة^(٢) صَهَلْنَ وَأَكْبَرَنَ المنيَّ المدفقا

وقال ابن سمعان عن عدة من أصحابه: إنهم قالوا أَمْذِين عشقاً؛ وهب بن مُنبه: عشقته حتى مات منهن عشرة في ذلك المجلس دَهْشاً وحيرة ووَجْداً بيوسف. وقيل: معناه حَضَن من الدَّهْش؛ قاله قتادة ومقاتل والشَّدي^(٣)؛ قال الشاعر:

نأتي النساءَ على أطهارهنّ ولا نأتي النساءَ إذا أكْبَرَنَ إكْبَاراً

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا: ليس ذلك في كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكن حَضَن من شدة إعظامهن له، وقد تفرع المرأة فسقط ولدها أو تحيض. قال الزجاج: يقال أكْبَرَنه، ولا يقال حَضَنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض؛ وأجاب الأزهري فقال: يجوز أكْبَرَت بمعنى حاضت؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيْز الصغر إلى الكبر؛ قال: والهاء في «أكْبَرَنَ» يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية؛ وهذا مزيّف، لأن هاء الوقف تسقط في الوصل، وأمثلة منه قول ابن الأنباري: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أي أكْبَرَن إكْبَاراً، بمعنى حَضَن حَيْضاً. وعلى قول ابن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف؛ أي أعظمَن يوسف وأَجْلَلَنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال مجاهد؛ قَطَّعْنَهَا حَتَّى أَلْقَيْنَهَا. وقيل: خَدَشْنَهَا. وروى ابن أبي نجيح [عن مجاهد]^(٤) قال: حَزَّ أَبَ السَّكِين، قال النحاس: يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تَبَيَّن منه اليد، إنما هو خَدَش وحَزّ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده. وقال عكرمة: «أَيْدِيَهُنَّ» أكْمامهنّ، وفيه بُغْد. وقيل: أناملهنّ؛ أي ما وجدن أَلْماً في القطع والجرح، أي لشغل قلوبهن بيوسف، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ.

(١) في هامش ع: معنى «أكْبَرَنه» أي عظمته ودهشَن من حسنه.

(٢) القارة: الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال، وقيل: الصخرة العظيمة، وقيل غير ذلك. (٣) قال ابن عطية وقوله: «أكْبَرَنه» معناه أعظمته واستهولن جماله هذا قول الجمهور. وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي عن أبيه عن جده: معناه حَضَن وأنشد:

نأتي النساءَ على أطهارهنّ ولا نأتي النساءَ إذا أكْبَرَنَ إكْبَاراً

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف ومعناه منكور والبيت مصنوع مختلف؛ لذلك قال الطبري وغيره من المحققين: ليس عبد الصمد من رواية العلم رحمه الله. من هامش ع. (٤) من ع وك.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله. وروى الأصمعي عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء. «وَقُلْنَ حَاشًا لِلَّهِ» بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام في «الله» عوضاً منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حَاشَاكَ وَحَاشَا لَكَ وَحَاشَ لَكَ وَحَاشَا لَكَ. ويقال: حَاشَا زَيْدٍ وَحَاشَا زَيْدًا؛ قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد صحَّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة:

وَلَا أَحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ^(١)

وقال بعضهم: حَاشَ حرف، وأحاشي فعل. ويدلّ على كون حاشا فعلاً وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أعرابي: اللهم أغفر لي ولمن يسمع^(٢)، حاشا الشيطان وأبا الأصمغ^(٣)؛ فنصب بها. وقرأ الحسن «وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضاً «حاش الإله». ابن مسعود وأبي: «حَاشَ لِلَّهِ» بغير لام، ومنه قول الشاعر^(٤):

حَاشَا أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ بِهِ ضَنْئًا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشُّثْمِ

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحشأ بمعنى الناحية، تقول: كنت في حشأ فلان أي في ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيد أي تنحى زيد من هذا وتباعد عنه، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من المحاشاة؛ أي حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما قُرب به، أو من أن يكون بشراً؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه، وعلى ما قال المبرد وأبو عليّ فعل.

قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيد قائماً، و «ما هذا بشراً» و «مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُنَّ»^(٥). وقال الكوفيون: لما حذفت الباء

(١) صدر البيت:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه

وهو من قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه.

(٢) في ع وك و و: سمع. (٣) كلام مشهور. (٤) هو سيرة بن عمرو الأسدي، وقيل: هو للجميع الأسدي، واسمه منقذ بن الطماح. والملحاة: اللوم. وفي ع: ابن مروان. كذا في إحدى روايتي «اللسان»: أبي مروان. وفي ك وى: ثروان. (٥) راجع ٢٧٢/١٧.

نصبت، وشرح هذا - فيما قاله أحمد بن يحيى - أنك إذا قلت: ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذف الباء نصبت لتدل على محلها، قال: وهذا قول الفراء، قال: ولم تعمل «ما» شيئاً؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا: زيد القمر؛ لأن المعنى كالقمر! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال: الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون اسماً. قال النحاس: لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض؛ لأن الفراء أجاز نصّاً^(١) ما بمنطلق زيد، وأنشد:

أَمَّا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كُنْتَ حُرّاً وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا الْعَيْتِيُّ

ومنع^(٢) نصّاً النصب؛ ولا نعلم بين النحويين اختلافاً أنه جائز: ما فيك براغب زيد، وما إليك بقاصد عمرو، ثم يحدفون الباء ويرفعون. وحكى البصريون والكوفيون ما زيد منطلق بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا:

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا وَمَا تَيْمٌ لِيذِي حَسَبٍ نَدِيدٌ

النَّد والنَّدِيد والنَّدِيدَةُ المِثْل والنَّظِير. وحكى الكسائي أنها لغة تهامة ونَجْد. وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين: قال أبو إسحق: وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله ﷺ أقوى وأولى.

قلت: وفي مصحف حفصة رضي الله عنها «مَا هَذَا بِبَشَرٍ» ذكره الغزنوي. قال القشيري أبو نصر: وذكرت النسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة^(٢) البشر، بل هو في صورة مَلَك؛ وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٣) والجمع بين الآيتين أن قولهن: «حَاشَ لِلَّهِ» تبرئة ليوسف عما رمت به امرأة العزيز من المراودة، أي بعد يوسف عن هذا؛ وقولهن: «لله» أي لخوفه، أي براءة لله من هذا؛ أي قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء؛ والمعنى: أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقض. وقيل: المراد تنزيهه عن مشابهة البشر في الصورة، لفرط جماله. وقوله: «لله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظناً منهن أن صورة المَلَك أحسن، وما بلغهن قوله

(١) في ع: أجاز أيضاً. (٢) في ع: إن يوسف أحسن صورة من البشر.

(٣) راجع ١١٣/٢٠.

تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإنه من كتابنا. وقد ظن بعض الضعفة أن هذا القول لو كان ظناً باطلاً منهم لوجب على الله أن يرده عليهن، ويبين كذبهن، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه؛ وأيضاً أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسن كأنه ملك؛ أي لم ير مثله، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظن في أن صورة الملك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التهم. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا ملك؛ وقال الشاعر^(١):

فَلَسْتُ لَأَنْسِيَّ وَلَكِنْ لِمَلَاكٍ تَنْزَلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وروي عن الحسن: «مَا هَذَا بِشِرَى» بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبداً مُشْتَرَى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾^(٢) أي مصيده، وشبهه كثير. ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمان، أي مثله لا يثمان ولا يقوم؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشتري به: كقولك: ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل هذا بألف. فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال: ما هذا مقدراً بشراء. وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه، ولأن مثل «بِشِرَى» يكتب في المصحف بالياء.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ﴾ لما رأت أفتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها: «لُمْتُنِّي فِيهِ» أي بحبه، و«ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطبري. وقيل: الهاء للحب، و«ذلك» على بابه، والمعنى؛ ولكن الحب الذي لمتني فيه، أي حب هذا هو ذلك الحب. واللوم الوصف بالقبيح. ثم أقرت وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي أمتنع^(٣)؛

(١) هو رجل من عبد القيس جاهلي. يمدح بعض الملوك، قيل: هو النعمان، وقال ابن السيرافي: هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير. وملك - كما قال الكسائي - أصله مأك بتقديم الهمزة؛ من الألوة، وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقل: ملاك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقل: ملك، فلما جمعه ردوها إليه فقالوا: ملائكة وملائك أيضاً («اللسان»).

(٢) راجع ٣١٧/٦.

(٣) في هـ: وعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة في شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت: ولقد راودته عن نفسه فاستعصم.

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: «أستعصم» أي استعصى، والمعنى واحد. ﴿وَلَيْتَن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَجَنَنَّ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهن، وهتكت جلباب^(١) الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لوماً ولا مقالاً خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها. ﴿وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي الأذلاء. وخط المصحف «وليكونا» بالالف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقل وتخفف والوقف على قوله: «لَيْسَجَنَنَّ» بالنون لأنها مثقلة، وعلى «ليكونا» بالالف لأنها مخففة، وهي تشبه نون الإعراب في قولك: رأيت رجلاً وزيداً وعمراً، ومثله قوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾^(٢) ونحوها الوقف عليها بالالف، كقول الأعشى^(٣):

وَلَا تَعْبِدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا

أي أراد فاعبداً، فلما وقف عليه كان الوقف بالالف.

[٣٣] ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

[٣٤] ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزجاج والنحاس. «أحب إلي» أي أسهل علي وأهون من الوقوع في المعصية؛ لا أن دخول السجن مما يحب على التحقيق. وحكى أن يوسف عليه السلام لما قال: «السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ» أوحى الله إليه «يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إلي، ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت». وحكى أبو حاتم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ: «السَّجْنُ» بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة ابن أبي إسحق

(١) في ع: حجاب. (٢) راجع ٢٠/١٢٥.

(٣) صدر البيت:

وذا النصب المنسوب لا تنسكه

وهو من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله ﷺ

وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب؛ وهو مصدر سَجَنَ سَجْنًا - ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي كيد النسوان. وقيل: كيد النسوة اللاتي رأينه؟ فإنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز، وقلن له: هي مظلومة وقد ظلمتها. وقيل: طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تعذله في حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له: يا يوسف! أقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال: يا رب كانت واحدة فصرن جماعة. وقيل: كيد امرأة العزيز فيما دعت إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيد الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيداً لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لُجَأ:

تَرَأَتْ كَيْ تَكِيدُكَ أُمُّ بَشِيرٍ وَكَيْدُ الْبَرْجِ مَا تَكِيدُ

﴿أَضْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جواب الشرط، أي أَمِلْ إِلَيْهِنَّ؛ من صبا يصبو - إذا مال وأشتاق - صُبُوًا وصَبُوة؛ قال^(١):

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي وَهِنْدٌ مِثْلَهَا يُضِي

أي إن لم تَلُطِفْ بي في اجتناب المعصية وقعت فيها. ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجاهل؛ ودلّ هذا على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودلّ أيضاً على قبح الجهل والذم لصاحبه.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ لِمَا قَالَ. ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ تعرّض للدعاء، وكأنه قال: اللهم أصرف عني كيدهنّ؛ فاستجاب له دعاءه، ولطف به وعصمه عن الوقوع في الزنى. «كَيْدَهُنَّ» قيل: لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه. وقيل: يعني كيد النساء. وقيل: يعني كيد امرأة العزيز على ما ذكر في الآية قبل؛ والعموم أولى.

(١) هو زيد بن ضبة.

[٣٥] ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُجْنَتْهُ حَتَّى جِينِ ﴿٣٥﴾﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ أي ظهر للغرير وأهل مشورته «مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ» أي علامات براءة يوسف - من قَدَّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحَزُّ الأيدي، وقلة صبرهنَّ عن لقاء يوسف - أن يسجنوه كتماناً للقصة الآتية في العامة، وللحيلولة بينه وبينها . وقيل : هي البركات التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قوله : ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ قال : القميص من الآيات، وشهادة الشاهد من الآيات، وقطع الأيدي من الآيات، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : ألجأها الخجل من الناس، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب ، لتشتفي إذا مُنعت من نظره ؛ قال :

وما صَبَابَةٌ مشتاقٍ على أملٍ من اللِّقَاءِ كمشتاقٍ بلا أملٍ
أو كادته رجاء أن يَمْلَأَ حبسه فيبذل نفسه .

الثانية - قوله تعالى : ﴿لَيْسَجُجْنَتْهُ﴾ «يَسْجُنَتْهُ» في موضع الفاعل ؛ أي ظهر لهم أن يسجنوه ؛ هذا قول سيبويه . قال المبرد : وهذا غلط ؛ لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دلَّ عليه «بَدَأَ» وهو مصدر ؛ أي بدا لهم بَدَاءً ؛ فحذف لأن الفعل يدلُّ عليه ؛ كما قال الشاعر :

وَحَقٌّ لِمَنْ أَبُو مُوسَى أَبُوهُ يُؤَوِّقُهُ الَّذِي نَصَبَ الْجِبَالَ

أي وحقَّ الحقِّ، فحذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأيي لم يكونوا يعرفونه ؛ وحذف هذا لأن في الكلام دليلاً عليه، وحذف أيضاً القول ؛ أي قالوا : ليسجننه، واللام جواب ليمين مضمرة ؛ قاله الفراء، وهو فعل مذكَّر لا فعل مؤنث ؛ ولو كان فعلاً مؤنثاً لكان يَسْجُنَاتُهُ ؛

ويدلّ على هذا قوله ﴿لَهُمْ﴾ ولم يقل لهم، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكور؛ قاله أبو عليّ. وقال السديّ: كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شهّرها ونشر خبرها؛ فالضمير على هذا في ﴿لَهُمْ﴾ للملك.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى مدّة غير معلومة؛ قاله كثير من المفسّرين. وقال ابن عباس: إلى انقطاع ما شاع في المدينة. وقال سعيد بن جبّير: إلى ستة أشهر. وحكى الكيّما أنه عتّى ثلاثة عشر شهراً. عكرمة: تسع سنين. الكلبي: خمس سنين. مقاتل: [سبع]^(١). وقد مضى في «البقرة»^(٢) القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة. و «حتى» بمعنى إلى؛ كقوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(٣). وجعل الله الحبس تطهيراً ليوسف ﷺ^(٤) من همّه بالمرأة. وكان العزيز - وإن عرف براءة يوسف - أطاع المرأة في سجن يوسف. قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عشرات: حين همّ بها فسجن، وحين قال للفتى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال لإخوته: ﴿إِنكُم لَسَارِقُونَ﴾ فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾.

الرابعة - أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعاً. فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحاً فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحده. وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحدّ، وهو ضعيف؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلائين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾^(٥). وسيأتي بيان هذا في «النحل»^(٦) إن شاء الله. وصبر يوسف، وأستعاذ به من الكيد، فاستجاب له على ما تقدّم.

(١) من ع. وفي «روح المعاني» و«الفخر الرازي» عن مقاتل اثني عشر سنة.

(٢) راجع ١/٣٢١. فما بعد.

(٣) راجع ١٣٤/٢٠. (٤) من ع.

(٥) راجع ٩٩/١٢. (٦) راجع ١٨٢/١٠. فما بعد.

[٣٦] ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُ بِنْتِ أَبِي إِدْرِيسَ إِنَّهُ نَزَلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[٣٧] ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْكَاهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

[٣٨] ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ «فتيان» تشية فتى؛ وهو من ذوات الياء، وقولهم: الفتوة شاذ^(١). قال وهب وغيره: حمل يوسف إلى السجن مقيداً على حمار، وطيف به «هذا جزاء من يعصي سيده» وهو يقول: هذا أيسر من مقطعات^(٢) النيران، وسراويل القطران، وشراب الحميم، وأكل الزقوم. فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد أنقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم؛ فجعل يقول لهم: أصبروا وأبشروا تؤجروا؛ فقالوا له: يا فتى! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك، من أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب، ابن ذبيح^(٣) الله إسحق، ابن خليل الله إبراهيم. وقال ابن عباس: لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن؛ فكان يُعزّي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلي الليل كله، ويبكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب، وطهر به السجن، واستأنس به أهل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس^(٤) في السجن

(١) في ع و ك و ي: الفتوة شاذة.

(٢) مقطعات النيران: هي على نحو قوله تعالى: ﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي خيطت وسويت وجعلت لبوساً لهم.

(٣) هذا دليل الوضع لأن الذبيح قطعاً إسماعيل عليه السلام.

(٤) في ع: يجلس.

مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال [له] ^(١): يا يوسف! لقد أحبتك حباً لم أحب شيئاً حبك، فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولم ذلك؟ فقال: أحبني أبي ففعل بي إخواني ما فعلوه، وأحبنتي سيدتي فنزل بي ما ترى، فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبّازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عُمرَ فيهم فملّوه، فدرسوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يسّماء جميعاً، فأجاب الخبّاز وأبى صاحب الشراب، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقى: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: أيها الملك ^(١) لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للسّاقى: أشرب! فشرب فلم يضرّه، وقال للخبّاز: كُلْ؛ فأبى، فجزّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقياً في السجن تلك المدة مع يوسف. وأسم السّاقى منجاً، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبيّ عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبريّ: الذي رأى أنه يعصر خمراً هو نبو، قال السّهيليّ: وذكر أسم الآخر ولم أقيده. وقال «فتيان» لأنهما كانا عبيدين، والعبد يسمّى فتى، صغيراً كان أو كبيراً؛ ذكره الماورديّ. وقال القشيريّ: ولعلّ الفتى كان اسماً للعبد في عرفهم؛ ولهذا قال: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾. ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنباً؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبر الأحلام؛ فقال أحد الفتين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هذا العبد العبراني؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً؛ قاله ابن مسعود. وحكى الطّبريّ أنهما سألاه عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رؤياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أصدقكم رؤيا أصدقكم

حديثاً». وقيل: إنها كانت رؤيا كذب سألها عنها تجريباً؛ وهذا قول ابن مسعود والسدي. وقيل: إن المصلوب منهما كان كاذباً، والآخر صادقاً؛ قاله أبو مجلز. وروى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من تحلّم كاذباً كُلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين [ولن يعقد^(١) بينهما]». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وعن عليّ عن النبي ﷺ قال: «من كذب في حُلْمه كُلّف يوم القيامة عَقْدَ شَعِيرَةٍ». قال: حديث حسن. قال ابن عباس: لَمَّا رَأَى رُؤْيَاهُمَا أَصْبَحَا مَكْرُوبَيْنِ؛ فقال لهما يوسف: مالي أراكما مكروبين؟ قالوا: يا سيدنا! إنا رأينا ما كرهنا؛ قال: فقصّ عليّ، فقصّ عليه؛ قالوا: نبشنا بتأويل ما رأينا؛ وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام. ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإحسانه، أنه كان يعود المرضى ويدأويهم، ويُعزّي الحزاني؛ قال الضحّاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسّع له، وإذا احتاج جمع له، وسأل له. وقيل: ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي العالمين الذين أحسنوا العلم، قاله الفراء. وقال ابن إسحق: ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لنا إن فسّرته، كما يقول: افعَلْ كَذَا وَأَنْتَ مُحْسِنٌ. قال: فما رأيتما؟ قال الخبّاز: رأيت كأنّي اختبرت في ثلاثة تنانير، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعت على رأسي فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيت كأنّي أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنباً، بلغة عُمان، قاله الضحّاك. وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنْبًا﴾. قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل معنى ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنب خمر، فحذف المضاف. ويقال: خَمْرَةٌ وَخَمْرٌ وَخُمُورٌ، مثل تمرّة وتمر وثُمُور. «قال» لهما يوسف: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ

(١) الزيادة عن صحيح الترمذي، قال شارحه: لما تبعته نظري ظهر إليّ أن المخبر بما لم يرَ عقد من الكلام عقداً باطلاً لم يشعر به. أي لم يعلمه، فقليل له: اعقد بين شعيرتين ولا يتعقد له ذلك أبداً، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن منها شيء، لتكون العقوبة من جنس المعصية.

تُرْزَقَانِهِ ﴿ يَعْنِي لَا يَجِيئُكُمَا غَدًا طَعَامٌ مِنْ مَنْزِلِكُمَا ﴾ ﴿ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلمنا أني أعلم تأويل رؤياكما، فقالا: أفعِلْ! فقال لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال؛ وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف. وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك. ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتتهدوا، ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الآية كلها، على ما يأتي. وقيل: علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام لِيَسْعَدَا^(١) به. وقيل: إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره فقال: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ في النوم ﴿ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا ﴾ بتفسيره في اليقظة، قاله السدي، فقالا له: هذا من فعل العرافين والكهنة، فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علّمني ربّي، إني لا أخبركما به تكهنًا وتنجيماً، بل هو بوحى من الله عز وجل. وقال ابن جرير: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا ﴿ تُرْزَقَانِهِ ﴾ أي يجري عليكما من جهة الملك أو غيره. ويحتمل يرزقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب كعيسى عليه السلام. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التي يستدلان بها إخبارهما بالغيوب.

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق. ﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما ينبغي. ﴿ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ «مِنْ» للتأكيد، كقولك: ما جاءني من أحد. وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى. ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أي على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك. وقيل: ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إذ جعلنا أنبياء، ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إذ جعلنا الرسل إليهم. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمة^(٢) التوحيد والإيمان.

(١) من ي. وفي أ وح و ك ع: ليستعدا به.

(٢) كذا في ع. وفي أ و ك و ي: نعمه بالتوحيد.

[٣٩] ﴿يَصْنَعِي السَّجْنَ أَبَابَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرَ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

[٤٠] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَشْرَءَ آبَاؤَكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنَ﴾ أي يا ساكني السجن؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار. ﴿أَبَابَ مُتَفَرِّقُونَ﴾ أي في الصغر والكبر والتوسط، أو متفرقون في العدد. ﴿خَيْرَ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وقيل: الخطاب لهما ولأهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاماً للحجة؛ أي آلهة شتى لا تضر ولا تنفع. ﴿خَيْرَ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذي قهر كل شيء. نظيره: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١). وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدد الإله لتفرقوا في الإرادة ولعلا بعضهم على بعض، ويبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ﴾ بين عجز الأصنام وضعفها فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معاني لها. ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عني بالأسماء المسميات؛ أي ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم؛ لأنها جمادات. وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك. ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ فحذف المفعول الثاني للدلالة؛ والمعنى: سميتوها آلهة من عند أنفسكم. ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ذلك في كتاب. قال سعيد بن جبير: ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة. ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي هو خالق الكل. ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي القويم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٤١] ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي قال للساقي: إنك ترد على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأما أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك، قال: والله ما رأيت شيئاً؛ قال: رأيت أو لم ترَ ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لغتان بمعنى واحد، كما قال الشاعر^(١):

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ

قال النحاس: الذي عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب، أو صب الماء في حلقه ومعنى أسقاه جعل له سقياً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾^(٢).

الثانية - قال علماؤنا: إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا: لا يلزمه؛ وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي، وتعبير النبي حكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقاً لنبوته؛ فإن قيل: فقد روى عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ كَانِي أَغْشَبْتُ ثُمَّ أَجْدَبْتُ ثُمَّ أَغْشَبْتُ ثُمَّ أَجْدَبْتُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ رَجُلٌ تُؤْمِنُ ثُمَّ تَكْفُرُ، ثُمَّ تُؤْمِنُ ثُمَّ تَكْفُرُ، ثُمَّ تَمُوتُ كَافِرًا؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: قَدْ قَضَيْتُ لَكَ مَا قَضَى لِصَاحِبِ يَوْسُفَ؛ قُلْنَا: لَيْسَتْ لِأَحَدٍ بَعْدَ عُمَرَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُحَدَّثًا^(٣)، [وكان إذا ظن^(٤) ظناً كان]

(١) هو ليبد؛ ومجد: ابنة تيم بن غالب بن فهر، وهي أم كلاب وكليب بني ربيعة. وفاعل سقى هو المطر.

(٢) راجع ١٥٨/١٩.

(٣) محدث: ملهم، أو يلقي في روعه الشيء، أو يجري الصواب على لسانه من غير قصد. (القسطلاني). والمحدث: الذي يحدثه الملك أيضاً. أي يلقي في نفسه.

(٤) من عوك ووي.

وإذا تكلم به وقع، على ما ورد في أخباره؛ وهي كثيرة؛ منها - أنه دخل عليه رجل فقال له: أظنك كاهناً فكان كما ظن؛ خرجه البخاري. ومنها - أنه سأل رجلاً عن أسمه فقال له فيه أسماء النار كلها، فقال له: أدرك أهلك فقد أحترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الحجر»^(١) إن شاء الله تعالى.

[٤٢] ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (١٢).

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، في قول أكثر المفسرين وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين؛ قال: إنما ظن يوسف نجاته لأن العابر يظن ظناً وربك يخلق ما يشاء؛ والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظناً في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع.

الثانية - قوله تعالى: ﴿اِذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي سيدك، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد رب؛ قال الأعشى:

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يَكْذُرُ نِعْمَةً وَإِذَا تُنْشِدُ^(٢) فِي الْمَهَارِقِ أَنْشَدَا

أي أذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنني مظلوم محبوس بلا ذنب. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَسْقِ رَبَّكَ أَطْعَمْ رَبَّكَ وَضِئْ رَبَّكَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلَيَقُلْ سَيِّدِي مُوَلَاي وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أُمْتِي وَلَيَقُلْ فَتَايَ فَتَاتِي غَلَامِي». وفي القرآن: ﴿اِذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (إلى

(١) راجع ٤٢/١٠.

(٢) ويروى: (يناشد بالمهاري) يقول: إذا نوشد بما في الكتب أجاب؛ أي إذا سئل أعطى. والمهريق: الصحيفة.

رَبِّكَ ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي صاحبي ؛ يعني العزيز . ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد رَبَّهُ يَرْبُهُ ، فهو رَبٌّ له . قال العلماء قوله عليه السلام : « لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ «وليقُلْ» من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى ؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم ؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّهَا» أي مالكتها وسيدها ؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ ؛ فكان محل النهي في هذا الباب ألاّ تتخذ هذه الأسماء عادة فتترك الأولى والأحسن . وقد قيل : إن قول الرجل عبدي وأمتي يجمع معنيين : أحدهما - أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى ؛ ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمتي تعظيم عليه ، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه ؛ وذلك غير جائز . والثاني - أن المملوك يدخله من ذلك شيء في أستصغاره بتلك التسمية ، فيحملة ذلك على سوء الطاعة . وقال ابن شعبان في «الزاهي» : «لا يقل السيد عبد وأمتي ولا يقل المملوك ربّي ولا ربتي» وهذا محمول على ما ذكرناه . وقيل : إنما قال ﷺ «لا يقل العبد ربّي وليقل سيدي» لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق ؛ وأختلف في السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال ، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس في الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الربّ ، فيحصل الفرق . وقال ابن العربي : يحتمل أن يكون ذلك جائزاً في شرع يوسف عليه السلام .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضمير في «فَأَنسَاهُ» فيه قولان : أحدهما - أنه عائد إلى يوسف عليه السلام ، أي أنساه الشيطان ذكر الله عزّ وجلّ ؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك - حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك - «أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ؛ فعوقب باللّبث . قال عبد العزيز بن عُمَيْر الكِنْدِيّ : دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام في السجن فعرفه يوسف ، فقال : يا أخا المنذرين ! مالي أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال جبريل عليه السلام : يا طاهر [ابن] ^(١) الطاهرين ! يقرئك

السلام رب العالمين ويقول: أما استحييت إذ أستغثت^(١) بالآدميين؟! وعزّيتي! لألبثتك في السجن بضع سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عتي راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة. ورؤي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول سجنه، وقال له: يا يوسف! من خلّصك من القتل من أيدي إخوانك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الحب؟ قال: الله تعالى قال: فمن عصّمتك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟! قال: يا رب كلمة زلّت مني! أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن^(٢) ترحمني؛ فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين. ورؤي أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن بضع سنين». وقال ابن عباس: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه. وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمة يوسف - يعني قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ - ما لبث في السجن ما لبث» قال: ثم يبكي الحسن ويقول: نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس. وقيل: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي؛ أي أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده؛ وفيه حذف، أي أنساه الشيطان ذكره لربه؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال: لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن؛ إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب؛ ردّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ فدلّ على أن الناسي [هو]^(٣) الساقى لا يوسف؛ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٤) فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنته؟! قيل: أما

(١) فاستغثت.

(٢) في عوى: إلا رحمتني.

(٣) من ع.

(٤) راجع ٢٨/١٠.

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال ﷺ: «نسي آدم فنسيت ذريته». وقال: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون». وقد تقدم.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي^(١) زيد: يقال بَضْعٌ وبِضْعٌ بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهروي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناها القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العقد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «وكم البضع» فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: «أذهب فزائد في الخطر»^(٢). وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطِرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل: أحدها - سبع سنين، قاله ابن جريج وقتادة ووهب بن منبّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني - اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث - أربع عشرة

(١) كذا في ع و ك. وهو الذي عليه «اللسان». وفي أ وى: ابن زيد.

(٢) الخطر (بالتحريك): الرهن والحظ والحديث في شأن مراعاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي ﷺ: «أذهب فزائد في الخطر ومادد في الأجل» وكان ذلك قبل تحريم الرّهان. راجع «صحيح الترمذي» في تفسير أول سورة الروم.

سنة، قاله الضحاك. وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال: مكث يوسف في السجن خمساً وبضعاً. وأشتقاقه من بضع الشيء أي قطعته، فهو قطعة من العدد، فعاقب الله يوسف بأن حُبِسَ سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله. قال وهب بن مُتَبِّه: حبس يوسف في السجن سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعَذَّبَ بُخْتَنَصْرَ بالمشخ سبع سنين. وقال عبد الله بن راشد البصري عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ: إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة.

الخامسة - في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا فإن الأمور بيد مُسَبِّبِها، ولكنه جعلها سلسلة، ورَكَّبَ بعضها على بعض، فتحرّكها سَنَةٌ، والتعويل على المنتهى يقين. والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر؛ وهذا بين فتأملوه.

[٤٣] ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا نَعِيمٌ﴾ (٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال: إن الله مخرجك من سجنك، ومُمْكِّنٌ لك في الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدة، وجعلها آخراً بشري ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقراتٍ سِمان، في أثرهنّ سبع عِجَاف - أي مهازيل - وقد أقبلت العِجَاف على السِّمان فأخذنّ بأذانهنّ فأكلنهنّ، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل

عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهن فلم يبق منهن شيء وهن يابسات، وكذلك البقر كن عجافاً فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والتجامة والعرافة والسّحر، وأشرف قومه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ فقصّ عليهم، فقال القوم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ قال ابن جريج قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جَوْبِر عن الضّحّاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة. وقال الهَرَوِيُّ: قوله تعالى: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي أخلاط أحلام. والضّغث في اللغة الحُزْمَة من الشيء كالبقل والكلا وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك بيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقاً بين المذكّر والمؤنث «سِمَانٍ» من نعت البقرات، ويجوز في غير القرآن سبعَ بقراتٍ سِمَاناً، نعت للسبع، وكذا خُضْرَاءُ، قال الفراء: ومثله. ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾^(١). وقد مضى في سورة «البقرة»^(٢) اشتقاقها^(٣) ومعناها. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سماناً فهي سِنِيّ^(٤) رخاء، وإن كانت عجافاً كانت شداداً، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فتناً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر «يشبه بعضها بعضاً». وفي خبر آخر في الفتن «كأنها صياصي البقر»^(٥) يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْراً كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدلّ البقرة على الزوجة والخدام والغلة والسّنة؛ لما يكون فيها من الولد والغلة والنبات. ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ من عَجْفٌ يَعْجِفُ، على وزن عَظُمَ يَعْظُمُ، وروي عَجِفَ يَعْجِفُ على وزن حَمِدَ يَحْمَدُ.

(١) راجع ٢٠٨/١٨. (٢) راجع ٢١٦/١. (٣) في ع: اشتقاق البقرة.

(٤) في ع و: سنين رخاء. (٥) صياصي البقر: قرونها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ جمع الرؤيا رُؤَى: أي أخبروني بحكم هذه الرؤيا. ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عَبَرَتِ النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا^(١) يعبر بما يؤول إليه أمرها. واللام في «الرؤيا» للتبين، أي إن كنتم تَعْبُرُونَ، ثم بَيَّن فقال: للرؤيا، قاله الزجاج.

[٤٤] ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ قال الفراء: ويجوز «أضغاث أحلام» قال النحاس: التصب بعيد، لأن المعنى: لم تَرِ شيئاً له تأويل، إنما هي أضغاث أحلام، أي أخلاط. وواحد الأضغاث ضِغْث، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغْث؛ قال الشاعر:

كضِغْثِ حُلْمٍ غَرَّ مِنْهُ حَالِمُهُ

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نَفَّوْا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له، لا أنهم نفَّوْا عن أنفسهم علم التأويل. وقيل: نفَّوْا عن أنفسهم علم التعبير. والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التي منها صحيحة ومنها باطلة، ولهذا قال الساقى: ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل، لا أنهم آذعوا ألا تأويل لها. وقيل: إنهم لم يقصدوا تفسيراً، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله، وعلى هذا أيضاً فعندهم علم. و «الْأَحْلَامُ» جمع حُلْم، والحُلْم بالضم ما يراه النائم، تقول منه: حَلَمَ بالفتح وأحتمل، وتقول: حَلَمْتُ بكذا وحَلَمْتُهُ، قال:

فَحَلَمْتُهَا وَبَنُو رُقَيْدَةَ^(٢) دُونَهَا لَا يَتَعَدَّنَّ خَيَالُهَا الْمَحْلُومُ

أصله الأناة، ومنه الحُلْم ضد الطَّيْش؛ فقيل لما يرى في النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودعة

(١) في ع وى: يخبر.

(٢) رقيقة: أبو حي من العرب، يقال لهم الرفيدات؛ كما يقال لآل هبيرة الهيريات. «اللسان».

الثانية - في الآية دليل على بطلان قول من يقول: إن الرؤيا على أول ما تعبر، لأن القوم قالوا: ﴿أَصْنَاثُ أَخْلَامٍ﴾ ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسرها على سني الجذب والخصب، فكان كما عبر؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر، فإذا عبرت وقعت.

[٤٥] ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥).

[٤٦] ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُسَبِّتُ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ يعني ساقى الملك. ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين، عن ابن عباس وغيره؛ ومنه ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾^(١) وأصله الجملة من الحين. وقال ابن درستويه^(٢): والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال - والله أعلم - وادكر بعد حين أمة، أو بعد زمن أمة، وما أشبه ذلك؛ والأمة الجماعة الكثيرة من الناس. قال الأخفش: هو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع؛ وكل جنس من الحيوان أمة؛ وفي الحديث: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها».

قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ﴾ أي تذكر حاجة يوسف، وهي قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. وقرأ ابن عباس - فيما روى عفان عن همام عن قتادة عن عكرمة عنه - «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ». النحاس: والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ»، بفتح الهمزة وتخفيف الميم؛ أي بعد نسيان؛ قال الشاعر:

أَمِهْتُ وَكُنْتُ لَا أَنْسَى حَدِيثًا كَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالْعُقُولِ

وعن شبيب بن عزرة الضبي: «بعد أمه» بفتح الالف وإسكان الميم وهاء خالصة؛ وهو مثل الأمه، وهما لغتان، ومعناها النسيان؛ ويقال: أمة يأمه أمها إذا نسي؛ فعلى هذا

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء.

(٢) هو عبدالله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما).

«وَأَذْكُرَ بَعْدَ أَمِّهِ»؛ ذكره النحاس؛ ورجل أمه^(١) ذاهب العقل. قال الجوهري: وأما ما في حديث الزهري «أمه» بمعنى أقرّ وأعترف فهي لغة غير مشهورة. وقرأ الأشهب العُقيلي - «بَعْدَ إِمَّةٍ» أي بعد نعمة؛ أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة. ثم قيل: نسي الفتى يوسف لقضاء الله تعالى في بقاءه في السجن مدة. وقيل: ما نسي، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسببه حبس هو والخباز؛ فقله: «وَأَذْكُرَ» أي ذكر وأخبر. قال النحاس: أصل أَذْكُرَ أَذْكُرَ، والذال قريبة المخرج من التاء؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة، والتاء مهموسة، فلو أدغموا ذهب الجهر، فأبدلوا من موضع التاء حرفاً مجهوراً وهو الدال؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة؛ فصار أَذْكُرَ، فأدغموا الذال في الدال لرخاوة الدال ولينها؛ ثم قال: «أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» أي أنا أخبركم. وقرأ الحسن «أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» وقال: كيف ينبئهم العِلج^(٢)؟! قال النحاس: ومعنى «أَنْبِئُكُمْ» صحيح حسن؛ أي أنا أخبركم إذا سَأَلْتُ. «فَأَرْسِلُونِ» خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهل مجلسه. «يُوسُفُ» نداء مفرد، وكذا «الصَّدِيقُ» أي الكثير الصدق. «أَفْتِنَا» أي فأرسلوه، فجاء إلى يوسف فقال: أيها الصديق! وسأله عن رؤيا الملك. «لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ» أي إلى الملك وأصحابه. «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» التعبير، أو «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» مكانك من الفضل والعلم فتخرج. ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيماً له.

[٤٧] «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» ﴿٤٧﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: «قَالَ تَزْرَعُونَ» لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له، فقال: السبع من البقرات السّمان والسّنبيلات الخضر سبع سنين مخصّبات؛ وأما البقرات العجاف

(١) في ع: أمه ووامه: ذاهب العقل. والذي في «اللسان»: أمه الرجل فهو مأموه وهو الذي ليس عقله معه.

(٢) العِلج: الكافر من العجم.

وَالسَّنْبِلَاتِ الْيَابِسَاتِ فَسَبْعَ سَنِينَ مُجْدِبَاتٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سَنِينَ دَابَّاً﴾ أَيِ مُتَوَالِيَةٍ مُتَتَابِعَةٍ؛ وَهُوَ مُصْدَرٌ عَلَى غَيْرِ الْمَصْدَرِ، لِأَن مَعْنَى «تَزْرَعُونَ» تَدَابُّونَ كَعَادَتِكُمْ فِي الزَّرَاعَةِ سَبْعَ سَنِينَ. وَقِيلَ: هُوَ حَالٌ؛ أَيِ دَائِبِينَ. وَقِيلَ: صِفَةٌ لِسَبْعِ سَنِينَ، أَيِ دَائِبَةٍ. وَحَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ يَعْقُوبَ «دَابَّاً» بِتَحْرِيكِ الْهَمْزَةِ، وَكَذَا رَوَى حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ؛ وَهُمَا لَفْطَانٌ^(١)، وَفِيهِ قَوْلَانِ، قَوْلُ أَبُو حَاتِمٍ: إِنَّهُ مِنْ دَبَّ. قَالَ النَّحَاسُ: وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُ اللُّغَةِ إِلَّا دَابَّ. وَالْقَوْلُ الْآخَرُ - إِنَّهُ حُرِّكَ لِأَن فِيهِ حَرْفًا مِنْ حُرُوفِ الْحَلْقِ؛ قَالَهُ الْفَرَاءُ، قَالَ: وَكَذَلِكَ كُلُّ حَرْفٍ فَتَحَ أَوَّلُهُ وَسَكَنَ ثَانِيهِ فَتَثْقِيلُهُ جَائِزٌ إِذَا كَانَ ثَانِيَهُ هَمْزَةً، أَوْ هَاءً، أَوْ عَيْنًا، أَوْ غَيْنًا، أَوْ حَاءً، أَوْ خَاءً؛ وَأَصْلُهُ الْعَادَةُ؛ قَالَ^(٢):

كَذَاكَ مِنْ أُمِّ الْخُوَيْرِثِ قَبْلَهَا

وَقَدْ مَضَى فِي «آلِ عِمْرَانَ»^(٣) الْقَوْلُ فِيهِ. ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ قِيلَ: لَثَلَا يَتَسَوَّسُ^(٤)، وَلِيَكُونَ أَبْقَى؛ وَهَكَذَا الْأَمْرُ فِي دِيَارِ مِصْرَ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أَيِ اسْتَخْرَجُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ أَمْرٌ، وَالْأَوَّلُ خَبَرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلُ أَيْضاً أَمْرًا، وَإِنْ كَانَ الْأَظْهَرُ مِنْهُ الْخَبَرُ؛ فَيَكُونُ مَعْنَى: «تَزْرَعُونَ» أَيِ أَزْرَعُوا.

الثانية - هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يُقَوِّتُ شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية؛ لينحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رَحِمَ بِهَا عِبَادَهُ، مِنْ غَيْرِ وَجُوبٍ عَلَيْهِ، وَلَا اسْتِحْقَاقٍ؛ هَذَا مَذْهَبُ كَافَةِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَجْمَعِينَ؛ وَبَسْطُهُ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ.

(١) اللَّفْطَانِ «دَابَّاً» بِتَحْرِيكِ الْهَمْزَةِ وَ «دَابَّاً» بِسُكُونِهَا وَهِيَ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ مِنَ السَّبْعَةِ كَمَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَطِيَّةٍ.

(٢) هُوَ أَمْرٌ الْقَيْسِ؛ وَتَمَامُ الْبَيْتِ:

وَجَارَتْهَا أُمُّ الرِّبَابِ بِمَأْسَلٍ

(٣) رَاجِعْ ٢٢/٤ فَمَا بَعْدَ. (٤) كَذَا فِي أَوْعٍ وَكَوَيْ.

[٤٨] ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ .

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني السنين المجذبات. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مجاز، والمعنى يأكل أهلهن. ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي ما ادخرتم لأجلهن؛ ونحوه قول القائل:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم

والنهار لا يسهو، والليل لا ينام؛ وإنما يسهى في النهار، ويُنَام في الليل. وحكى زيد بن أسلم عن أبيه: أن يوسف كان يضع طعام الاثنين فيقرّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه، حتى إذا كان يوم قرّبه له فأكله كله؛ فقال يوسف: هذا أول يوم من السبع الشداد. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء. ﴿مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ أي مما تحبسون لتزروا؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وقال أبو عبيدة: تحرزون. وقال قتادة: ﴿تُحْصِنُونَ﴾ تدخرون، والمعنى واحد؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة^(١).

الثانية - هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تُخْرِج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن؛ فكيف إذا كانت آية لنبي، ومعجزة لرسول، وتصديقاً لمصطفى للتبليغ، وحجة للواسطة بين الله - جل جلاله - و[بين]^(٢) عباده.

[٤٩] ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَقْعِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله. قال قتادة: زاده الله عِلْمَ سَنَةِ لَمْ يَسْأَلُوهُ

(١) هذا فيه نظر إن كان المراد الغلاء؛ لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «من احتكر حكرة يريد أن يغلي بها على المسلمين فهو خاطيء» وقد برئت منه ذمة الله ورسوله؛ رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة في روايات في النهي عن الاحتكار.

(٢) من ع.

عنها إظهاراً لفضله، وإعلاماً لمكانه من العلم وبمعرفته. ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غَوَتْ الرجل قال واغوثاه، والاسم الغوث والغوث والغوث، واستغاثني فلان فأغثته، والاسم الغياث، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. والغيث المطر؛ وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها؛ واث الله البلادَ يغيثها غيثاً، وغيث الأرضُ تُغاثُ غيثاً، فهي أرض مغيثة ومغيوثة؛ فمعنى ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يُمَطَّرُونَ. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعصرون الأعناب والدُّهن؛ ذكره البخاري. وروى حجاج عن ابن جريج قال: يعصرون العنب حمراً والسَّمسم دهنًا، والزيتون زيتاً. وقيل: أراد حلب الألبان لكثرتها؛ ويدل ذلك على كثرة النبات. وقيل: «يَعْصِرُونَ» أي يَنْجُونَ؛ وهو من العُصرة، وهي المنجاة. قال أبو عبيدة: والعَصْر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة، وكذلك العُصرة؛ قال أبو زيد^(١):

صَادِيًا يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةُ الْمَنْجُودِ

والمَنْجُود الفَزَع. واعتصرتُ بفلان وتَعَصَّرْتُ أي التجأت إليه. قال أبو الغوث: «يَعْصِرُونَ» يَسْتَغْلُونَ؛ وهو من عصر العنب. واعتصرت ماله أي استخرجته من يده. وقرأ عيسى «تُعَصِّرُونَ» بضم التاء وفتح الصاد، ومعناه: تُمَطَّرُونَ؛ من قول [الله]^(٢): ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾^(٣) وكذلك معنى «تُعَصِّرُونَ» بضم التاء وكسر الصاد، فيمن قرأه كذلك.

[٥٠] ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأْسُ النَّسْوَةِ

الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

[٥١] ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِنَّ دِرَادُثَنَ يَأْتِيكِ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ

قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الصَّادِقِينَ﴾.

(١) قاله في رثاء ابن أخته وكان مات عطشاً في طريق مكة.

(٢) من ع. (٣) راجع ١٦٩/١٩.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ﴾ أي فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: أتتوني به. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي يأمره بالخروج قال: ﴿أَزِجْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ﴾ أي حال النسوة. ﴿اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته [عند^(١)] الملك مما قُذِفَ به، وأنه حبس بلا جرم. وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم]^(٢) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم - قال - ولو لبثت في السجن ما لبث ثم جاءني الرسول أجب - ثم قرأ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرِجْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ - قال - ورحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد [إذ قال ﴿لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾]^(٣) فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ذروة من قومه». وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تَأْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعي ولم ألتمس العذر». وروي نحو هذا الحديث من طريق^(٣) عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، في كتاب التفسير من صحيح البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيره. وفي رواية الطبري «يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعاً أن كان لحليماً ذا أناة». وقال ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب»^(٤). قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً، وطلباً لبراءة الساحة؛ وذلك أنه

(١) من ع. وفي أولك وى: للملك.

(٢) الزيادة عن صحيح الترمذي.

(٣) كذا في ع وك وى.

(٤) الحديث في تفسير الطبري يختلف في اللفظ عما هنا.

- فيما روي - خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً فيراه الناس بتلك العين أبدأ ويقولون: هذا الذي راود امرأة موله؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته، ويحقق منزلته من العقّة والخير؛ وحينئذٍ يخرج للأخطاء والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول: أرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري هل سجدت بحق أو بظلم؛ ونكّب عن امرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لذيّام الملك العزيز له. فإن قيل: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي، له جهة أيضاً من الجودة؛ يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرّضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما نتج له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام آمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلّد.

قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حُسن عشرة وأدب؛ وفي الكلام محذوف، أي فاسأله أن يتعرّف ما بال النسوة. قال ابن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز - وكان قد مات العزيز - فدعاهنّ فـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي ما شأنكن. ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف في حق نفسها، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهنّ. ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي زنى. ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت

هي أيضاً؛ وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف. و ﴿حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي تبيين وظهر؛ وأصله حَصَصَ، فقليل: حَصَّصَ؛ كما قال: كُتِبُوا في كُيُوبِ، وكفكف في كفف؛ قاله الزجاج وغيره. وأصل الحَصَّ أَسْتَصَالَ الشيء؛ يقال: حَصَّ شعره إذا أَسْتَصَلَهُ جَزْأً؛ قال أبو القيس بن الأسلت:

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعٍ^(١)
وَسَنَّةُ حَصَاءٍ أَي جَرْدَاءٍ لَا خَيْرَ فِيهَا، قَالَ جَرِير:

يَأْوِي إِلَيْكُمْ بَلًا مِّنْ وَلَا جَعْدٍ مِّنْ سَاوَةِ السَّنَةِ الْحَصَاءُ وَالذَّيْبُ

كأنه أراد أن يقول: والضَّيْع، وهي السنة المجدبة؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية؛ فمعنى ﴿حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي أُنْقَطِعَ عن الباطل بظهوره وثباته^(٢)؛ قال:

أَلَا مُبْلِغٌ عَنِّي خِدَاشًا فَإِنَّهُ كَذُوبٌ إِذَا مَا حَصَّصَ الْحَقُّ الظَّالِمُ

وقيل: هو مشتق من الحِصَّة؛ فالمعنى: بانت حِصَّةُ الحق من حِصَّةِ الباطل. وقال مجاهد وقتادة: وأصله مأخوذ من قولهم؛ حَصَّ شَعْرُهُ إِذَا اسْتَأْصَلَ قِطْعَهُ؛ ومنه الحِصَّةُ^(٣) من الأرض إذا قطعت منها. والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري. ﴿أَنَا رَأَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا القول منها - وإن لم يكن سأل عنه - إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفساً ظناً، ولا يخالطها شك. وشددت النون في «خَطْبُكُنَّ» و «رَأَوْدَتُنَّ» لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر.

[٥٢] ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

[٥٣] ﴿وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِنْ أَنَفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾.

(١) البيضة: الخوذة؛ والتهجاع: التومة الخفيفة.

(٢) في ع: بيانه. (٣) في ع: في.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ اختلف فيمن قاله، فقيل: هو من قول امرأة العزيز، وهو متصل بقولها: ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي أقررت بالصدق ليعلم أنني لم أخنه بالغيب^(١) أي بالكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وحدثت^(٢) عن الخيانة؛ ثم قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ بل أنا راودته؛ وعلى هذا هي كانت مقررة بالصانع، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقيل: هو من قول يوسف؛ أي قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلته، من رد الرسول «لِيَعْلَمَ» العزيز «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» قاله الحسن وقتادة وغيرهما. ومعنى «بالغيب» وهو غائب. وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك، وقال: «لِيَعْلَمَ» على الغائب توقيراً للملك. وقيل: قاله إذ عاد إليه الرسول وهو في السجن بعد؛ قال ابن عباس: جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه؛ فقال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لم أخن سيدي بالغيب؛ فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف! ولا حين حَلَلْتَ الإِزار، وجلست مجلس الرجل من المرأة؟! فقال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ الآية. وقال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حَلَلْتَ سراويلك يا يوسف؟! فقال يوسف: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي». وقيل: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ» من قول العزيز؛ أي ذلك ليعلم يوسف أنني لم أخنه بالغيب، وأنني لم أغفل عن مجازاته على أمانته. «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» معناه: أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ قيل: هو من قول المرأة. وقال القشيري: فالظاهر أن قوله: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ» وقوله: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» من قول يوسف.

قلت: إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرئ يوسف من حل الإِزار والسراويل؛ وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدمناه من القول المختار في قوله: «وَهَمَّ بِهَا». قال أبو بكر الأنباري: من الناس من يقول: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» إلى قوله: «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» من كلام امرأة العزيز؛

(١) من ع.

(٢) في ع: خرجت.

لأنه متصل بقولها: «أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» وهذا مذهب الذين ينفون الهَمَّ عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال: من قوله: «قَالَتْ أَمْرَأَةُ الْعَزِيزِ» إلى قوله: «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» كلام متصل ببعضه ببعض، ولا يكون فيه وقف تام على حقيقة؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه. وقال الحسن: لما قال يوسف «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال: «وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي» لأن^(١) تزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى: «فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ»^(٢) وقد بيناه في «النساء»^(٣). وقيل: هو من قول العزيز؛ أي وما أبريء نفسي من سوء الظن بيوسف. «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» أي مشتهية له. «إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» في موضع نصب بالاستثناء؛ و«ما» بمعنى مَنْ؛ أي إلا من رحم ربي فعصمه؛ و«ما» بمعنى من كثير؛ قال الله تعالى: «فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ»^(٤) وهو استثناء منقطع، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأماراة بالسوء؛ وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية» قالوا: يا رسول الله! هذا شر صاحب في الأرض. قال: «فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم».

[٥٤] ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ لما ثبت للملك براءته مما نُسب إليه؛ وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجلده عظمت منزلته عنده، وتيقن حسن خلاله قال: «أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» فانظر إلى قول الملك أولاً - حين تحقق علمه - «أَتُؤْتُونِي بِهِ» فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً^(٤) قال: «أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» ورؤي عن وهب بن منبه قال: لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال: حسبي ربي من خلقه،

(١) من ع. (٢) راجع ١١٠/١٧.

(٣) راجع ٢٤٦/٥ فما بعد وص ١٢.

(٤) في ع و و وى: قال ثانياً.

عزّ جاره وجلّ ثناؤه ولا إله غيره. ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجداً؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ». «قَالَ» له يوسف: «أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ» للخزائن «عَلِيمٌ» بوجوه تصرفاتها. وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن. وفي الخبر: «يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل أجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخر ذلك سنة». وقيل: إنما تأخر تملكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عمّي إسماعيل، ثم دعا [له]^(١) بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما [تكلم الملك]^(٢) بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيت سبع بقرات سمانٍ شُهْباً غُراً حساناً، كشف لك عنهن النّيل فطلعن عليك من شاطئه تشخّب^(٣) أخلافها لبناً؛ فبينما أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَبَ النّيل فغار ماؤه، وبدا أُسُهُ^(٤)، فخرج من حَمَمِهِ وَوَحَلَهُ سبع بقرات عجاف شُعْتُ غُبُرٍ مُقْلَصَاتِ البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، لهنّ أنياب وأضراس، وأكف كأ كف الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع، فاختلفن بالسّمان فافترسنهنّ أفتراس السّباع، فأكلن لحومهنّ، ومزقن جلودهنّ، وحطّمن عظامهنّ، ومشمشن مخهنّ، فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل! ثم لم يظهر منهنّ سَمَنٌ ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماءً، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك: أي شيء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهنّ

(١) من ع وى.

(٢) من ع.

(٣) تشخب: تسيل. (٤) في ع وى: يسه.

في الماء، إذ هبت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن؛ فصرن سوداً مغبرات؛ فانتبهت مذعوراً أيها الملك؛ فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجيباً بأعجب مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي^(١) أيها الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مدرّ لتبت، وأظهر الله فيه التواء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه وسنبله تبني له المخازن العظام^(٢)؛ فيكون القصب والسنبيل علفاً للدواب، وحب للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أمراك^(٣) الخمس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك؛ فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء؛ فقال يوسف عليه السلام [عند ذلك]^(٤): ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي على خزائن أرضك؛ وهي جمع خزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، كقول النابغة:

لَهُمْ شِمَّةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ مِنْ الْجُودِ وَالْأَخْلَامِ غَيْرُكَوَاذِبٍ

قوله تعالى: ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدل على أن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ جرى في السجن. ويحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر: «أثبوني به» تأكيداً «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» أي أجعله خالصاً لنفسي، أفوض إليه أمر مملكتي؛ فذهبوا فجاءوا به؛ ودل على هذا ﴿فَلَمَّا كَلَمَهُ﴾ أي كلم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ فـ ﴿قَالَ﴾ الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي متمكن نافذ القول، «أمين» لا تخاف غدرأ.

[٥٥] ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) في ع: فما ترى في هذه الرؤيا. (٢) في ع: العظام.

(٣) كذا في ع و ي و ك: هو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان. وهي مخازن الحبوب اليوم. وفي أ و ح: أمراك. (٤) من ع و ي.

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي على حفظها، فحذف المضاف. ﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾ لما وُلِّيت ﴿عَلَيْمٌ﴾ بأمره. وفي التفسير: إِنِّي حاسب كاتب؛ وأنه أول من كتب في القراطيس. وقيل: ﴿حَفِيزٌ﴾ لتقدير الأقوات ﴿عَلَيْمٌ﴾ بسني المجاعات. قال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل أجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخر ذلك عنه سنة». قال ابن عباس: لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه ورداه^(١) بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب، مكللاً بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مِرْفَقة^(٢)، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه. قال ابن زيد: كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلم سلطانه كله إليه، وهلك قطفير تلك الليالي، فزوج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدین؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني؛ فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي. فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف. وقال وهب بن منبه: إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاءً على يوسف، فصارت تتكفف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها،

(١) رداه بسيفه: قلده به.

(٢) المرفقة (بالكسر): المتكا والمخدة.

وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه، ف قيل لها: لو تعرّضت له لعله يسفك بشيء؛ ثم قيل لها: لا تفعلين، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت: أنا أعلم بخُلُق حبيبي منكم، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه، [قامت]^(١) فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها؛ فقالت: أنا التي كنت أخدمك^(٢) على صدور قدمي، وأرجل جُمَّتِكَ بيدي، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعُتوّي فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعض ركني، وطال ذلّي، وعَمِيَ بصري، وبعد ما كنت مغبوبة أهل مصر صرت مرحومتهم، أتكفّف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين؛ فبكى يوسف بكاءً شديداً، ثم قال لها: هل بقيت تجددين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إليّ من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك، فناولها فوضعتة على صدرها، فوجد للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولاً: إن كنتِ أيّماً تزوّجناك، وإن كنتِ ذات بعل أغنيّاك، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك؛ لم يُرْذني أيام شبابي وغناي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقاتلتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرّضت له، فقال لها: ألم يبلّغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت، ثم زُفّت إليه، فقام يوسف يصلي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراماً ليوسف عليه السلام لما عَفَّ عن مخارم الله، فأصابها فإذا هي عذراء، فسألها؛ فقالت: يا نبيّ الله إن زوجي كان عتيّلاً لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا في خَفْض^(٣) عيش، في كل يوم يجدّد الله لهما خيراً، وولدت له ولدين؛ إفرائيم ومنشا. وفيما روي

(١) من ع، ك، ي. (٢) في ع: أقدمك على صدور قومي.

(٣) خفض عيش: في سعة وراحة.

أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أول مرة؟ فقالت [له]^(١): لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء.

الثانية - قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم. قال الماوردي: فإن كان المولّي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما - جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلّي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره. الثاني - أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولّي الظالمين بالمعونة لهم، وتركيتهم بتقلد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما - أن فرعون يوسف كان صالحاً، وإنما الطاغى فرعون موسى. الثاني - أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدها - ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثاني - ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مَصْرِفِهِ كأموال الفيء، فلا يجوز تولّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث - ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللإجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلّول، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضيين، وتوسطاً بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

الثالثة - ودلت الآية أيضاً على جواز أن يخاطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سُمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها». وعن أبي بُرْدة قال: قال أبو موسى: أقبلت إلى النبي ﷺ ومعني رجلان من الأشعرين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك، فقال: «ما تقول يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس -» قال قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت^(١)، فقال: «لن - أو - لا نستعمل على عملنا من أراده» وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضاً وغيره؛ فالجواب: أولاً - أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولّاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة» [وأيضاً]^(٢) فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: «وكل إليها» ومن أبأها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرَّ منها، ثم إن أبتلي بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: «أعِينَ عليها». الثاني - أنه لم يقل: إني حبيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم]^(٣) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم» ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: «إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ» فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث - إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى

(١) قلصت: أنقبضت وأنزوت.

(٢) من ع.

(٣) من ع وى.

من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. الرابع - أنه رأى ذلك فرضاً متعيناً عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم. [الرابعة]^(١) ودلت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما أقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومראה، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعت الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله.

[٥٦] ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[٥٧] ﴿وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب الملك، وإنجائه من السجن مكننا له في الأرض؛ [أي]^(١) أقدرناه على ما يريد. وقال الكيا الطبري قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَخْذُ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْتِ﴾^(٢) وحديث أبي سعيد الخدري في عامل خير، والذي آذاه من الثمر إلى رسول الله ﷺ، وما قاله^(٣).

قلت: وهذا مردود على ما يأتي. يقال: مكَّناه ومكَّنَّا له، قال الله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾^(٤). قال الطبري: استخلف الملك الأكبر الوليد بن الريان يوسف على عمل إطفير وعزله؛ قال مجاهد: وأسلم على يديه. قال ابن عباس: ملكه بعد سنة

(١) من ع، ك، ي. (٢) راجع ٢١٢/١٥.

(٣) الحديث: هو أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خير، فجاءه بتمر جنيب، وهو نوع جيد من أنواع التمر؛ فقال له رسول الله ﷺ: «كل تمر خير هكذا» فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لناخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة، فقال: «لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيهاً» (البخاري).

(٤) راجع ٣٩١/٦.

ونصف. وروى مقاتل أن النبي ﷺ قال: «لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله لَمُلِّك في وقته». ثم مات إطفير فزوجه الوليد بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفرائيم ومنشا، أبن يوسف، ومن زعم أنها زليخاء قال: لم يتزوجها يوسف، وأنها لما رآته في موكبه بكت، ثم قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بالمعصية، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكاً، فضمها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوجها؛ ذكره الماوردي؛ وهو خلاف ما تقدم عن وهب، وذكره الثعلبي؛ فالحق أعلم. ولما فوض الملك أمر مصر إلى يوسف تَلَطَّف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل، فأحبته الرجال والنساء، قال وهب والسُّدي وابن عباس وغيرهم: ثم دخلت السنون المخصبة، فأمر يوسف بإصلاح المزارع، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة، فلما أدركت الغلَّة أمر بها فجمعت، ثم بني لها الأهرام، فجمعت فيها في تلك السنة غلَّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غلَّة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المعجدة نزل جبريل وقال: يا أهل مصر جوعوا؛ فإن الله سلَّط عليكم الجوع سبع سنين. وقال بعض أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان: إحداهما - أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية. والثانية - أن يفقد الطعام فلا يوجد رأساً ويعزّز إلى الغاية، فأجتمعت هاتان علامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع!! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي الجوع الجوع!! قال: فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك، ثم أصبح فنأى يوسف في أرض مصر كلها؛ معاشر الناس! لا يزرع أحد زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف؛ قال ابن عباس: لما كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف! الجوع الجوع!! فقال يوسف: هذا أوان القحط؛ فلما دخلت أوّل سنة من سنّي القحط هلك فيها كل شيء أعدّوه في السنين

المخَصَّبة، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف؛ فباعهم أوّل سنة بالنقود، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه؛ وباعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب، حتى أحتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى أحتوى على الكل؛ وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضياع، حتى ملكها كلها؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعاً وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق [في] السنة^(١) [السابعة] بمصر حر ولا عبد إلا صار عبداً له؛ فقال الناس: والله ما رأينا ملكاً أجَلَ ولا أعظم من هذا؛ فقال يوسف لملك مصر كيف رأيت صنع ربي فيما خَوَّلني! والآن كل هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت، وإنما نحن لك تبع؛ وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض ممالكك، وخَوَّل من خَوَّلك؛ فقال يوسف عليه السلام: إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم، ولم أُجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء؛ وإني أشهد الله وأشهدك أنني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بستي. ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين، فقيل له: أنجوع ويبدك خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف إن شبع أن أنسى الجائع؛ وأمر يوسف طبّاخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار، حتى يذوق الملك طعام الجوع، فلا ينسى الجائعين؛ فمن ثَمَّ جعل الملوك غذاءهم نصف النهار.

قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ أي بإحساننا؛ والرحمة النعمة والإحسان. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ثوابهم. وقال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين؛ لصبره في الحبّ، وفي الرقّ، وفي السّجن، وصبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة. وقال الماوردي: وأختلف فيما أوتيّه يوسف من هذه الحال على قولين: أحدهما - أنه ثواب من الله تعالى على ما أبلاه. الثاني - أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلاً منه عليه، وثوابه باقي على حاله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ حَظِيرٌ﴾ أي ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متق؛ وأنشدوا:

أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ يُوسُفُ أَسْوَةٌ لِمِثْلِكَ مَجْبُوسًا عَلَى الظُّلْمِ وَالْإِفْكِ
أَقَامَ جَمِيلَ الصَّبْرِ فِي الْحَبْسِ بُرْهَةً فَآلَ بِهِ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ إِلَى الْمُلْكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مَضِيْقِ الْخَوْفِ مُنْسَعِ الْأَمْنِ وَأَوَّلِ مَفْرُوحٍ بِهِ آخِرُ الْحَزَنِ
فَلَا تَيْسَسُنْ فَاللَّهُ مَلِكٌ يَوْسُفًا خَزَائِنُهُ بَعْدَ الْخِلَاصِ مِنَ السُّجْنِ

وأنشد بعضهم:

إِذَا الْحَادِثَاتُ بَلَغْنَ الثُّمَى وَكَادَتْ تَذُوبُ لَهُنَّ الْمُهَجُ
وَحُلَّ الْبَلَاءُ وَقَلَّ الْعَزَاءُ فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَكُونُ الْقَرْجُ

والشعر في هذا المعنى كثير.

[٥٨] ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أي جاءوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز. قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميمرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس للناس^(١) عند البيع بنفسه، فيعطيه من الطعام على عدد رءوسهم، لكل رأس وسقاً^(٢). ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لأنهم خلفوه صبياً، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة، مع طول المدة؛ وهي أربعون سنة. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر. وقيل: رأوه لابس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزياً بزيتي فرعون مصر؛ ويوسف

(١) من عوك وروى.

(٢) الوسق ستون صاعاً والأصل في الوسق الحمل.

وأهم على ما كان عهدهم في الملابس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه .
وقيل : أنكروه لأمر خارق أمتحانا أمتحن الله به يعقوب .

[٥٩] ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْأَتَرُونَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ .

[٦٠] ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ .

[٦١] ﴿قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ آبَاؤُنَا وَلَنَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ يقال : جَهَّزْتُ القومَ تَجْهِيْزاً أي تكلفت لهم بجهازهم للسفر؛ وجهاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج؛ وجوز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم؛ والجهاز في هذه الآية الطعام الذي أمتاروه من عنده . قال السُّدِّيُّ : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيراً، وهم عشرة، فقالوا ليوسف : إِنَّ لَنَا أَخَا تَخَلَّفَ عَنَّا، وبعيره معنا؛ فسألهم لِمَ تخلف؟ فقالوا : لحب أبيه إياه، وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه فخرج إلى البرية فهلك؛ فقال لهم : أردت أن أرى أخاكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم وجه محبة أبيكم إياه، وأعلم صدقكم؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة، حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال ابن عباس : قال [يوسف] ^(١) للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا، وزيتكم مخالف لزيتنا، فلعلكم جواسيس؛ فقالوا : والله ما نحن بجواسيس، بل نحن بَنُو أَبٍ واحد، فهو شيخ صديق؛ قال : فكم عدتكم؟ قالوا : كنا أنثي عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها؛ قال : فأين الآخر؟ قالوا : عند أبينا؛ قال : فمن يعلم صدقكم؟ قالوا : لا يعرفنا ها هنا أحد، وقد عرفناك أنسابنا، فبأي شيء تسكن نفسك إلينا؟ فقال يوسف : ﴿أَتَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ إن كنتم صادقين؛ فأنا أرضى بذلك ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي أتمته ولا أبخسه، وأزيدكم حمل بغير لأخيكم ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي﴾ توعدهم ألا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما - أنه رخص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل . والثاني - أنه كال لهم بمكيال وافٍ . ﴿وَأَنَا خَيْرُ

الْمُنْزِلِينَ ﴿ فِيهِ وَجْهَانِ: أحدهما - أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد. الثاني - وهو محتمل؛ أي خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ من النُّزْل وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ أي فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد، لأنه قد وفّاهم كيلهم في هذه الحال. ﴿ وَلَا تَقْرُبُون ﴾ أي لا أنزلكم عندي منزلة القريب، ولم يرد أنهم يبعدون^(١) منه ولا يعودون إليه؛ لأنه على العود حتّهم. قال السدي: وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكلبي: إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الحبّ أجملهم قولاً، وأحسنهم رأياً. و ﴿ تَقْرُبُون ﴾ في موضع جزم بالنهي، فلذلك حذفت منه [النون وحذفت]^(٢) الياء؛ لأنه رأس آية؛ ولو كان خبراً لكان «تقربون» بفتح النون.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَرَّأَوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنطلبه منه، ونسأله أن يرسله معنا. ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي لضامنون المجيء به، ومحتالون في ذلك.

مسألة - إن قيل: كيف أستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له: عن هذا أربعة أجوبة: أحدها - يجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أمره بذلك ابتلاء ليعقوب، ليعظم له الثواب؛ فاتبع أمره فيه. الثاني - يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام. الثالث - لتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه. الرابع - ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منه إليه؛ والأوّل أظهر، والله أعلم.

[٦٢] ﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم؛ وهي اختيار أبي حاتم والنحاس وغيرهما. وقرأ سائر الكوفيين «لِفَتْيَانِهِ» وهو اختيار أبي عبيد؛ وقال:

(١) في الأصول: يبعدوا، يعودوا. ولم يظهر وجه لحذف النون. (٢) من ع وك وو.

هو في مصحف عبد الله كذلك. قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان؛ مثل الصبيان والصبي قال النحاس: «لِفَتْيَانِهِ» مخالف للسواد الأعظم؛ لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضاً فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبه. وكان هؤلاء الفتية يسوّون جهازهم، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالهم. ويجوز أن يكونوا أحراراً^(١)، وكانوا أعواناً له، وبضاعتهم أثمان ما أشتروه من الطعام. وقيل: كانت دراهم ودنانير. وقال ابن عباس: النعال والأدم ومتاع المسافرين، ويسمى رَحْلاً؛ قال ابن الأنباري: يقال للوعاء رَحْل، وللبيت رَحْل. وقال: «لَعَلَّهُمْ يَغْرِفُونَهَا» لجواز ألا تسلم في الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بشمته^(٢). قيل: ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل: أستقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام. وقيل: ليروا فضله، ويرغبوا في الرجوع إليه.

[٦٣] ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ وَلِنَآلَهُ لِحَفِظُونَ﴾^(١٣).

[٦٤] ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهْ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١٤).

[٦٥] ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾^(١٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه، وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ﴾ أي قالوا عند ذلك:

(١) في ع: أجراء أو كانوا. وهو الحق.

(٢) في ع وك: بشمن.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ﴾ والأصل نكتال؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين. وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم «نَكْتَلْ» بالنون وقرأ سائر الكوفيين «يكتل» بالياء؛ والأول اختيار أبي عبيد، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده. قال النحاس: وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين؛ أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يكتل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع، لقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله سوء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا آمَنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه! ﴿قَالَ لَهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ نصب على البيان، وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين «حَافِظًا» على الحال. وقال الزجاج: على البيان؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم؛ ومعنى الآية: حفظ الله له خير من حفظكم إياه. قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب: ﴿قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لأردنّ عليك أبنيك كليهما بعد ما توكلت علي».

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل. ﴿مَا نَبْغِي﴾ «ما» استفهام في موضع نصب؛ والمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا؟! وفق لنا الكيل، ورد علينا الثمن؛ أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم. وقيل: هي نافية؛ أي لا نبغي منك دراهم ولا بضاعة، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي ردت إلينا. ورؤي عن علقمة «رِدَّتْ إِلَيْنَا» بكسر الراء؛ لأن الأصل رددت؛ فلما أدغم قلبت حركة الدال على الراء. وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب لهم الطعام؛ قال الشاعر:

بَعَثْتُكَ مَائِرًا فَمَكْنَتْ حَوْلًا مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مَن تَغِيثُ

وقرأ السلمي بضم النون، أي نعينهم على الميرة. ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي حمل بعير لبنيامين.

[٦٦] ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ تُؤْتُونَ ﴾ أي تعطوني . ﴿ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أي عهدا يوثق به . قال السدي : حلفوا بالله ليردنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام في ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد ؛ إلا أن تهلكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تغلبوا عليه . قال الزجاج : وهو في موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانية - هذه الآية أصل في جواز الحِمالة^(١) بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد اختلف العلماء في ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هي جائزة إذا كان المتحمل به مالا . وقد ضعف الشافعي الحِمالة بالوجه في المال ؛ وله قول كقول مالك . وقال عثمان البتي : إذا تكفل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وأرش الجراح ، وكانت له في مال الجاني ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحِمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك في ذلك ، وأنها تكون في المال ، ولا تكون في حد أو تعزير ، على ما يأتي بيانه .

[٦٧] ﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمَّكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

فيه سبع مسائل:

الأولى - لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد؛ وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة؛ قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم.

الثانية - إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العين، والعين حق؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتدخل القبر والجمال القدر». وفي تعوذه عليه السلام: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ما يدل على ذلك. وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباة يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخرار^(١) فترع جبة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كالיום ولا جلد عذراء! فوعك سهل مكانه واشتد وعكه، فأتي رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلاً وعك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله؛ فأثاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ: «علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت^(٢)» إن العين حق تؤضاً له، فتوضاً عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس؛ في رواية «أغتسل» فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجله وداخل إزاره في قح ثم صب عليه؛ فراح سهل مع رسول^(٣) الله ﷺ ليس به بأس. وركب سعد بن أبي وقاص يوماً فنظرت إليه امرأة فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له؛ ففي هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال [النبي] ﷺ^(٤)؛ وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل

(١) الخرار: ماء بالمدينة.

(٢) برّك: قال برك الله فيه؛ وهذا القول يبطل تأثير العين وسيأتي معناها.

(٣) في ع: مع الناس.

(٤) من ع.

أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهر أدخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١). قال الأصمعي: رأيت رجلاً عيونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شخبها فقال: أيتها هذه؟ فقالوا: الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها، فهلكنا جميعاً، المورى بها والمورى عنها. قال الأصمعي: وسمعت يقول: إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني.

الثالثة - واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر: «ألا بركت» فدلّ على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبرِّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الرابعة - العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا^(٢)؛ فإنه قد يخاف على المَعِين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

الخامسة - من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعاً لضرره؛ وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته؛ وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، ويكفّ أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه يُنفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به؛ ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته. فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادسة - روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال: دُخل على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضتهما: «مالي أراهما ضارِعِينَ»^(٣) فقالت حاضتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقِي لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) راجع ٥٥/٢. (٢) في ع و ك وى: هنا. (٣) الضارع: النحيف الضاوي الجسم.

لو سبق شيء القدر سبقتة العين». وهذا الحديث منقطع، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عميس الخثعمية عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرقي مما يستدفع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه، أي تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

السابعة - أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائني بالاغتسال للمعين، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا: إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائني؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من شيء أحذره عليكم؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ أي الأمر والقضاء. ﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي أعتمدت ووثقت. ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

[٦٨] ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْغُوبُ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٦٩] ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[٧٠] ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِزْرِ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي من أبواب شتى. ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم. ﴿إِلَّا حَاجَةٌ﴾ استثناء ليس من الأول. ﴿فِي نَفْسٍ يَعْغُوبُ قَضَاهَا﴾ أي خاطر خطر بقلبه؛ وهو وصيته أن يتفرقوا؛ قال مجاهد: خشية العين، وقد تقدم القول فيه. وقيل: لتلا يرى الملك عددهم وقوتهم

فيبطش بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال: ولا معنى للعين ها هنا. ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني يعقوب. ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي بأمر دينه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه. وقيل: ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ أي عمل؛ فإن العلم أول أسباب العمل، فسمى بما^(١) هو بسببه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال قتادة: ضمّه إليه، وأنزله معه. وقيل: أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبقي أخوه منفرداً فضمّه إليه وقال: أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سرّاً من إخوته: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبَشِّرْ﴾ أي لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِخْلِ أَخِيهِ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له: لا تردني إليهم، فقال: قد علمت اغتنام يعقوب بي فيزداد غمّه، فأبى بنيامين الخروج؛ فقال يوسف: لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك: فقال: لا أبالي! فدس الصاع في رحله إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصّه بذلك. والتّجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جَهَّزَ على الجريح أي قتله، ونَجَّزَ أمره. والسقاية والصّواع شيء واحد؛ إناء له رأسان في وسطه مَقْبُض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد:

نَشْرَبُ الْخَمْرَ بِالصَّوَاعِ جِهَاراً^(٢)

واختلف في جنسه؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس قال: كان صواع الملك شيء من فضة يشبه المَكْوُوك، من فضة مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس؛

(١) من ع. (٢) البيت تقدّم في ص ١٧٨ من هذا الجزء. برواية: نشرب الإثم.

وكان للعباس واحد في الجاهلية، وسأله نافع^(١) بن الأزرق ما الصواع؟ قال: الإناء؛ قال فيه الأعشى:

لَه دَرَمَلْكَ فِي رَأْسِهِ وَمَشَارِبٌ وَقِذْرٌ وَطَبَاحٌ وَصَاعٌ وَدَيْسَقُ^(٢)

وقال عكرمة؛ كان من فضة. وقال عبد الرحمن بن زيد: كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم. وقيل: إنما كان يكال به لعزة الطعام. والصاع يذكر ويؤنث؛ فمن أنه قال: أَصْوْعُ؛ مثل أذُور، ومن ذكره قال أَصْوَاعُ؛ مثل أثواب. وقال مجاهد وأبو صالح: الصاع الطَّرْجَهَالَة بلغة حُمير. وفيه قراءات: «صَوَاع» قراءة العامة؛ و«صُوعُ» بالعين المعجمة، وهي قراءة يحيى بن يَعْمُر؛ قال: وكان إناء أَصِيغ من ذهب. «وَصُوعُ» بالعين غير المعجمة قراءة أبي رجا. «وَصُوعُ» بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبي. «وَصِيَاعُ» بياء بين الصاد والألف؛ قراءة^(٣) سعيد بن جبير. «وصاع» بألف بين الصاد والعين؛ وهي قراءة أبي هريرة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذْنٌ مُؤَدَّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أي نادى مناد وأعلم. «وَأَذَنٌ» للتكثير؛ فكانه نادى مراراً «أَيُّهَا الْعَبْرُ». والعبر ما أمتير عليه من الحمير والأبل والبغال. قال مجاهد: كان عبرهم حميراً. قال أبو عبيدة: العبر الأبل المرحولة المركوبة؛ والمعنى: يا أصحاب العبر، كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ ويا خيل الله اركبي: أي يا أصحاب خيل الله، وسيأتي. وهنا اعتراضان: الأول - إن قيل: كيف رضي بنيامين بالقعود طوعاً وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم برّاء وهو - الثاني - فالجواب عن الأول: أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أولاً تراه لما فقدته قال: ﴿يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ﴾ ولم يعرج على بنيامين؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحى؛ فلا اعتراض. وأما نسبة

(١) كذا في أ و ع و ك و ي. ولعله الأشبه؛ وفي و: مالك.

(٢) الديسق: خوان من فضة. والبيت من قصيدة يمدح بها المخلوق مطلعها:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشوق

(٣) في ع: أبي جعفر. والذي في شواذ ابن خالويه: صواع سعيد بن جبير. بغين معجمة، وابن عطية.

يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب: أن القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فألقوه في الجب، ثم باعوه؛ فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم. جواب آخر - وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرَّاق؛ والمعنى؛ إن شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه. جواب آخر؛ وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع في رحله، ولا أخبره بنفسه. وقد قيل: إن معنى الكلام الاستفهام؛ أي أو إنكم لسارقون؟ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾^(١) أي أو تلك نعمة تمنها علي؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف ﷺ الكذب.

[٧١] ﴿قَالُوا أَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿٧١﴾.

[٧٢] ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿٧٢﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾. البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين. وقيل: إنه الحمار، وهي لغة لبعض العرب؛ قاله مجاهد وأختره. وقال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي قال: ﴿أَيُّهَا الْعِيرُ﴾. والزعيم والكفيل والحميل والضمين والقبيل سواء والزعيم الرئيس.

قال^(٢):

وَإِنِّي زَعِيمٌ إِنْ رَجَعْتُ مُمْلِكًا بِسَيْرٍ تَرَى مِنْهُ الْفَرَاقِ أَزَوْرًا
وقالت ليلي الأخيلية ترثي أخاها^(٣):

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ الْقَمِيسُ تَخَالُهُ يَوْمَ اللَّقَاءِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمًا

(١) راجع ٩٣/١٣. (٢) هو أمرى القيس. والفرائق: سبع يصيح بين يدي الأسد كأنه ينذر الناس به؛ وهو فارسي معرب. والأزور: المائل في شق؛ أي إن ملكني فيصر فإنني أسير سيراً شديداً يميل منه الفرائق من شدته بجانب. (٣) كذا في الأصل ولعله ترثي توبة. وفي صفته بخرق القميص أقوال: الأول - أن ذلك إشارة إلى جذب العفاة له. الثاني - أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها ويكتفي بمعاوزها. الثالث - أنه غليظ المنكب، وإذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قميصه. الرابع - أنه كثير الغزوات متصل في الأسفار، فقميصه منخرق لذلك.

حَتَّى إِذَا رَفَعَ اللَّوَاءَ رَأَيْتُهُ [تَحْتَ^(١) اللَّوَاءِ] عَلَى الْخَمِيسِ زَعِيمًا

الثانية - إن قيل: كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح؟ قيل له: حمل البعير كان معيناً معلوماً عندهم كالوَسْق؛ فصح ضمانه، غير أنه [كان]^(٢) بدل مالٍ للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصح في شرعهم أو كان هذا جعالة، وبذل مال لمن [كان]^(٢) يَفْتَش ويطلب.

الثالثة - قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان: أحدهما - جواز الجُعْل وقد أُجِيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره؛ فإذا قال الرجل: من فعل كذا فله كذا صح. وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوماً والآخر مجهولاً للضرورة إليه؛ بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدّر فيها العوض والمعوّض من الجهتين؛ وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المَجْعُول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضي بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المَجْعُول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجُعْل حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وبهذا كله قال الشافعي.

الرابعة - متى قال الإنسان، من جاء ببعدي الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبي ﷺ قال: «من جاء بآبق فله أربعون درهماً» ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد. قال ابن خُوَيْرٍ مَنُوداً ولهذا قال أصحابنا: إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصلحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

قلت: وخالفنا في هذا كله الشافعي.

(١) كذا في «أماشي القالي»، «الشعر والشعراء» و«الحماسة». وفي الأصول: يوم الهياج.

(٢) من ع.

الخامسة - الدليل الثاني - جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام ، قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حميل لك أو زعيم أو كفيل أو ضامن أو قبيل ، أو هو لك عندي أو عليّ أو إليّ أو قبلي فذلك كله حمالة لازمة ، وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ، هل يلزمه ضمان المال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات ؛ وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعي : إذا تكفل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شيء عليه من المال ؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطلب بمال ؛ فإذا ضمنه له ولم يأت به فكأنه فوّته عليه ، وعزه منه ؛ فلذلك لزمه المال . واحتج الطحاوي للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول [به] ^(١) فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة - واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما ؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب ؛ لأن التبديّة بالذي عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معدماً فإنه يؤخذ من الحميل ، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء . وقال ابن أبي ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه ما لا تحول على الكفيل وبرىء صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء ؛ واحتج ببراءة الميت من الدين بضمنان أبي قتادة ^(٢) ، وبنحوه قال أبو ثور .

(١) عن ع وى .

(٢) الحديث : روى سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ أتى بجنّاة فقال : «هل عليه من دين» قالوا : نعم ، قال : «هل ترك شيئاً» قالوا : لا ، قال : «صلوا على صاحبكم» قال أبو قتادة : صلّ عليه يا رسول الله وعليّ دينه ، فصلّى عليه .

السابعة - الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز^(١) النيابة فيها، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان ثابتاً مستقراً؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر؛ لأن العبد إن عجز رَقَّ وأنفسخت الكتابة، وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه، ويسجن المدعى عليه الحد، حتى ينظر في أمره.

وشدّ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص، وقالوا: إذا قال المقذوف أو المدعي القصاص بينتي حاضرة كفله ثلاثة أيام؛ واحتج لهم الطحاوي بما رواه حمزة بن عمرو عن عمر وابن مسعود وجريير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة.

[٧٣] ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.

[٧٤] ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾.

[٧٥] ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلماً، ولا يرعون زرع أحد، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكمة لئلا تعيث في زروع الناس. ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ يروى أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالهم؛ أي فمن رد ما وجد فكيف يكون سارقاً؟!

قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ المعنى: فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي يستعبد ويسترق. «فجَزَاؤُهُ» مبتدأ، و «مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ» خبره؛ والتقدير: جزاؤه استعباد من وجد في رحله؛ فهو كناية عن الاستعباد؛ وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه. وقولهم هذا قول من لم يشترب نفسه؛

لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ؛ قاله الحسن والسدي وغيرهما.

مسألة - قد تقدم في سورة «المائدة»^(١) أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدم من الشرائع، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق، والله أعلم.

[٧٦] ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأ يوسف برحالهم لنفي التهمة والريبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه. والوعاء يقال بضم الواو وكسرهما، لغتان؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ يعني بنيامين؛ أي أستخرج السقاية أو الصّواع عند من يؤث، وقال: «وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ» فذكر؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رؤوسهم، وظنوا الظنون كلها، وأقبلوا عليه وقالوا ويلك يا بنيامين! ما رأينا كالיום قط، ولدت أمك «راحيل» أخوين لصين! قال لهم أخوهم: والله ما سرقت، ولا علم لي بمن وضعه في متاعي. ويروى^(٢) أنهم قالوا له: يا بنيامين! أسرقت؟ قال: لا والله؛ قالوا: فمن جعل الصّواع في رحلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم. ويقال: إن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذلك؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصّواع حتى فرغ منهم، وأنهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا؛ ففتش فأخرج السقاية؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذن سرّهم برأيه؛ فيقال: إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوّي ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

(١) راجع ١٦٢/٦.

(٢) في ع: ويقال.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿كَذَبْنَا﴾ معناه صنعنا؛ عن ابن عباس. القُتَيْبِيُّ: دَبَرْنَا. ابن الأنباري: أردنا؛ قال الشاعر:

كَادَتْ وَكَدْتُ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا مَا قَدَمْصَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً، خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول، وخرمت التحليل.

الثانية - أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعي أنه لا يحل له التحيل ولا نقصان، ولا أن يفرق بين مجتمع، ولا أن يجمع بين متفرق. وقال مالك: إذا قُوت^(١) من ماله شيئاً ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند الحول، أخذاً منه بقوله عليه السلام: «خشية الصدقة». وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه^(٢) الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضره؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول، ولا يتوجه إليه معنى قوله: «خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ» إلا حينئذ. قال ابن العربي: سمعت أبا بكر محمد بن الوليد الفهري وغيره يقول: كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدَّمَغَانِي صاحب عشرات آلاف [دينار]^(٣) من المال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم: كَبُرَتْ سِنِّي، وضعفت قُوَّتِي، وهذا مال لا احتاجه فهو لكم، ثم يخرجهم فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دور بنيهم؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا! إنما أملنا حياتك، وأما المال فأَيُّ رغبة لنا فيه ما دمت حياً؛ أنت ومالك لنا، فخذهُ إليك، ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرق؛ وهذا خطب عظيم وقد صنف البخاري رضي الله عنه في جامعه كتاباً مقصوداً فقال: «كتاب الحيل».

(١) في ع: فرق. (٢) في ع: بتفويته. (٣) من ع وى.

قلت: وترجم فيه أبواباً منها: «باب الزكاة والآن يفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرّق خشية الصدقة». وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ نائراً الرأس. الحديث؛ وفي آخره: «أفلح إن صدق» أو «دخل الجنة إن صدّق». وقال بعض الناس: في عشرين ومائة بعير حِقَّتَان؛ فإن أهلكها متعمداً أو وهبها أو احتال فيها فراراً من الزكاة فلا شيء عليه؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان ويقول أنا كنزك» الحديث، قال المهلب: إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه؛ لأن النبي ﷺ لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قوله: «أفلح إن صدق» أن من رام أن ينقض شيئاً من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذره عند الله؛ وما أجازاه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفيراً لا يحتاج إليه، رغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين؛ فالوعيد متوجّه عليه؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأيّ وجه متعمداً^(١) كيف تطوّه الإبل، ويمثل له ماله شجاعاً أقرع! وهذا يدلّ على أن الفرار من الزكاة لا يحلّ، وهو مطالب بذلك في الآخرة.

الثالثة - قال ابن العربي: قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾. دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وهم عظيم؛ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ قيل فيه: كما مكّنّا ليوسف ملك نفسه عن امرأة العزيز مكّنّا له ملك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره. قال الشفعوي: ومثله قوله عز وجل: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَخَنْتْ﴾^(٢). وهذا ليس

(١) في ع وى: بأيّ وجه منعها.

(٢) راجع ٢١٢/١٥.

حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد. قال الشفعوي: ومثله حديث أبي سعيد الخدري في عامل خبير أنه أتى النبي ﷺ بتمر جَنِيب، الحديث؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعاً^(١) ويتاع جَنِيباً من الذي باع منه الجمع أو من غيره. وقالت المالكية: معناه من غيره؛ لئلا يكون جَنِيباً بجمع، والدراهم رباً؛ كما قال ابن عباس: جريرة بجريرة^(٢) والدراهم رباً.

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي سلطانه، عن ابن عباس. ابن عيسى: عاداته، أي يظلم بلا حجة. مجاهد: في حكمه؛ وهو استرقاق السراق. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية في رحله تَعْلَةً وعذراً له. وقال قتادة: بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين، ولكن شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل، على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي بالعلم والإيمان. وقرئ «نرفع درجات من نشاء» بمعنى: نرفع من نشاء درجات؛ وقد مضى في «الأنعام»^(٣) وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ روى إسرائيل عن سِمَاك عن عكرمة عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلم من ذا وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم. وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال: سبحان الله! وفوق كل ذي علم عليم؛ فقال ابن عباس: بشئ ما قلت؛ الله العليم وهو فوق كل عالم.

[٧٧] ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

[٧٨] ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

[٧٩] ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَوْتَ ﴿٧٩﴾﴾.

(١) الجمع: تمر مختلط من أنواع متفرقة، وليس مرغوباً فيه. (٢) كذا في الأصل وفي «أحكام القرآن لابن العربي» ولعل العبارة كما في ع: حريرة بالمهمله. (٣) راجع ٣٠/٧ فما بعدها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ المعنى: أي أقتدى بأخيه، ولو أقتدى بنا ما سرق؛ وإنما قالوا ذلك ليبرءوا من فعله، لأنه ليس من أمهم؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عِزُّ أخيه السَّارق؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق. وقد اختلفوا في السرقة التي نسبوا إلى يوسف؛ فروي عن مجاهد وغيره أن عمه يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب، وكانت صارت إليها مِنطقة إسحق لسنّها؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسّن، وهذا مما تُسَخِّح حكمه بشرعنا، وكان من سَرَقَ أَسْتُعِيدَ. وكانت عمه يوسف حَضَنَتْهُ وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب: سَلِّمِي يوسفَ إِلَيَّ، فلست أقدر أن يغيب عني ساعة؛ فولعت به، وأشفقت من فراقه؛ فقالت له: دعه عندي أياماً أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطقة إسحق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت مِنطقة إسحق، فانظروا مَنْ أَخَذَهَا وَمَنْ أَصَابَهَا؛ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوا؛ فوجدت مع يوسف. فقالت: إنه والله لي سلم أصنع فيه ما شئت؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك؛ فأمسكته حتى ماتت؛ فبذلك عيَّره إخوته في قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾. ومن ها هنا تعلَّم يوسف وضع السقاية في رحل أخيه كما عملت به عمته. وقال سعيد بن جبیر: إنما أمرته أن يسرق صنماً كان لجده أبي أمه، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر؛ فرموه بالسرقة وغيَّروه بها؛ وقاله قتادة. وفي كتاب الزجاج: أنه كان صنم ذهب. وقال عطية العوفي: إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق^(١) فخبأه فغيَّروه بذلك. وقيل: إنه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين؛ حكاه ابن عيسى. وقيل: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه؛ قاله الحسن.

قوله تعالى: ﴿فَاسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي أسر في نفسه قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قاله ابن شجرة وابن عيسى. وقيل: إنه أسر في نفسه قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ ثم جهر فقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ.

[قاله ابن عباس، أي أنتم شر مكاناً ممن نسبتموه إلى هذه السرقة. ومعنى قوله: «والله أعلم بما تصفون»^(١) أي الله أعلم أن ما قلتم كذب، وإن كانت لله رضا. وقد قيل: إن إخوة يوسف في ذلك الوقت ما كانوا أنبياء.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان في تلك اللحظة بعزل الأول^(٢) أو موته. وقولهم: ﴿إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي كبير القدر، ولم يريدوا كبر السن؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي عبداً بذكاه؛ وقد قيل: إن هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقه؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: أقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ في أستزاله. ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ حقيقة؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء^(٣) أن يروا استرقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة؛ أي خذ أحداً مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه؛ ويعرف يعقوب جلية الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة في الحدود ونحوها - بمعنى إحضار المضمون فقط - جائزة مع التراضي، غير لازمة إذا أبى الطالب؛ وأما الحمالة في مثل هذا على أن يلزم الحمل ما كان يلزم المضمون من عقوبة، فلا يجوز إجماعاً. وفي «الواضحة»: إن الحمالة في الوجه فقط في [جميع]^(٤) الحدود جائزة، إلا في النفس. وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة في النفس. وأختلف فيها عن الشافعي؛ فمرة ضعفها، ومرة أجازها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ وهذا تأويل ابن إسحق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مصدر. ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ في موضع نصب؛ أي من أن نأخذ. ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا﴾ في موضع نصب بـ «نأخذ». ﴿مَتَاعًا عِنْدَهُ﴾ أي معاذ الله أن نأخذ البريء، بالمجرم، ونخالف ما تعاقدا عليه. ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلُمُونَ﴾ أي أن نأخذ غيره.

(١) من ع. (٢) هو قطفير.

(٣) قد مضى أنهم ليسوا بأنبياء على الصحيح. (٤) من ع.

[٨٠] ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَخُفَّكَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ ﴾ أي يَسُوا؛ مثل عَجِبَ وَاسْتَعْجَبَ، وَسَخِرَ وَاسْتَسَخَرَ. ﴿ خَلَصُوا ﴾ أي أنفردوا وليس هو معهم. ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المضمَر في «خَلَصُوا» وهو واحد يؤدي عن جمع، كما في هذه الآية؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾^(١) وجمعه أَنْجِيَّة؛ قال الشاعر^(٢):

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَّةً وَأَضْطَرَبَ الْقَوْمُ أَضْطَرَابَ الْأَرْشِيَّةِ
هُنَاكَ أَوْصِيَنِي وَلَا تُوصِي بِيَّةً

وقرأ ابن كثير: «أَسْتَائِسُّوا» «وَلَا تَائِسُّوا» «إِنَّهُ لَا يَأْسُ» «أَفَلَمْ يَأْسَ» بألف من غير همز على القلب؛ قَدِّمَتِ الهمزة وأَخَّرَتِ الياء، ثم قلبت الهمزة ألفاً لأنها ساكنة قبلها فتحة؛ والأصل قراءة الجماعة؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء - يأساً - والإيَّاس ليس بمصدر أَيْسَ؛ بل هو مصدر أُسْتُهُ أَوْسًا وَإِيَّاسًا أي أعطيته. وقال قوم: أَيْسَ وَيَسَّ لغتان؛ أي فلما يَسُوا من ردِّ أخيه إلهيهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس، يتناجون فيما عَرَضَ لهم. والتَّجِيَّ فعيل بمعنى المناجى.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قتادة: هو روبيل، كان أكبرهم في السن. مجاهد: هو شمعون، كان أكبرهم في الرأي. وقال الكلبي: يهوذا؛ وكان أعقلهم. وقال محمد بن كعب وابن إسحق: هو لَؤْي، وهو أبو الأنبياء. ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

(١) راجع ١١/١١٣.

(٢) هو سحيم بن وثيل اليربوعي يصف قوماً أتعبهم السير والسفر فرقدوا على ركايبهم واضطربوا عليها، وشدَّ بعضهم على ناقته حذار سقوطه. وقيل: إنما ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم. والأرشيَّة الجبال التي يستقى بها، والمواد أنه ثابت الجأش. و (أوصيني ولا توصي) بالياء لأنه يخاطب مؤنثاً.

مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴿١﴾ أَي عَهْدًا مِنَ اللَّهِ فِي حِفْظِ ابْنِهِ، وَرَدَّهُ إِلَيْهِ. ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ «مَا» فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عِطْفًا عَلَى «أَنْ» وَالْمَعْنَى: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ، وَتَعْلَمُوا تَفْرِيطَكُمْ فِي يُوسُفَ؛ ذَكَرَهُ النَّحَاسُ وَغَيْرُهُ. وَ«مِنْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِ«تَعْلَمُوا». وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» زَائِدَةً؛ فَيَتَعَلَّقُ الظَّرْفَانِ اللَّذَانِ هُمَا «مِنْ قَبْلُ» وَ«فِي يُوسُفَ» بِالْفِعْلِ وَهُوَ «فَرَّطْتُمْ». وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» وَالْفِعْلُ مُصَدَّرًا، وَ«مِنْ قَبْلُ» مُتَعَلِّقًا بِفِعْلِ مُضْمَرٍ؛ التَّقْدِيرُ: تَفْرِيطَكُمْ فِي يُوسُفَ وَاقِعٌ مِنْ قَبْلُ؛ فَمَا وَالْفِعْلُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ هُوَ الْفِعْلُ الْمُضْمَرُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ «مِنْ قَبْلُ». ﴿فَلَنْ أُنَبِّئَكَ الْأَرْضَ﴾ ^(١) أَي أَلْزَمَهَا، وَلَا أُبْرِحُ مَقِيمًا فِيهَا؛ يُقَالُ: بَرِحَ بَرَّاحًا وَبُرُوحًا أَي زَالَ، فَإِذَا دَخَلَ النَّفْيُ صَارَ مُثْبِتًا. ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بِالرَّجُوعِ فَإِنِّي أَسْتَحِي مِنْهُ. ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بِالْمَرَّةِ مَعَ أَخِي فَأَمْضِي مَعَهُ إِلَى أَبِي. وَقِيلَ: الْمَعْنَى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي بِالسَّيْفِ فَأُحَارِبُ وَأَخَذَ أَخِي، أَوْ أَعْجَزُ فَأَنْصَرِفُ بَعْدَ، وَذَلِكَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ: ﴿لَتَأْتِيَني بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ وَمَنْ حَارِبٌ وَعَجَزَ فَقَدْ أَحِيطَ بِهِ؛ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ يَهُودَا إِذَا غَضِبَ وَأَخَذَ السَّيْفَ فَلَا يَرُدُّ وَجْهَهُ مَائَةَ أَلْفٍ؛ يَقُومُ شَعْرُهُ فِي صَدْرِهِ مِثْلَ الْمَسَالِّ فَتَنْفِذُ مِنْ ثِيَابِهِ. وَجَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ يَهُودَا قَالَ لِأَخَوْتِهِ - وَكَانَ أَشَدَّهُمْ غَضَبًا -: إِمَّا أَنْ تَكْفُونِي الْمَلِكُ وَمِنْ مَعَهُ أَكْفَكُمْ أَهْلُ مِصْرَ؛ وَإِمَّا أَنْ تَكْفُونِي أَهْلُ مِصْرَ أَكْفَكُمْ الْمَلِكُ وَمِنْ مَعَهُ؛ قَالُوا: بَلْ أَكْفَنَا الْمَلِكُ وَمِنْ مَعَهُ نَكْفِيكَ أَهْلُ مِصْرَ؛ فَبَعَثَ وَاحِدًا مِنْ إِخْوَتِهِ فَعَدَّوْا أَسْوَاقَ مِصْرَ فَوَجَدُوا فِيهَا تِسْعَةَ أَسْوَاقٍ، فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَوْقًا؛ ثُمَّ إِنَّ يَهُودَا دَخَلَ عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! لَئِنْ لَمْ تَخْلُِّ مَعَنَا أَخَانَا لِأَصِيحْنَ صَيِّحَةً لَا تَبْقَى فِي مَدِينَتِكَ حَامِلًا إِلَّا أَسْقَطْتَ مَا فِي بَطْنِهَا؛ وَكَانَ ذَلِكَ خَاصَّةً فِيهِمْ عِنْدَ الْغَضَبِ؛ فَأَغْضَبَهُ يُوسُفَ وَأَسْمَعَهُ كَلِمَةً، فَغَضِبَ يَهُودَا وَأَشْتَدَّ غَضَبُهُ، وَأَنْتَفَجَتْ ^(٢) شَعْرَاتُهُ؛ وَكَذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي يَعْقُوبَ؛ كَانَ إِذَا غَضِبَ، أَقْشَعَرَ جِلْدُهُ، وَأَنْتَفَخَ جَسَدُهُ، وَظَهَرَتْ شَعْرَاتُ ظَهْرِهِ مِنْ تَحْتِ الثَّوبِ، حَتَّى تَقْطُرَ مِنْ كُلِّ شَعْرَةٍ قَطْرَةٌ دَمٍ؛ وَإِذَا ضَرَبَ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ تَزَلْزَلَتْ وَتَهْدَمُ الْبَنِيَانُ، وَإِنْ صَاحَ صَيِّحَةً لَمْ تَسْمَعْهُ حَامِلٌ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَهَائِمِ

(١) فِي ي: أَي مِنَ الْأَرْضِ.

(٢) نَفَجَتْ: ثَارَتْ بِقُوَّةٍ.

والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماماً أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دمًا، أو تمسكه يَدٌ من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كَلَمٌ ولدًا له صغيراً بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه^(١) وألقى السيف فالتفت يميناً وشمالاً لعله يرى أحداً من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعاً إلى إخوته وقال: هل حضرني منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رءوس كل من فيه؛ قال: فأرجع فردّها، أو ألقها في البحر، ولا تحدثن حَدَثًا؛ فوالذي آتخذ إبراهيم خليلًا! لقد مَسَّنِي كَفٌّ من نَسَل يعقوب. ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدهم بطشاً، فقال: يا معشر العبرانيين! أنظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فَرَكَلَه برجله فدحا به من خلف الجدار - الرِّكْلُ الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد رَكَلَه يَرَكُلَه؛ قاله الجوهري - ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه [لجنبه]^(٢)، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بضواعه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طينيه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلّفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! أستر علينا ستر الله عليك، وأمنن علينا من الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجُبِّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنباً منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛ ولم تتوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتهم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنكم نكالا للعالمين. إيتوني بالحدادين أقطع

(١) في ي: غيظه. (٢) في ع وى: لجنبه وفي و: لحيته.

أيديهم وأرجلهم، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ لتكونن طوع يده، وترباً يطأ علينا برجله؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم: أخرجوا عني! قد خليت سبيلكم إكراماً لأبيكم، ولولا هو لجعلتكم نكالاً.

[٨١] ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١).

قوله تعالى: ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ﴾ قاله الذي قال: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ﴾. ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ﴾ وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو رزين ﴿إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ﴾. النحاس: وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدثنا ابن شاذان^(١) قال حدثنا أحمد بن أبي سريج البغدادي قال: سمعت الكسائي يقرأ: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقَ﴾ بضم السين وتشديد الراء مكسورة؛ على ما لم يُسم فاعله؛ أي نُسب إلى السرقة ورُمي بها؛ مثل خونته وفسقته وفجرتة إذا نسبته إلى هذه الخلال. وقال الزجاج: «سَرَقَ» يحتمل معنيين: أحدهما - علم منه السَّرَق، والآخر - اتهم بالسَّرَق. قال الجوهري: والسَّرَق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو أسم الشيء المسروق. والمصدر سَرَقَ يَسْرِقُ سَرَقًا بالفتح.

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين: دَسَّ هذا في رحلي مَن دَسَّ بضاعتكم في رحالكم؛ قال معناه ابن إسحق. وقيل المعنى: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسَرَّقُ إلا بما علمنا من دينك؛ قاله ابن زيد. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي لم نعلم وقت أخذناه منك أنه يَسْرِقُ فلا نأخذه. وقال مجاهد وقتادة: ما كنا

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان كما في «غاية النهاية».

نعلم أن أبنك يُسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: نحفظ أخانا فيما نطيق. وقال ابن عباس: يعنون أنه سرق ليلاً وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حمير؛ وعنه: ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه. وقيل: ما دام بمرأى منا لم يجر خلل، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته. وقيل معناه: قد أخذت السرقة من رَحْله، ونحن أخرجناها وننظر إليها، ولا علم لنا بالغيب، فلعلهم سرّقه ولم يسرق.

الثانية - تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً، فلا تسمع إلا ممن عَلم، ولا تقبل إلا منهم، وهذا هو الأصل في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخطّ - إذا تيقن أنه خطّه أو خطّ فلان - صحيحة فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يُشهِده المشهود عليه؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقال رسول الله ﷺ: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشَّهَدَاءِ خَيْرُ الشَّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا» وقد مضى في «البقرة»^(٢).

الثالثة - اختلف قول مالك في شهادة المرور؛ وهو أن يقول: مررت بفلان فسمعته يقول كذا فإن أستوعب القول شهد في أحد قولي، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يُشهِده. والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب؛ وبه قال جماعة العلماء، وهو الحق؛ لأنه [قد]^(٣) حصل المطلوب، وتعيّن عليه أداء العلم؛ فكان خير الشهاداء إذا أعلم المشهود له، وشر الشهاداء إذا كتمها [والله أعلم]^(٤).

الرابعة - إذا ادّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت؛ لأنه ادّعى باطلاً فأكذبه العيان ظاهراً.

[٨٢] ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْمِرَآئِي أَقْلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

(١) راجع ١٦/١٢٢.

(٢) راجع ٣/٣٩٩.

(٤) من كوى.

(٣) من ع.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ﴾ حَقَّقُوا بِهَا شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لثلاثتهم. فقولهم: ﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي أهلها؛ فحُذِفَ؛ ويريدون بالقرية مصر. وقيل: قرية من قراها نزلوا بها وأمتاروا منها. وقيل المعنى: ﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وإن كانت جماداً، فأنْتَ نبيّ الله، وهو^(١) يُنطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار؛ قال سيبويه: ولا يجوز كَلَمْ هِنْدًا وَأَنْتَ تريد غلام هند؛ لأن هذا يُشكَل. والقول في العير كالقول في القرية سواء. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا.

الثانية - في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يُظَنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه، ويصرّح^(٢) بالحق الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحد مُتَكَلِّمٌ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفيّة يَقلِّبُها^(٣) من المسجد: «على رسلكما إنما هي صفيّة بنت حُيَيٍّ» فقالا: سبحان الله! وكَبُرَ عليهما؛ فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم وإنني خَشِيتُ أن يَحْدِفَ في قلوبكما شيئاً» رواه البخاري ومسلم.

[٨٣] ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زَيَّنَتْ. ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أن أبني سَرَقَ وما سَرَقَ، وإنما ذلك لأمر يريده الله. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فشأنِي صبر جميل؛ أو صبر جميل أولى بي، على ما تقدّم أوّل السورة.

(١) في ي: أنت نبيّ الله ينطق الجماد لك.

(٢) كذا في الأصول. ولعل الواو زائدة فيكون يصرّح خبر أن.

(٣) يقلِّبها: يردّها.

الثانية - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجره عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدي [بني الله] ^(١) يعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين. وقال سعيد بن أبي عرُوبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال ابن جُريج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ». وقد تقدّم في «البقرة» ^(٢) أن الصبر عند أول الصدمة، وثواب من ذكر مصيبته وأسترّجع وإن تقادم عهدا. وقال جُوبير عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أعطي على يوسف أجر مائة شهيد، وكذلك من احتسب من هذه الأمة في مصيبته فله [مثل] ^(٣) أجر يعقوب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنه كان عنده أن يوسف ﷺ لم يمت، وإنما غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حمل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئاً، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس، ثم حبس، فلما تمكن أحتال في أن يعلم أبوه خبره؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك فلا يدعوا الرسول يصل إليه. وقال: «بهيم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلف من أجل أخيه، وهو القائل: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقضي.

[٨٤] ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْتَاسِفُنِي عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تتأمّ حزنه، وبلغ جهده، وجدّد الله مصيبته له في يوسف فقال: ﴿يَا أَسَفًا

(١) من ع. وفي ي: بأيوب، بدل يعقوب. وهو من أغلاط الناسخ.

(٢) راجع ٢/ ١٧٤، ١٧٥. (٣) من ع وك وى.

عَلَى يُوسُفَ ﴿ وَنَسِيَ أَبْنَهُ بَنِيَامِينَ فَلَمْ يَذْكُرْهُ ؛ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَ يَعْقُوبَ مَا فِي كِتَابِنَا مِنَ الاسْتِرْجَاعِ ، وَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ لَمَا قَالَ : ﴿ يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾ . قَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ : وَالْمَعْنَى يَا حَزَنَاهُ ! ^(١) وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ : يَا جَزَعَاهُ ! قَالَ كَثِيرٌ :

فِيَا أَسْفَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَنْصَرَفُهُ وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سَلَّيْتُ فَتَسَلَّتِ

وَالْأَسْفُ شِدَّةُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَ . وَالنَّدَاءُ عَلَى مَعْنَى : تَعَالَى يَا أَسْفُ فَإِنَّهُ مِنْ أَوْقَاتِكَ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْأَصْلُ يَا أَسْفِي ؛ فَأَبْدَلَ مِنَ الْيَاءِ أَلْفَ لَخْفَةِ الْفَتْحَةِ . ﴿ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ قِيلَ : لَمْ يَبْصُرْ بِهِمَا سِتَ سَنِينَ ، وَأَنَّهُ عَمِيَ ؛ قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَقِيلَ : قَدْ تَبَيَّضَ الْعَيْنُ وَبَقِيَ شَيْءٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِ يَعْقُوبَ ؛ وَإِنَّمَا أَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْبُكَاءِ ، وَلَكِنْ سَبَبُ الْبُكَاءِ الْحُزْنُ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ . وَقِيلَ : إِنْ يَعْقُوبَ كَانَ يَصْلِي ، وَيُوسُفَ نَائِمًا مُعْتَرِضًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَغَطَّ فِي نَوْمِهِ ، فَالْتَفَتَ يَعْقُوبَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ ثَانِيَةً فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ ثَالِثَةً فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ سُرُورًا بِهِ وَيُغْطِيهِ ؛ فَأَرْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَائِكَتِهِ : « أَنْظِرُوا إِلَى صَفِيِّ وَأَبْنِ خَلِيلِي قَائِمًا فِي مَنَاجَاتِي يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِي ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ! لَأَنْزَعَنَّ الْحَدِثَتَيْنِ اللَّتَيْنِ التَفَتَ بِهِمَا ، وَلَأَفَرِّقَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِنَ التَّفَتَ إِلَيْهِ ثَمَانِينَ سَنَةً ؛ لِيَعْلَمَ الْعَامِلُونَ أَنَّ مَنْ قَامَ بَيْنَ يَدَيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ مِرَاقَبَةُ نَظَرِي » .

الثَّانِيَةُ - هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْاِلْتِفَاتَ فِي الصَّلَاةِ - وَإِنْ لَمْ يُبْطَلْ - يَدُلُّ عَلَى الْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا ، وَالنَّقْصِ فِيهَا ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْاِلْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ : « هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ » . وَسَيَأْتِي مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ « الْمُؤْمِنُونَ » مُوَعِبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الثَّالِثَةُ - قَالَ النَّحَّاسُ : فَإِنْ سَأَلَ قَوْمٌ عَنْ مَعْنَى شِدَّةِ حُزْنِ يَعْقُوبَ - ﷺ - وَعَلَى نَبِينَا - لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا ثَلَاثَةُ أَجُوبَةٍ : مِنْهَا - أَنَّ يَعْقُوبَ ﷺ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ يُوسُفَ ﷺ حَيٌّ خَافَ عَلَى دِينِهِ ، فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ لَذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّمَا حُزِنَ لِأَنَّهُ سَلَّمَ إِلَيْهِمْ صَغِيرًا ، فَتَدَمَّرَ عَلَى ذَلِكَ . وَالْجَوَابُ الثَّالِثُ - وَهُوَ أَبْيَنُهَا - هُوَ أَنَّ

(١) فِي وَوَي : وَاحْزَنَاهُ .

الحزن ليس بمحذور، وإنما المحذور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي. وقال النبي ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يخطئ الرب». وقد بين الله جل وعز ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبتث؛ ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾^(١) أي مملوء كربا. ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه. وعن ابن عباس: كظيم مغموم؛ قال الشاعر:

فَإِنْ أَكْ كَاطِمًا لِمَصَابٍ شَاسٍ فإني اليوم مُنْطَلِقٌ لِسَانِي

وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: ذهب عيناه من الحزن ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال: فهو مكروب. وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال: فهو كمد؛ يقول: يعلم أن يوسف حي، وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كمد من ذلك. قال الجوهري: الكمد الحزن المكتوم؛ تقول منه كمد الرجل فهو كمد وكمد. النحاس. يقال فلان كظيم وكاظم؛ أي حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر:

فَحَضَضْتُ قَوْمِي وَأَحْتَسِبْتُ قِتَالَهُمْ والقوم من خوف المنايا كظم

[٨٥] ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

[٨٦] ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفَىٰ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ أي قال له ولده: ﴿تَاللَّهِ تَقْتُلُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ قال الكسائي: فَنَأْتُ وَفَنَيْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ أَي مَا زِلْتُ. وزعم الفراء أن «لا» مضمرة؛ أي لا تقتل، وأنشد:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ولو قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

(١) راجع ٢٥٣/١٨. (٢) البيت لامرئ القيس و«يمين» بالرفع على الابتداء وإضمار الخير؛ والتقدير: يمين الله لازمني؛ وبالنصب على إضمار فعل، وهو كثير في كلام العرب كقولهم: أمانة الله. وقد وصف أنه طرق محبرته فخرفته الرقباء، وأمرته بالانصراف، فقال لها هذا، وأراد؛ لا أبرح فحذف «لا». والأوصال (جمع وصل) وهي المقاصل.

أي لا أبرح؛ قال النحاس: والذي قال حسن صحيح. وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمير في القسم؛ لأنه ليس فيه إشكال؛ ولو كان^(١) واجباً لكان باللام والنون؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك؛ يقال: ما زال يفعل كذا وما فتىء وَفْتَأَ فهما لغتان، ولا يستعملان إلا مع الجحد قال الشاعر^(٢):

فَمَا فَنَيْتُ حَتَّى كَانَ غُبَارَهَا^(٣) سُرَادِقُ يَوْمِ ذِي رِيَّاحٍ تُرْفَعُ

أي ما برحت ففتناً تبرح. وقال ابن عباس: تزال. «حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» أي تالفا. وقال ابن عباس ومجاهد: دَنَفَا من المرض، وهو ما دون الموت؛ قال الشاعر:

سَرَى هَمِّي فَأَمْرَضَنِي وَقَدْ مَا زَادَنِي مَرَضًا
كَذَاكَ الْحُبُّ قَبْلَ الْيَوْمِ مِمَّا يُورِثُ الْحَرَضًا

وقال قتادة: هَرِمَا. الضحَّاك: بَالِيَا دائِرًا. محمد بن إسحق: فاسدًا لا عقل لك. الفراء: الحارِض الفاسد الجسم والعقل؛ وكذا الحَرَض. ابن زيد: الحَرَض الذي قد رُدَّ إلى أرذل العمر. الربيع بن أنس: يابس الجلد على العظم. المؤرِّج: ذائبًا من ألهم. وقال الأخفش: ذاهبًا. ابن الأنباري: هالكًا، وكلها متقاربة. وأصل الحَرَض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم، عن أبي عبيدة وغيره؛ وقال العَرَجِي:

إِنِّي أُمُرُّ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ

قال النحاس: يقال حَرَضَ حَرَضًا وَحَرَضَ حَرُوضًا وَحُرُوضَةً إِذَا بَلِيَ وَسَقَمَ، وَرَجُلٌ حَارِضٌ وَحَرَضٌ، إِلَّا أَنْ حَرَضًا لَا يَشْتِي وَلَا يَجْمَعُ، وَمِثْلُهُ قَمِينٌ وَحَرِيٌّ لَا يَشْتِيَانِ وَلَا يَجْمَعَانِ. الثعلبي: ومن العرب من يقول حَارِضٌ لِلْمَذْكَرِ، وَالْمَوْثَنَةُ حَارِضَةٌ، فَإِذَا وَصَفَ بِهَذَا اللَّفْظُ ثَنًى وَجْمَعٌ وَأَنْثٌ. ويقال: حَرِضَ يَحْرِضُ حَرَاضَةً فَهُوَ حَرِضٌ وَحَرِضٌ. ويقال: رَجُلٌ مُحَرَضٌ، وَيُنْشَدُ:

طَلَبْتُهُ الْخَيْلُ يَوْمًا كَامِلًا وَلَوْ أَلْفَتْهُ لَأَضْحَى مُحَرَضًا

(١) في ع: موجبا.

(٢) هو أوس بن حجر التميمي الجاهلي. (٣) الضمير للخيل.

وقال أمرؤ القيس:

أَرَى المَرءَ ذَا الْأَذْوَادِ يُصْبِحُ مُخْرَضاً
كَإِخْرَاضِ بَكْرِ فِي الدِّيَارِ مَرِيضٍ^(١)
قال النحاس: وحكى أهل اللغة أحرصه الهم إذا أسقمه، ورجل حارص أي أحقق. وقرأ
أنس: «خُرَضاً» بضم الحاء وسكون الراء، أي مثل عود الأشنان. وقرأ الحسن بضم الحاء
والراء. قال الجوهري: الحَرَضُ والحُرَضُ الأشنان. ﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي الميتين،
وهو قول الجميع؛ وحرصهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه، وإن كانوا السبب في ذلك.
قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من
الآشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها؛ وهو من بثته أي فرقته، فسميت المصيبة بثاً
مجازاً، قال: ذو الرُّمَّة:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمِئَةٍ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ^(٢) حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبَيْتُهُ تُكَلِّمُنِي أَجْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

وقال ابن عباس: «بَثِّي» همِّي. الحسن: حاجتي. وقيل: أشد الحزن، وحقيقته ما
ذكرناه. ﴿وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف عليه، أعاده بغير لفظه. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سأسجد له. قاله ابن عباس. قتادة:
إني أعلم من إحسان الله تعالى إلي ما يوجب حسن ظني به. وقيل: قال يعقوب لملك
الموت هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فأكد هذا رجاءه. وقال السدي: أعلم أن
يوسف حي، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخلقه وقوله أحسست نفس
يعقوب أنه ولده فطمع، وقال: لعله يوسف. [وقال: لا يكون في الأرض صديق إلا
نبيء. وقيل: أعلم من إجابة دعاء المضطرين ما لا تعلمون]^(٣).

[٨٧] ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئِسُ
مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

(١) الأذواد: جمع ذود، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع. والبكر: الفتى من الإبل؛ يقول:
أرى المرء ذا المال يدركه الهرم والمرض، والفناء بعد ذلك فلا تغني كثرة ماله، كما أن البكر يدركه ذلك.
(٢) أسقيه ادعوله بالسقيا. (٣) من ووى.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا يدل على أنه تيقن حياته؛ إما بالرؤيا، وإما بإذناطاق الله تعالى الذئب كما في أول القصة، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه؛ وهو أظهر. والتَّحَسُّس طلب الشيء بالحواس؛ فهو تفعل من الحس، أي أذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم، وأحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه. ويروى أن ملك الموت قال له: أطلبه من ها هنا وأشار إلى ناحية مصر. وقيل: إن يعقوب تنبه على يوسف برد البضاعة، وأحتباس أخيه، وإظهار الكرامة؛ فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها. ﴿وَلَا تَيْسَّسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من فرج الله؛ قاله ابن زيد؛ يريد: أن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة. وقال قتادة والضحاك: من رحمة الله. ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر، وهو اليأس، وسيأتي في «الرُّمَر»^(١) بيانه إن شاء الله تعالى.

[٨٨] ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبُضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ قَاوِفْ لَنَا الْكَيْلَ وَنَصَدِّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي الممتنع. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر؛ وفي الكلام حذف، أي فخرجوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا: «مَسَّنَا» أي أصابنا «وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي الجوع والحاجة؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر، أي الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حاله إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط؛ والصبر والتجلد في التوابع أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل؛ وأحسن الكلام

في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى؛ وذلك قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده؛ فاما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السّفه، إلا أن يكون على وجه البَثِّ والتسلي؛ كما قال ابن دُرَيْد:

لَا تَحْسَبَنَّ يَا دَهْرُ أَتَيْ ضَارِعٌ لِنَكْبَةٍ تَغْرِقُنِي عَرَقَ الْمُدَى
مَا رَسْتُ مَنْ لَوْ^(١) هَوَتْ الْأَفْلَاكُ مِنْ جَوَائِبِ الْجَوْ عَلَيْهِ مَا شَكَا
لَكُنْهَا نَفْثَةً مَضْدُورٍ إِذَا جَاشَ لُغَامُ^(٢) مِنْ نَوَاحِيهَا غَمًا

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء؛ تقول: أبضعت الشيء وأستبضعته أي جعلته بضاعة؛ وفي المثل: كمستبضع التمر إلى هَجَرَ^(٣).

قوله تعالى: ﴿مَرْجَاةٍ﴾ صفة لبضاعة؛ والإجزاء السُّوقُ بدفع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾^(٤) والمعنى أنها بضاعة تدفع؛ ولا يقبلها كل أحد. قال ثعلب: البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة. اختلف في تعيينها هنا^(٥)؛ ف قيل: كانت قديداً وحيساً^(٦)؛ ذكره الواقدي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: خلُقَ الغُرَائر والحِبال؛ روي عن ابن عباس. وقيل: متاع الأعراب صوف وسمن؛ قاله عبد الله بن الحارث. وقيل: الحبة الخضراء والصَّنَوْبَر وهو البُطم، حب شجر بالشام، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون، قاله أبو صالح؛ فباعوها بدراهم لا تَنفَقُ في الطعام، وتَنفَقُ فيما بين الناس؛ فقالوا: خذها منا بحساب جيد تَنفَقُ في الطعام. وقيل: دراهم رديئة؛ قاله ابن عباس أيضاً. وقيل: ليس عليها صورة يوسف، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف. وقال الضحَّاك: النعال والأدم؛ وعنه: كانت سويقاً منخلاً. والله أعلم.

(١) من ع. (٢) الزيد؛ وهو ما يليقه البعير من فمه؛ وغما: سقط؛ يقال: غما البعير الزيد إذا رماه ينفذ رأسه ومشفره.

(٣) هجر: مدينة بالبحرين. (٤) راجع ٢٨٧/١٢.

(٥) من ع وى. (٦) كذا في الأصول وفي البحر: قديد وحش.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ يريدون كما تباع بالدراهم الجياذ لا تنقصنا بمكان دراهمنا؛ هذا قول أكثر المفسرين. وقال ابن جريج: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي تفضل علينا بما بين سعر الجياذ والرديئة. قاله سعيد بن جبيرة والسدي والحسن؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء. وقيل المعنى: ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بالزيادة على حقنا؛ قاله سفيان بن عيينة. قال مجاهد: ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد ﷺ. وقال ابن جريج: المعنى ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برء أخينا إلينا. وقال ابن شجرة: ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ تجوز عنا؛ وأستشهد بقول الشاعر:

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا يَا أَبْنَ عَفَّانَ^(١) وَأَخْتَسِبْ وَأَمُرْ عَلَيْنَا الْأَشْعَرِيَّ لَيَالِيَا

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يعني في الآخرة؛ يقال: هذا من معاريف الكلام؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم، فلذلك لم يقولوا: إن الله يجزيك بصدقتك، فقالوا لفظاً يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجهم بالتأويل؛ قاله النقاش وفي الحديث: «إن في المعاريف^(٢) لمندوحة عن الكذب».

الثانية - استدلل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع؛ قال ابن القاسم وأبن نافع قال مالك: قالوا ليوسف ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فكان يوسف هو الذي يكيل؛ وكذلك الوزان والعداد وغيرهم؛ لأن الرجل إذا باع عِدَّة معلومة من طعامه، وأوجب العقد عليه، وجب عليه أن يبرزها ويميز حق المشتري من حقه، إلا أن يبيع منه مُعَيَّنًا - صُبْرَةً^(٣) أو ما لا حقّ توفية فيه - فخلّى [ما]^(٤) بينه وبينه، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية، وإن تلف فهو منه قبل التوفية.

(١) في ي: يا ابن حسان. (٢) المعاريف: جمع معراض، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول. (٣) الصبرة: الطعام المجتمع كالكومة. (٤) من ع.

الثالثة - وأما أجرة النقد فعلى البائع أيضاً؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول: إنها طيبة، فأنت الذي تدعي الرداءة فأنتظر لنفسك؛ وأيضاً فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذي [يجب]^(١) عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكن من ذلك طائعاً؛ ألا ترى أن فرضاً عليه أن يفدي يده، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطاع على المقتص. وقال الشافعي في المشهور عنه: إنها على المقتص منه كالبائع.

الرابعة - يكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدق عليّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدق عليّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبتغي الثواب؛ أما سمعت نول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قل: اللهم أعطني وتفضل عليّ.

[٨٩] ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

[٩٠] ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَكْ لَا تَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[٩١] ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيلِينَ﴾.

[٩٢] ﴿قَالَ لَا تَزِرْ بِكَرْبِ الْيَوْمِ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ﴾.

[٩٣] ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ

أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال^(٢) الله: ﴿لَتَنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ الآية^(٣). ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ دليل على أنهم

(١) من ع و و و ي.

(٢) أي تصديق قول الله، كما في تفسير الفخر وفي ع: قال الرب.

(٣) من ع.

كانوا صغاراً في وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدلّ على أنه حسنت حالهم الآن؛ أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياةً وخوفاً منه. وقيل: جاهلون بما تقول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ فخضعوا له وتواضعوا رق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتنبهوا فقالوا: ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قاله ابن إسحاق. وقيل: إن يوسف تبسم فشبهوه بيوسف وأستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ الآية، ثم تبسم يوسف - وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم - فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾. وعن ابن عباس أيضاً: أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾. وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ أبنه، وفي الكتاب: من يعقوب صفّي الله أبن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر - أما بعد - فإنّا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدّي إبراهيم بنمروذ وناره، ثم ابتلى أبي إسحق بالذبح، ثم أبتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إليّ حتى كُفّ بصري من البكاء، وإنّي لم أسرق ولم ألدّ سارقاً والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب أرتعدت مفاصله، واقتعر جلده، وأرخی عينيه بالبكاء، وعيّل صبره فباح بالسرّ. وقرأ ابن كثير: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْخَبْرِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ اسْتِفْهَاماً كَقَوْلِهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾^(١). قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أي أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيماً للقصة. ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بالنجاة والملك. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الصابرين في بلائه، القائمين بطاعته. وقرأ ابن كثير: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ بإثبات الياء؛ والقراءة بها جائزة على أن تجعل.

«مَنْ» بمعنى الذي، وتدخل «يَتَّقِي» في الصلة، فتثبت الياء لا غير، وترفع «ويصبر». وقد يجوز أن تجزم «ويصبر» على أن تجعل «يتقي» في موضع جزم و «من» للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التي كانت في الياء على الأصل؛ كما قال:

ثم نادِي إذا دَخَلْتَ دِمَشْقاً يا يزيدُ بنَ خَالِدِ بنِ يزيد
وقال آخر:

ألم يأتِكَ والأنباءُ تَنُمِي بما لَأَقْتُ لُبُونُ بني زياد
وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء في «إِنَّه» كناية عن الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الأصل همزتان خففت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، وأسم الفاعل مؤثر، والمصدر إثارة. ويقال: أثارُ التراب إثارةً فأنا مُثير؛ وهو أيضاً على أَفَعَلَ ثم أُعِلَّ، والأصل أَثِيرٌ^(١) نقلت حركة الياء على الشاء، فانقلبت الياء ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. وأثرُ الحديث على فَعَلْتُ فأنا آثِرٌ؛ والمعنى: لقد فضلك الله علينا، وأختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي مذنبين من خَطِيءٍ يَخْطَأُ إذا أتى الخطيئة، وفي ضمن هذا سؤال العفو. وقيل لابن عباس: كيف قالوا ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمدوا لذلك، فما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنباً تَخْطِئُ المنهاج الذي عليه من الحق، حتى يقع في الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي قال يوسف - وكان حليماً موقفاً: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ وتم الكلام. ومعنى «اليوم»: الوقت. والتثريب التّعير والتوبيخ، أي لا تعير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوري وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يُثْرَبَ عليها» أي لا يعيرها؛ وقال بشر:

فَعَفَوْتُ عَنْهُمْ عَفْوً غَيْرَ مُثْرَبٍ وتركتمهم لعقابِ يومِ سَرْمَدٍ

(١) كذا في الأصل وإعراب القرآن للنحاس. ويلاحظ أن عين الفعل واو لا ياء، وعليه فالأصل أثور، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفاً، ثم حذفت - عند اتصال الفعل بضمير متحرك - لالتقاء الساكنين.

وقال الأصمعي: ثَرَبْتُ عليه وعَرَبْتُ عليه بمعنى إذا قبحت عليه فعله. وقال الزجاج: المعنى لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة، وحق الإخوة، ولكم عندي العفو والصفح؛ وأصل التشريب الإفساد، وهي لغة أهل الحجاز. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أخذ بعُضَادَتَي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذَ الناسُ بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «ماذا تظنون يا معشر قريش» قالوا: خيراً، أخ كريم، وأبن أخ كريم وقد قَدَرْتُ؛ قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: فِفِضْتُ عَرَقاً من الحياء من قول رسول الله ﷺ؛ ذلك أني قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله ﷺ ما قال أستحييت من قولي. ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مستقبل فيه معنى الدعاء؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم. وأجاز الأخفش الوقف على «عَلَيْكُمْ» والأوّل هو المستعمل؛ فإن في الوقف على «عليكم والابتداء بـ ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ جَزَمَ بالمغفرة في اليوم، وذلك لا يكون إلا عن وحي، وهذا بين. وقال عطاء الخراساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ؛ ألم تر قول يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وقال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ نعت للقميص، والقميص مذكر، فأما قول الشاعر^(١):

تَدْعُو هَوَازِنُ وَالْقَمِيصُ مُفَاضَةٌ فوق النُّطَاقِ تُشَدُّ بِالْأَزَارِ

فتقديره: [والقميص] ^(٢) دِرْعُ مُفَاضَةٍ. قاله النحاس. وقال ابن السدي عن أبيه عن مجاهد: قال لهم يوسف: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرَاك﴾ قال: كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدُّ على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحق، وكان إسحق كساه يعقوب، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قَصَبَةٍ من فضة وعلّقه في عُتْقِ يوسف، لِمَا كَانَ يخاف عليه من

(١) هو جرير.

(٢) الزيادة عن النحاس.

العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة. و [إن] ^(١) ريح الجنة لا يقع على سقيم ^(٢) ولا مُبتلى إلا عوفي. وقال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسره، وليعود إليه بصره، فحمله؛ حكاه السدي. ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتتخذوا مصر داراً. قال مسروق: فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وأمرأة. وقد قيل: إن القميص الذي بعثه هو القميص الذي قد من دُبره، ليعلم يعقوب أنه عَصِمَ من الزنى؛ والقول الأول أصح، وقد روي مرفوعاً من حديث أنس عن النبي ﷺ؛ ذكره القشيري والله أعلم.

[٩٤] ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ^(١١).

[٩٥] ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ^(١٢).

[٩٦] ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَبَصِرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(١٣).

[٩٧] ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ^(١٤).

[٩٨] ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ^(١٥).

[٩٩] ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ^(١٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام، يقال: فصلَ فُصُولاً، وفصلته فُصُلاً، فهو لازم ومتعد. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقي: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾. قال ابن عباس: هاجت ^(٢) ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وقال الحسن: مسيرة عشرين ليال؛

وعنه أيضاً مسيرة شهر . وقال مالك [بن أنس] ^(١) رضي الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : هبَّت رِيحٌ قَصَفَتْ ^(٢) القميصَ فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت ببعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ أي أشم ؛ فهو وجود بحاسة الشم . ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسَفِّهون ؛ ومنه قول النابغة :

إِلَّا سُلَيْمَانُ إِذْ قَالَ الْمَلِكُ لَهُ قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَأَخَذُهَا عَنِ الْفَنَدِ ^(٣)

أي عن السَّفَه . وقال سعيد بن جبیر والضحاك : لولا أن تكذَّبون . والفند الكذب ، وقد أَفْنَدَ إِفْنَادًا كَذَبَ ؛ ومنه قول الشاعر :

هَلْ فِي أَفْتَخَارِ الْكَرِيمِ مِنْ أَوْدٍ ^(٤) أَمْ هَلْ لِقَوْلِ الصَّدُوقِ مِنْ فَنَدٍ

أي من كذب . وقيل : لولا أن تُقَبِّحُون ؛ قاله أبو عمرو ؛ والتفنيد التقييح ، قال الشاعر :

يَا صَاحِبِي دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمَرْدُودٍ

وقال ابن الأعرابي : ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ لولا أن تُضَعِّفُوا رَأْيِي ؛ وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأي من كبر . وقول رابع : تُضَلِّلُون ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوموني ؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي . وقال الحسن وقتادة ومجاهد أيضاً : تُهَرِّمُون ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي ؛ يقال : فَنَدَ تفنيداً إذا أعجزه ، كما قال :

أَهْلَكْنِي بِاللُّومِ وَالتَّفْنِيدِ

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي ، كما قال النابغة :

.... فَأَحَدَهَا عَنِ الْفَنَدِ

أي أمتنعها عن الفساد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر :

يَا عَاذِلِي دَعَا الْمَلَامَ وَأَقْصِرَا طَالَ الْهَوَى وَأَطْلَمَا التَّفْنِيدَا

(١) من ووى . (٢) صفقت الريح الشيء وشفقته إذا قلبته يمينا وشمالاً وردته .

(٣) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقبل البيت : ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد ويروى : فأرددها . وأحددها : أحبسها . والفند أيضاً الخطأ في الرأي . والظلم أيضاً .

(٤) أود : عوج .

ويقال: أَفْتَدَ فُلَانًا الدَّهْرُ إِذَا أَفْسَدَهُ؛ ومنه قول ابن مُثَنَّل:

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فَلَمَّا إِذَا كَلَّفَ الْإِفْنَادَ بِالنَّاسِ أَفْتَدَا

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي لفي ذهاب عن طريق الصواب. وقال ابن عباس وابن زيد: لفي خطبك الماضي من حب يوسف لا تنساه. وقال سعيد بن جبیر: لفي جنونك القديم. قال الحسن: وهذا عقوق. وقال قتادة وسفيان: لفي محبتك القديمة. وقيل: إنما قالوا هذا لأن يوسف عندهم كان قد مات. وقيل: إن الذي قال له ذلك من بقي معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر. وقيل: قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته. وقيل: بنو بنيه وكانوا صغاراً؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي على عينيه. ﴿فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾ «أن» زائدة، والبشير قيل هو شمعون. وقيل: يهوذا قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخًا بالدم؛ قاله ابن عباس. وعن السدي أنه قال لإخوته: قد علمتم أنني ذهبت إليه بقميص التَّرحَة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحَة. وقال يحيى بن يمان عن سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب قال له: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئاً يُشَبِّه به؛ فقال: والله ما أصبت عندنا شيئاً، وما خبرنا شيئاً منذ سبع ليال، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت.

قلت: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهيات عند البشائر. وفي الباب حديث كعب بن مالك - الطويل - وفيه: «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزع ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته» وذكر الحديث، وقد تقدّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِفُوا^(١)، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به، وهو دليل على

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والتّرح. ومن هذا الباب جواز حِذاقة^(١) الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نحر عمر بعد [حفظه]^(٢) سورة «البقرة» جُزّورا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكّرهم قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ في الكلام حذف، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا؛ وهذا يدلّ على أن الذي قال له: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ بنو بني أو غيرهم من قرابته وأهله لا ولده؛ فإنهم كانوا غُيّا، وكان يكون ذلك زيادة في العقوق. والله أعلم. وإنما سألوه المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.

قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له؛ فإنه يجب عليه أن يتَحَلَّلَ له^(٣) ويخبره بالمَظْلَمَةِ^(٤) وقدرها؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قَدْرٌ وبِأَلٍّ ربما لم تَطْبُ نفس المظلوم في التَّحَلُّلِ منها. والله أعلم. وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِزِّهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيُحْلِلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» قال المهلب فقله ﷺ: «أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشاراً إليها مبينة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال ابن عباس: آخر دعاءه إلى السَّحَر. وقال المثنى بن الصباح عن طاوس قال: سَحَر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وفي دعاء الحِفظ - من كتاب الترمذي - عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ

(١) حذق الغلام القرآن: مهر فيه. في ع: جواز الفرح بحذاق الصبيان.

(٢) من أ، ع، ك، و، ي.

(٣) في ع و ك: منه. (٤) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها.

إذ جاءه عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: - بأبي أنت وأُمّي - تفلّت هذا القرآن من صدري، فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهنّ وينفع بهنّ من علّمته ويثبت ما تعلّمت في صدرك» قال: أجل يا رسول الله! فعلمني؛ قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول حتى تأتي ليلة الجمعة» وذكر الحديث. وقال أيوب بن أبي تميمة السخّنيّاني عن سعيد بن جبّير قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في الليالي البيض، في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب. وعن عامر الشعبي قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ أي أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرت لكم ربي؛ وذكر سنيد بن داود قال: حدّثنا هشيم قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دثار عن عمّه قال: كنت آتي المسجد في السحر فأمرُّ بدار أبْن مسعود فأسمعه يقول: اللهم إنك أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سحرٌ فأغفر لي، فلقيت أبْن مسعود فقلت: كلمات أسمعك تقولهنّ في السحر؟ فقال: إن يعقوب أخبرني به إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي قَصْراً كان له هناك. ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل: إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازاً، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعاً؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أي ضمّ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته، وكانت أمّه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين. وقيل: أحيا الله [له] ^(١) أمّه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له، قاله الحسن؛ وقد تقدّم في «البقرة» أن الله تعالى أحيا لنبية عليه السلام أباه وأمّه فأماناً به.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قال أبْن جريج: أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله؟ قال: وهذا من تقديم القرآن وتأخيرها؛ قال النحاس: يذهب أبْن جُرَيْج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾. وقيل: إنما قال: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» تبرُّكاً وجَزْماً «آمين» من القحط، أو من فرعون؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه.

[١٠٠] ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتُوتُنِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال قتادة: يريد السرير، وقد تقدمت محامله؛ وقد يُعبر بالعرش عن الملك والمَلِك نفسه؛ ومنه قول النابغة الذبياني:

عُرُوشٌ تَفَانُوا بَعْدَ عِزٍّ وَأَمْنَةٍ

رقد تقدم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ الهاء في «خَرُّوا لَهُ» قيل: إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى: وخرّوا شكر الله سجداً؛ ويوسف كالقِبلة لتحقيق رؤياه، وروي عن الحسن؛ قال النقاش: وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وكان تحيتهم أن يسجدوا للضيع للشريف، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعرّ جلده وقال: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة. وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شدّاد: أربعون سنة؛ قال عبد الله بن شدّاد: وذلك آخر ما تبطىء الرؤيا. وقال قتادة: خمس وثلاثون سنة. وقال السديّ وسعيد بن جبيرة وعكرمة: ست وثلاثون سنة. وقال الحسن وجبّر بن فرقد وفُضَيْل بن عِيَّاض: ثمانون سنة. وقال وهب بن مُنَبِّه: ألقي يوسف في الجُبِّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثاً وعشرين

سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب. وبين يوسف وموسى أربع مائة سنة. وقيل: إن يعقوب بقي عند يوسف عشرين سنة، ثم توفي ﷺ. وقيل: أقام عنده ثمانين سنة. وقال بعض المحدثين: بضعا وأربعين سنة؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله. وقال ابن إسحق: ثمانين سنة، والله أعلم.

الثانية - قال سعيد بن جبيرة عن قتادة عن الحسن - في قوله: ﴿وَحَرِّزُوا لَهُ سُبُجَا﴾ - قال: لم يكن سجوداً، لكنه سنة كانت فيهم، يؤمّثون براء وسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم. وقال الثوري والضحاك وغيرهما: كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم. وقيل: كان أنحناء كالركوع، ولم يكن خروراً على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة؛ قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة.

قلت: هذا الانحناء والتكفي الذي نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقيم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به، وأنه لا قدر له؛ وكذلك إذا ألتقوا أنحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثية مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء. نكبوا عن السنن، وأعرضوا عن السنن. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله! أينحنى بعضنا إلى بعض إذا ألتقينا؟ قال: «لا»؛ قلنا: أفيعتنق بعضنا بعضاً؟ قال: «لا». قلنا: أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال: «نعم». خرّجه أبو عمر في «التمهيد» فإن قيل: فقد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيّدكم وخيركم» - يعني سعد بن معاذ - قلنا: ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة؛ وقد قيل: إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار؛ وأيضاً فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه خطأ لم يجز عونه على ذلك؛

لقوله ﷺ: «من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار». وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله ﷺ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه، لما يعرفون من كراهته لذلك.

الثالثة - فإن قيل: فما تقول في الإشارة بالإصبع؟ قيل له: ذلك جائز إذا بُعد عنك، لتعين له به وقت السلام، فإن كان دانياً فلا؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد؛ لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تشبَّه بغيرنا فليس منا». وقال: «لا تُسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأُكُفِّ والتَّصارى بالإشارة». وإذا سلَّم فإنه لا يَنحني، ولا أن يُقبَّل مع السَّلام يده، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيماً منهم لكبرائهم؛ قال النبي ﷺ: «لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند رءوس أكاسرتها» فهذا مثله. ولا بأس بالمصافحة؛ فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها وقال: «تصافحوا يذهب الغِلُّ» وروى غالب الثَّمَار عن الشعبي أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا؛ فإن^(١) قيل: فقد كره مالك المصافحة؟ قلنا: روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة، وذهب إلى هذا سُخْنُون وغيره من أصحابنا؛ وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة، وهو الذي يدلُّ عليه معنى ما في الموطأ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف. قال ابن العربي: إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمراً عاماً في الدِّين، ولا منقولاً نقل السلام؛ ولو كانت منه^(٢) لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحة حديث يدلُّ على التَّغْيِيب فيها، والدَّأْب عليها والمحافضة؛ وهو ما رواه البراء بن عازب قال: لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم؟ فقال: «نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهُما بينهما».

(١) في أوع وك وى: الرابعة. ويلاحظ أن المسائل ثلاث. (٢) في ع، و، ي: سنة.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجُب استعمالاً للكرم؛ لئلا يُذكر إخوته صنيعهم بعد عفوهم [عنهم]^(١) بقوله: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ﴾.

قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذِكْرُ الْجَفَا في وقت الصَّفَا جَفَاً؛ وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب. وقيل: لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وكان في الحبِّ بإرادة الله تعالى له. وقيل: لأنه كان في السجن مع اللصوص والعصاة، وفي الحبِّ مع الله تعالى؛ وأيضاً فإن المِنة في النجاة من السجن كانت أكبر، لأنه دخله بسبب أمرهم به؛ وأيضاً دخله باختياره إذ قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ فكان الكرب فيه أكثر؛ وقال فيه أيضاً: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فعوقب فيه. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواشٍ وبرية؛ وقيل: كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسكنها، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية. وقيل: إنه كان خرج إلى بَدَا، وهو موضع؛ وإياه عنى جَمِيل بقوله:

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتَ شُعْباً^(٢) إِلَى بَدَا إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِلَادَ سِوَاهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل. يقال: بَدَا القَوْمُ بَدْواً إِذَا اتَّوَا بَدَا، كما يقال: غَارُوا غَوْرًا أَيِ اتَّوَا الْغَوْرَ؛ والمعنى؛ وجاء بكم من مكان بَدَا؛ ذكره القشيري، وحكاه الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله ابن عباس. وقيل: أفسد ما بيني وبين إخوتي؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرماً منه. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي رفيق بعباده. وقال الخطابي: اللطيف هو البر بعباده الذي يُلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ كقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣). وقيل: اللطيف العالم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرام والرفق. قال قتادة، لطف ييوسف بإخراجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع عن قلبه نزغ الشيطان. ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف أستاذن فرعون - وأسمه الريان - أن يأذن له في تلقّي أبيه يعقوب، وأخبره

(١) من ع وك. (٢) شغب: موضع بين المدينة والشام. و (بدا) يروى منوناً وغير منون.

(٣) راجع ١٦/١٦.

بقدمه فأذن له، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه؛ فخرج يوسف والملك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلَقَ الله أعلم بهم؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشي متكئاً على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا! هذا فرعون مصر؟ قال: لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف لبيداه بالسلام فمُنِعَ^(١) من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مُذْهِبَ الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحاً، وبكى يوسف لما رأى بآبيه من الحزن؛ قال ابن عباس: فالبكاء أربعة بكاء من الخوف، وبكاء من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاء رياء. ثم قال يعقوب؛ الحمد لله الذي أقرّ عيني بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر في اثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيّف ألف؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عِكْرِمَةُ عن ابن عباس. وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنساناً ما بين رجل وأمرأة، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة [ألف]^(٢) وسبعون ألفاً. وقال الربيع بن خيثم: دخلوها وهم أثنان وسبعون ألفاً، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف. وقال وهب: [بن^(٢) منه] دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجل وأمرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فراراً من فرعون، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً مقاتلين، سوى الذرية والهزَمَى والزَمْنَى؛ وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة. وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند آبيه إسحق بالشام ففعل، ثم أنصرف إلى مصر. قال سعيد بن جبّير: نقل يعقوب عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عِيسَى، فدفنا في قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، مَنْ فَعَلَ ذلك منهم؛ ووُلِدَ يعقوب وعِيسَى في بطن واحد، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً^(٣) وأربعين سنة.

(١) أي منعه يعقوب عليه السلام لأن القادم يسلم؛ قاله العيني في «عقد الجمان». وقال الألوسي: ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه.

(٢) من ع. (٣) في ع وك وى: تسعا. والمشهور ما ذكر.

[١٠١] ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْقِي بِالصَّلَاحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال قتادة: لم يتمن الموت أحد؛ نبي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام؛ حين تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل. وقيل: إن يوسف لم يتمن الموت، وإنما تمتى الوفاة على الإسلام؛ أي إذا جاء أجلي توفني مسلماً؛ وهذا قول الجمهور. وقال سهل بن عبد الله التستري: لا يتمنى الموت إلا ثلاث: رجل جاهل بما بعد الموت، أو رجل يفر من أقدار الله تعالى عليه، أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل. وثبت في الصحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لا يتمن أحدكم الموت لضراً نزل به فإن كان لا بد متمنياً فليقل أَللهم أخيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» رواه مسلم. وفيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمن أحدكم الموت ولا يدع^(١) به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم أنقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً». وإذا ثبت هذا فكيف يقال: إن يوسف عليه السلام تمنى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل؟ هذا بعيد! إلا أن يقال: إن ذلك كان جائزاً في شرعه؛ أما أنه يجوز تمنى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها، وخوف ذهاب الدين، على ما بيّناه في كتاب «التذكرة». و«من» من قوله: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ للتبعيض، وكذلك قوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ لأن ملك مصر ما كان كل الملك، وعلم التعبير ما كان كل العلوم. وقيل: «من» للجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. وقيل: للتأكيد. أي آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث.

(١) قيل: وجه صحة عطفه على النفي من حيث إنه بمعنى النهي. وقال ابن حجر: فيه إيماء إلى أن الأول نهى على بابه، ويكون قد جمع بين لغتي حذف حرف العلة وإثباته.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نصب على النعت للنداء، وهو رب، وهو نداء مضاف؛ والتقدير: يا رب! ويجوز أن يكون نداءً ثانياً. والفاطر الخالق؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أي خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق؛ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» مستوفى^(١)؛ عند قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وزدناه بياناً في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ أي ناصرِي ومتولِّي أموري في الدنيا والآخرة. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يريد آباءه الثلاثة؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب، فتوفاه الله - طاهراً طيباً ﷺ - بمصر - ودُفن في النيل في صندوق من رخام؛ وذلك أنه لما مات تَشَاحَّ الناس عليه؛ كلُّ يحب أن يدفن في مَحَلَّتْهم، لِمَا يرجون من بركته؛ واجتمعوا على ذلك حتى هُمُوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في التُّيْل من حيث مَفْرِقِ الماء بمصر، فيمرّ عليه الماء، ثم يتفرّق في جميع مصر، فيكونوا فيه شَرَعاً ففعلوا؛ فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من النيل؛ ونقل تابوته بعد أربعمئة سنة إلى بيت المقدس، فدفنوه مع آبائه لدعوته: ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام. وعن الحسن قال: أُلقي يوسف في الجُبِّ وهو أبْن سبع عشرة سنة، وكان في العبودية والسَّجْن والملك ثمانين سنة، ثم جُمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة؛ وكان له من الولد لإفرائيم، ومنشا، ورحمة، وزوجة أيوب؛ في قول أبْن لَهِيعة. قال الزَّهْرِي: وولد لإفرائيم - بن يوسف - نون بن إفرائيم، وولد لنون يوشع؛ فهو يوشع بن نون، وهو فتى موسى الذي كان معه صاحب أمره، ونبأه الله في زمن موسى عليه السلام؛ فكان بعده نبياً، وهو الذي أفتتح أريحا، وقُتل من كان بها من الجبابرة، وأستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم في «المائدة»^(٢). وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا، قبل موسى بن عمران. وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذي طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه، والعالم هو الذي خرق

(١) راجع ٨٦/٢ فما بعد.

(٢) راجع ١٣٠/٦ فما بعد.

السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن. ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

[١٠٢] ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

[١٠٣] ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٠٤] ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثانٍ. قال الزجاج: ويجوز أن يكون «ذَلِكَ» بمعنى الذي، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبره؛ أي الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعني هو الذي قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي نعلمك بوحى هذا إليك. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي مع إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ في إلقاء يوسف في الجب. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي بيوسف في إلقائه في الجب. وقيل: «يَمْكُرُونَ» يبعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخاً بالدم؛ أي ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فنزلت الآية تسلياً للنبي ﷺ؛ أي ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول: حَرَصَ يَحْرِصُ، مثل: ضَرَبَ يَضْرِبُ. وفي لغة ضعيفة حَرَصَ يَحْرِصُ مثل حَمِدَ يَحْمَدُ. والحِرْصُ طلب الشيء باختيار^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «من» صلة؛ أي ماتسألهم جُعلا. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو؛ يعني القرآن والوحي. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي عظة وتذكرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.

(١) قال الراغب في مفردات القرآن: الحرص فرط الشره وفرط الإرادة.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥).

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ (١٠٦).

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال الخليل وسيبويه: هي «أي» دخل عليها كاف التشبيه وبُنيَت معها، فصار في الكلام معنى كَمْ، وقد مضى في «آل عمران»^(١) القول فيها مستوفى. ومضى القول في آية «السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» في «البقرة»^(٢). وقيل: الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها. وقرأ عكرمة وعمر بن فائد «وَالْأَرْضُ» رفعا ابتداء، وخبره. ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾. وقرأ السدي «وَالْأَرْضُ» نصباً بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على «السموات». وقرأ ابن مسعود: «يمشون عليها».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ نزلت في قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها، وهم يعبدون الأوثان؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشَّعْبِي وأكثَرُ المفسرين. وقال عكرمة هو قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٣) ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أنداداً؛ وعن الحسن أيضاً: أنهم أهل كتاب معهم شرك وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد ﷺ؛ فلا يصح إيمانهم؛ حكاه ابن الأنباري. وقال ابن عباس: نزلت في تلبية مشركي العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وعنه أيضاً أنهم النصارى. وعنه أيضاً أنهم المشبهة، آمنوا مجملًا وأشركوا

(١) راجع ٢٢٨/٤ فما بعد. (٢) راجع ١٩٢/٢ فما بعد.

(٣) راجع ١٢٣/١٦.

مُفْصَّلًا. وقيل: نزلت في المنافقين؛ المعنى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردي عن الحسن أيضاً. وقال عطاء: هذا في الدعاء؛ وذلك أن الكفار يَسْتَوْنَ ربهم في الرِّخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء؛ بيانه: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾^(١) الآية. وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾^(٢) الآية. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾^(٣). وقيل: معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب.

قلت: وقد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقيل: نزلت هذه الآية في قصة الدُّخَان؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخَان في سِنِّي القَحْط قالوا: ﴿رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾^(٤) فذلك إيمانهم، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب؛ بيانه قوله: ﴿إِنكُم عَائِدُونَ﴾ والعود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى: ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي إلا وهم عائدون [إلى الشرك]^(٥)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: مُجَلَّلَةٌ^(٦). وقال مجاهد: عذاب يغشاهم؛ نظيره. ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^(٧). وقال قتادة: وقية تقع لهم. وقال الضحَّاك: يعني الصَّوَاعِقُ والقَوَارِع. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني القيامة. ﴿بَغْتَةً﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر. وقال المبرد: جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم: وقع أمر بغتة وفجأة؛ قال النحاس: ومعنى. ﴿بَغْتَةً﴾ إصابته^(٨) من حيث لم يتوقع. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو توكيد. وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ قال ابن عباس: تصيح الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم، كما قال: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ على ما يأتي^(٩).

(١) راجع ٣٢٥/٨ و ٣١٧. (٢) راجع ٣٧٣/١٥ و ٣٨. (٣) راجع ١٦/١٣٢.

(٤) من ع، وفي ع: أصابهم. (٥) مجلة: عامة التغطية. (٦) راجع ١٣/٣٥٦.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر؛ أي قل يا محمد هذه طريقي وسُتَي ومنهَاجي؛ قاله ابن زيد. وقال الربيع: دعوتي. مقاتل: ديني، والمعنى واحد؛ أي الذي أنا عليه وأدعو إليه يؤدي إلى الجنة. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين وحق؛ ومنه: فلان مستبصر بهذا. ﴿أَنَا﴾ توكيد. ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على المضمر. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ». ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أنداداً.

[١٠٩] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[١١٠] ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ^(١) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ هذا رد على القائلين: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾^(٢) أي أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جني ولا ملك؛ وهذا يرد ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في النساء أربع نبيات حواء وآسية وأم موسى ومريم». وقد تقدم في «آل عمران»^(٣) شيء من هذا. ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ يريد المدائن؛ ولم يبعث الله نبياً من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن. وقال قتادة: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم. وقال العلماء: من شرط الرسول أن يكون رجلاً آدمياً مدنياً؛ وإنما قالوا آدمياً تحرزاً؛ من قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٤) والله أعلم.

(١) وقراءة نافع والجمهور: يوحى. بالبناء للمجهول.

(٢) راجع ٣٩٣/٦.

(٣) راجع ٨/١٩ فما بعد.

(٤) راجع ٨٢/٤ فما بعد. ٢٥١/٦.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم فاعتبروا. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ابتداء وخبره. وزعم الفراء أن الدار هي الآخرة؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ، كيوم الخميس، وبارحة الأولى؛ قال الشاعر:

ولو أَقَوْتُ عَلَيْكَ دِيَارُ عَسٍ^(١) عَرَفْتَ الدُّلَّ عِرْفَانِ الْيَقِينِ

أي عرفانا يقيناً؛ واحتج الكسائي بقولهم: صلاة الأولى؛ واحتج الأخفش بمسجد الجامع. قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به؛ والأجود الصلاة الأولى، ومن قال صلاة الأولى فمعناه: عند صلاة الفريضة الأولى؛ وإنما سميت الأولى لأنها أول ما صُلي حين فرضت الصلاة، وأول ما أظهر؛ فلذلك قيل لها أيضاً الظهر. والتقدير: ولدار الحال الآخرة خير، وهذا قول البصريين؛ والمراد بهذه الدار الجنة؛ أي هي خير للمتقين. وقرئ: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾. وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. الباكون بالياء على الخبر.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه^(٢). ﴿وَوُظُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف عليه لثلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجلاً ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب^(٣). ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ أي يسوا من إيمان قومهم. ﴿وَوُظُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ بالتشديد؛ أي أيقنوا أن قومهم كذَّبُوهم. وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذَّبُوهم، لا أَنَّ الْقَوْمَ كَذَّبُوا، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا أنهم يكذبونهم؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك؛ فيكون ﴿وَوُظُّوا﴾ على بابه في هذا التأويل. وقرأ ابن عباس وأبن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء العطاردي وعاصم وحمزة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش وخلف ﴿كُذِّبُوا﴾ بالتخفيف؛ أي ظنَّ القوم أن الرسل كذَّبُوهم فيما أخبروا به من العذاب،

(١) وفي رواية: «فإنك لو حلت ديار عس»، في ع و ك و ي: عرفت الدار. (٢) راجع ص ٢٤١ من هذا الجزء. (٣) من ع و حـ الجمل عن القرطبي. وفي أ و حـ و ك و ي: بالعقاب.

ولم يَصْدُقُوا. وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَّبُوا فيما وعدوا به من نصرهم. وفي رواية عن ابن عباس؛ ظنّ الرسل أن الله أخلف ما وعدهم. وقيل: لم تصح هذه الرواية؛ لأنه لا يظنّ بالرسل هذا الظنّ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحقّ النصر؛ فكيف قال: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾؟! قال القشيري أبو نصر: ولا يبعد إن صحّت الرواية أن المراد خطر بقلوب الرسل^(١) هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم؛ وفي الخبر: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمل به». ويجوز أن يقال: قربوا من ذلك الظنّ؛ كقولك: بلغت المنزل، أي قربت منه. وذكر الثعلبي والنحاس عن ابن عباس قال: كانوا بشراً فضعفوا من طول البلاء، ونسوا وظنّوا أَنَّهُمْ أَخْلَفُوا؛ ثم تلا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾^(٢). وقال الترمذي الحكيم: وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر، لا من تهمة لوعده الله، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثًا يَنْقُضُ ذَلِكَ الشَّرْطَ والعهد الذي عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت [عليهم]^(٣) المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه. وقال المهدوي عن ابن عباس: ظنّت الرسل أنهم قد أَخْلَفُوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّبُ الْمَوْتَى﴾^(٤) الآية. والقراءة الأولى أولى. وقرأ مجاهد وحيد - «قَدْ كَذَّبُوا» بفتح الكاف والذال مُخَفَّفًا، على معنى: وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَّبُوا، لما رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ في تأخير العذاب. ويجوز أن يكون المعنى: و [لما] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَّبُوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا. وفي البخاري عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ قال قلت: أَكُذِّبُوا أم كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبُوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كَذَّبُوهم فما هو بالظنّ؟ قالت: أَجَلْ! لعمرى! لقد استيقنوا بذلك؛ فقلت لها: ﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء، وأستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل]^(٥)

(١) من ع. وهو الصواب، وفي غيرها البشر.

(٢) راجع ٣٣/٣ فما بعد، و ٢٧٣.

(٣) الزيادة من صحيح البخاري.

ممن كذبهم من قومهم، وظننت الرسل أن أتباعهم [قد]^(١) كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ قولان: أحدهما - جاء الرسل نصر الله؛ قاله مجاهد. الثاني - جاء قومهم عذاب الله؛ قاله ابن عباس. ﴿فَنَنْجِي^(٢) مَنْ نَشَاءُ﴾ قيل: الأنبياء ومن آمن معهم. وروي عن عاصم ﴿فَنَنْجِي مَنْ نَشَاءُ﴾ بنون واحدة مفتوحة الياء، و «مَنْ» في موضع رفع، أسم ما لم يسم فاعله؛ وأختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة^(٣). وقرأ ابن مُحَيِّصٍ «فَنَجَا» فعل ماض، و «مَنْ» في موضع رفع لأنه الفاعل، وعلى قراءة الباقيين نصباً على المفعول. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين المشركين.

[١١١] ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي في قصة يوسف وأبيه وإخوته، أو في قصص الأمم. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي فكرة وتذكرة وعظة. ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول. وقال محمد بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سنة، وتوفي أخوه عيسو معه في يوم واحد، وقبرا في قبر واحد؛ فذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى آخر السورة. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أي ما كان القرآن حديثاً يفترى، أو ما كانت هذه القصة حديثاً يفترى. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي [ولكن كان]^(٤) تصديق، ويجوز الرفع بمعنى لكن هو تصديق الذي بين يديه أي ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام، والشرائع والأحكام. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) من ع.

(٢) قراءة نافع وكذا باقي السبعة بنونين ما عدا عاصماً كما يأتي.

(٣) يعني في الرسم.

(٤) من ع وك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [إلى آخرهما] ^(١).

[١] ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ تقدم القول فيها. ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك. ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، وأعمل بما فيه. قال مقاتل: نزلت حين قال المشركون: إن محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه. ﴿وَالَّذِي﴾ في موضع رفع عطفاً على «آيَاتُ» أو على الابتداء، و«الْحَقُّ» خبره؛ ويجوز أن يكون موضعه جراً على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، وارتفاع «الحق» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحق؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ﴾ ^(٢) يعني ذلك الحق. قال الفراء: وإن شئت جعلت «الَّذِي» خفصاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتاننا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق؛ ومنه قول الشاعر:

إلى الملكِ القَرْمِ وأبْنِ الهَمَامِ وَلَيْتَ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحِمِ ^(٣)

يريد: إلى الملك القرم بن الهمام، ليت الكتبية. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) الزيادة من تفسير البحر.

(٢) راجع ١٦٢/٢ فما بعد.

(٣) القرم (بفتح القاف): السيد؛ والكتبية: الجيش، والمردحم: محل الازدحام.

[٢] ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَآؤَ رَبِّكُمْ تَوْفَئُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية. لما بين تعالى أن القرآن حق، بين أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدّم هذا المعنى. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قولان: أحدهما - أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما. الثاني - لها عمد، ولكننا لا نراها؛ قال ابن عباس: لها عمد على جبل قاف؛ ويمكن أن يقال على هذا القول: العمد قدرته التي يُمسك بها السموات والأرض، وهي غير مرئية لنا؛ ذكره الزجاج. وقال ابن عباس أيضاً: هي توحيد المؤمن. أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغزنوي. والعمد جمع عمود؛ قال النابغة:

وَحَيْسَ الْجِنَّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَذْمُرَ بِالصَّفَّاحِ وَالْعَمَدِ^(١)

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدّم الكلام فيه^(٢). ﴿وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عبادته؛ وكل مخلوق مُدَلّل للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التي عندها تُكوّر الشمس، ويُخسف القمر، وتنكدر النجوم، وتنتثر الكواكب. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها. وقيل: معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلّكه في شهر، والشمس في سنة. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي يُبينها؛ أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَآؤَ رَبِّكُمْ تَوْفَئُونَ﴾.

(١) ويروي: وخبر الجن. وخيس: ذل؛ وتدمر: بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام. والصفاح حجارة عراض رقاق. وعمد: جمع عمود.

(٢) راجع ٢١٩/٧.

[٣] ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشَّى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ لما بين آيات السموات بين آيات الأرض؛ أي بسط الأرض طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبلاً ثوابت؛ واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسوبها، أي تثبت؛ والإرساء الثبوت؛ قال عنترة:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حُرَّةً تَرُسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ^(١)

وقال جميل:

أَحِبُّهَا وَالَّذِي أَرْضَى قَوَاعِدَهُ حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطَنًا

وقال ابن عباس وعطاء: أوّل جبل وُضع على الأرض أبو قبيس^(٢).

مسألة - في هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة، وردّ على من زعم أن الأرض تهوي أبوابها عليها؛ وزعم ابن الرّاوندي أن تحت الأرض جسماً صعباً كالريّج الصّعب؛ وهي منحدره فاعتدل الهاوي والصّعادي في الجرم والقوة فتوافقا. وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين، أحدهما منحدر، والآخر مصعد، فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدها، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي مياهاً جارية في الأرض، فيها منافع الخلق. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ بمعنى صنفين. قال أبو عبيدة: الزوج واحد، ويكون اثنين. الفراء: يعني بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى؛ وهذا خلاف

(١) قبل البيت:

لا ينجني منها الفرار الأسرع

وعرفت أن منيبي إن تأسني

(٢) أبو قبيس: جبل مشرف على مسجد مكة.

النص. وقيل: معنى «زَوَجَيْنِ» نوعان، كالحُلُو والحامض، والرطب واليابس، والأبيض والأسود، والصغير والكبير. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[٤] ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾^(١) والمعنى: وتقيكم البرد، ثم حذف لعلم السامع. والمتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

الثانية - قوله تعالى: ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي قُرَى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والثمار؛ فيكون البعض حُلُوًّا، والبعض حامضاً؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغير والكبير واللون والمطعم، وإن أنبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضلَّ عن معرفته؛ فإنه نَبَّه سبحانه بقوله: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع؛ فمن تربة عذبة، ومن تربة سيخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته؛ جلَّ وعزَّ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علُوًّا كبيراً.

الثالثة - ذهب الكفرة - لعنهم الله - إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وادّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض. وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً؛ والدليل على أن الحادث لا بدّ له من مُحدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مُخصّص خصّصه به، ولو لا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وأستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ﴾ قرأ الحسن «وَجَنَّاتٍ بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيً﴾. ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات. الباقون: «جَنَّاتٍ» بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. ﴿وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صُنُونٍ وَغَيْرُ صُنُونٍ﴾ بالرفع. ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجنات؛ أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسْقاً على الأغاب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنَّات؛ ويجوز أن يكون معطوفاً على «كُلِّ» حسب ما تقدّم في «وجنات». وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما «صُنُونٍ» بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتان؛ وهما جمع صنو، وهي النَّخْلَتان والنَّخْلَتان، يجمعهنَّ أصلٌ واحد، وتشعب منه رءوس فتصير نخيلاً؛ نظيرها قنوان، واحدها قنو وروى أبو إسحاق عن البراء قال: الصُّنُون المجتمع، وغير الصُّنُون المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صُنُون. والصُّنُو المثل؛ ومنه قول النبي ﷺ: «عَمُّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ». ولا فرق فيها بين التثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية؛ قال الشاعر:

العلم والحلم خُلَّتَا كَرَمَ للمرء زينٌ إذا هُما اجْتَمَعَا

صُنُونٍ لَا يُسْتَتَمُ حُسْنُهُمَا إلّا بجمع ذا وذاك معاً

الخامسة - قوله تعالى: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخاري. وقرأ عاصم وابن عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي يُسقى ذلك كله. وقرأ الباقون بالتاء، لقوله: «جَنَّاتٌ» واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة؛ قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن؛ لقوله: ﴿وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ولم يقل بعضه. وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما «وَيُفْضَلُ» بالياء ردأً على قوله: «يُدَبَّرُ الْأَمْرُ» و«يُفْضَلُ» و«يُنْشَى» الباقون بالنون على معنى: ونحن نفضل. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول لعلي رضي الله عنه: «الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ و«الْأُكُلِ» الثمر. قال ابن عباس: يعني الحلو والحامض والفارسي^(١) والدَّقَل^(٢). وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: «الفارسي والدَّقَل والحلو والحامض» ذكره الثعلبي. قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر:

النَّاسُ كَالنَّبْتِ وَالنَّبْتُ أَلْوَانُ مِنْهَا شَجَرُ الصَّنَدَلِ وَالْكَافُورِ وَالْبَانِ

ومنها شجر ينضج طول الدهر قطران

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى.

[٥] ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(١) التمر الفارسي: نوع جيد نسبة إلى فارس.

(٢) الدقل: رديء التمر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ والله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب؛ لأنه تغيّر النفس بما تخفى أسبابه^(١)؛ وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيّه والمؤمنون. وقيل المعنى: أي إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء. وقيل: الآية في منكري الصانع؛ أي إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير فهو محل التعجب؛ ونظم الآية يدلّ على الأول والثاني؛ لقوله: ﴿أَنْذَا كُنَّا تَرَابًا﴾ أي أنبعت إذا كنا تراباً؟ ١. ﴿أَنْثَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقرئ «إِنَّا». و ﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غلّ؛ وهو طوق تشد به اليد إلى العنق، أي يُغْلَوْنَ يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾. وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم.

- [٦] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٣).
- [٧] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٥). قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: «قَبْلَ الْحَسَنَةِ» أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات. و «الْمَثَلَاتُ» العقوبات؛ الواحدة مثلة. وروي عن الأعمش أنه قرأ «الْمَثَلَاتُ» بضم الميم وإسكان التاء؛ وهذا جمع مثلة، ويجوز

(١) في حـ الجمل عن القرطبي: العجب تغير النفس بما تخفى أسبابه وذلك في حق الله تعالى محال.

(٢) راجع ٣٣٢/١٥. (٣) راجع ٣٩٨/٧.

«الْمَثَلَاتِ» تبدل من الضمة فتحة لثقلها، وقيل: يُؤْتَى بالفتحة عوضاً من الهاء. وروى عن الأعمش أنه قرأ «الْمَثَلَاتِ» بفتح الميم وإسكان الشاء؛ فهذا جمع مُثْلَةٌ، ثم حَذَف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله. وعلى قراءة الجماعة واحده مُثْلَةٌ، نحو صَدُوقَةٍ [وَصُدُوقَةٍ]^(١)؛ وتميم تضم الشاء والميم جميعاً، واحدها على لغتهم مُثْلَةٌ، بضم الميم وجزم الشاء؛ مثل: غُرْفَةٌ وَغُرُفَاتٍ؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثَلُ مَثَلًا، بفتح الميم وسكون الشاء. «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ» أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أُرْجَى آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ». «وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» إذا أصرّوا على الكفر. وروى حمّاد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال: لما نزلت: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنا أحداً عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لا تكّل كل أحد».

قوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا» أي هلا «أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ». لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» أي مُعَلِّم. «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أي نبي يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله؛ أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

[٨] «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾».

[٩] «عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾».

فيه ثمان مسائل:

الأولى - قوله تعالى: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ» أي من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة «الأنعام»^(٢) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) من أ.

(٢) راجع ١/٧ فما بعد.

لا شريك له؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس» الحديث. وفيه «لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله». وأختلف العلماء في تأويل قوله: «وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ» فقال قتادة: المعنى ما تُسْقِط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ابن عباس. وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإن زادت على التسعة كان تماماً لما نقص؛ وعنه: الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه. وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها. وقيل: الغيض انقطاع دم الحيض. «وَمَا تَزْدَادُ» بدم النفاس بعد الوضع.

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض؛ وبه قال أبو حنيفة؛ ودليله الآية. قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حُضْنَ أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع؛ قاله^(١) ابن القصار. وذكر أن رجلين تنازعا ولداً، فترافعا إلى عمر رضي الله عنه فعرضه على القافة، فألحقه القافة بهما، فعلاه عمر بالدرة، وسأل نسوة من قریش فقال: أَنْظُرْنَ ما شأن هذا الولد؟ فقلن: إن الأول خلا بها وخلاها، فحاضت على الحمل، فظننت أن عِدَّتْها انقضت؛ فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني؛ فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدل أنه إجماع، والله أعلم. احتج المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صحَّ استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع. وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر.

(١) في الطبعة الأولى: قاله ابن عباس قال ابن القصار. وليست عبارة الأصول كذلك لهذا حذفناها.

الرابعة - وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعله نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطية.

الخامسة - وأختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظل المغزل؛ ذكره الدارقطني. وقالت جميلة بنت سعد - أخت عبيد بن سعد، وعن الليث بن سعد -: إن أكثره ثلاث سنين. وعن الشافعي أربع سنين؛ وروي عن مالك في إحدى روايته، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروي عنه لا حد له، ولوزاد على العشرة الأعوام؛ وهي الرواية الثالثة عنه. وعن الزهري ست وسبع. قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي؛ مدة الغاية منها أربع سنين. والكوفيون يقولون: ستان لا غير. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها. قال أبو عمر: وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عُرِف من أمر النساء وبالله التوفيق. روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل المغزل، فقال: سبحان الله! من يقول هذا؟! هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين. وذكره عن^(١) المبارك ابن مجاهد قال: مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حاملة الفيل. وروي أيضاً قال: بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى! أدع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء! ثم قرأ، ثم دعا، ثم قال: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها [بها]^(٢) غلاماً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك

(١) من أ. وفي و: ابن المبارك.

أم الكتاب، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرك امرأتك، فذهب الرجل؛ فما حطَّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْدَ قَطَطٌ^(١)، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطِعَتْ سراره^(٢)؛ ورؤي أيضاً أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! إنني غبت عن امرأتي ستين فجئت وهي حبلى؛ فشاور عمر الناس في رجمها، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل؛ فتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاماً قد خرجت ثنيتاه؛ فعرف الرجل الشبه فقال: ابني ورب الكعبة!؛ فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ؛ لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحّاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها ستين، فولدتني وقد خرجت سني. ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أمه ستين، وقيل: ثلاث سنين. ويقال: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً، فشقَّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حماد بن سلمة؛ إنما سمي هَرَمَ بن حيان هَرَمًا لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين. وذكر الغزنوي أن الضحّاك وُلد لستين، وقد طلعت سِنّه فسُمّي ضحّاكاً. عبّاد بن العوّام: ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاماً شعره إلى منكبيه، فمرَّ به طير فقال: كش.

السادسة - قال ابن خُوَيْزِمَنَدَاد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقدر ما أظهره لنا، ووجد ظاهراً في النساء نادراً أو معتاداً؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك، والنفاس والحيض لَمَّا لم نجد فيه أمراً مستقراً رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهن^(٣).

السابعة - قال ابن العربي: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قط إلا هالكبي، وهم الطبايعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل

(١) جعد قطط؛ شديد الجمودة.

(٢) سرر الصبي: ما تقطعه القابلة.

(٣) قال محققه: ورد في الحديث أقل الحيض وأكثره؛ روى الطبراني عن أبي أمامة عنه عليه السلام وأقل الحيض ثلاث وأكثره عشرة؛ ورواه الربيع بن حبيب في مسنده عن أنس.

في الرَّجْمِ الكواكب السبعة؛ تأخذه شهراً شهراً، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتحرك ويضطرب، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فَيَبْقِيهِ بِبَرْدِهِ؛ فَيَا لَيْتَنِي تَمَكَّنْتُ مِنْ مَنَاطِرَتِهِمْ أَوْ مَقَاتِلَتِهِمْ! ما بال المرجع بعد تمام الدَّور يكون إلى زُحل دون غيره؟ الله أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثاً؟! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة!.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار» قدر خروج الولد من بطن أمه، وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه. وقال قتادة: في الرزق والأجل. والمقدار القدر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم.

قلت: هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبه سبحانه على أنفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُركوا وما هم عليه، ولم يَقْدَحْ ذلك في الممدوح؛ فإن العادة يجوز أنكسارها، والعلم لا يجوز تبدله. و﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله.

[١٠] ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ إسرار القول: ما حدث به المرء نفسه، والجهر ما حدث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. و «مِنْكُمْ» يحتمل أن يكون وصفاً لـ «سواء» التقدير: سِرٌّ مِّنْ أَسَرٍّ وَجَهْرٌ مِّنْ جَهْرٍ سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق «بسواء» على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سِرٌّ مِّنْ أَسَرٍّ منكم وَجَهْرٌ مِّنْ جَهْرٍ منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول: عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل. وقيل: «سواء» أي مستو، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف. «وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ» أي يستوي في علم الله السر والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات. وقال الأخفش وقُطِرْبُ: المستخفي بالليل الظاهر؛ ومنه خَفِيتُ الشيء وأخْفَيْتُهُ أي أظهرته؛ وأخفيت الشيء أي أسترته؛ ومنه قِيلَ لِلنَّبَّاشِ: المختفي. وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ^(١) كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدَقٌّ مِنْ عَشِيٍّ مُّجَلَّبٍ

والسَّارِبِ المتواري، أي الداخل سرباً؛ ومنه قولهم: أَسْرَبَ الوحشيُّ إذا دخل في كِنَاسِهِ، وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ» مستتر، «وَسَارِبٌ» ظاهر. مجاهد: «مُسْتَخْفٍ» بالمعاصي، «وَسَارِبٌ» ظاهر. وقيل: معنى «سَارِبٌ» ذاهب؛ [قال]^(٢) الكسائي: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَباً وَسُرُوباً إذا ذهب؛ وقال الشاعر^(٣):

وَكُلُّ أَنْاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ

أي ذاهب. وقال أبو رجاء: السَّارِبِ الذاهب على وجهه في الأرض؛ قال الشاعر^(٤):

أَتَى سَرَبْتٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سُرُوبٍ

وقال القُتَيْبِيُّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ» أي منصرف في حوائجه بسرعة؛ من قولهم: أَسْرَبَ الماء. وقال الأصمعي: خَلَّ سِرْبُهُ أي طريقه.

(١) أنفاق (جمع نفق): وهو سرب في الأرض إلى موضع آخر، واستعاره امرؤ القيس لحجرة القارة والودق: المطر. وغيث مجلب: مصوت، ويروى مجلب (بالحاء).

(٢) من أودود.

(٣) هو الأحنس بن شهاب التغلبي ويريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النقلة، وحسبوا فحلهم عن أن يتقدم فتبعه إبلهم خوفاً أن يغار عليها، ونحن أعزاء خلعتنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء.

(٤) هو قيس بن الخطيم، وتعام البيت:

وتقرب الأحلام غير قريب

[١١] ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنِّ وَّالِ ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. وقال: «مُعَقِّبَاتٌ» والملائكة ذُكران لأنه جمع مُعَقِّبَةٌ؛ يقال: مَلَكَ مُعَقِّبٌ، وملائكة مُعَقِّبَةٌ، ثم مُعَقِّبَاتٌ جمع الجمع. وقرأ بعضهم - «لَهُ مَعَاقِبُ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ». ومعاقِب جمع مُعَقِّبٌ^(١)؛ وقيل للملائكة مُعَقِّبَةٌ على لفظ الملائكة. وقيل: أتت لكثرة ذلك منهم؛ نحو نَسَابَةٌ وعلامة وراوية؛ قاله الجوهري وغيره. والتعقب العود بعد البعد؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾^(٢) أي لم يرجع؛ وفي الحديث^(٣): «مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أو - فاعِلُهُنَّ» فذكر التسبيح والتحميد والتكبير. قال أبو الهيثم: سُمِّيْنَ «مُعَقِّبَاتٌ» لأنهن عادت مرة بعد مرة، فعمل من عَمِلَ عَمَلًا ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ. والمُعَقِّبَاتُ من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعترِكَات على الحوض؛ فإذا أنصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى. وقوله: ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي المستخفي بالليل والسارب بالنهار. «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» اختلف في [هذا]^(٤) الحفظ؛ فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفاً منه به، فإذا جاء القَدَرُ خلّوا بينه وبينه؛ قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. قال أبو مجلز: جاء رجل من مرَاد^(٥) إلى علي فقال: احترس فإن ناساً من مُرَاد يريدون قتلك؛ فقال: إن مع كل

(١) قال الزمخشري: جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير. وقال ابن جني: إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعم، كأنه جمع على معاقبة، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها؛ قال الألويسي: ولعله الأظهر. «روح المعاني».

(٢) راجع ١٣/١٦٠.

(٣) الحديث في الدعاء وهو بتمامه في «صحيح مسلم»: «معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة». سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة، أو لأنها تقال عقب كل صلاة.

(٤) من أحوو.

(٥) مراد (بالضم وآخره دال مهملة): قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها.

رجل ملكين يحفظانه ما لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلِيًّا بينه وبين قَدَرِ الله، وإن الأجل حصن حصينة؛ وعلى هذا، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي بأمر الله وبإذنه؛ فـ«مِنْ» بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقيل: «مِنْ» بمعنى «عن»؛ أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول؛ أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم؛ وهذا قول الحسن؛ تقول: كسوته عن عُرَى ومن عُرَى؛ ومنه قوله عز وجل: ﴿أَطَعْتَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾^(١) أي عن جوع. وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحل به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من التَّعْمة والعافية حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصرُّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم التَّعْمة، وتزول عنهم الحَقْظَةُ المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجن؛ قال كعب: لولا أن الله وكلَّ بكم ملائكة يَذُبُّونَ عنكم في مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ وعوراتكم لَتَخَطَّفْتَكُمُ الْجِنُّ. وملائكة العذاب من أمر الله؛ وخصَّهم بأن قال: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ لأنهم غير معائنين؛ كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢) أي ليس مما تشاهدونه أنتم. وقال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه؛ وهو مروى عن مجاهد وأبن جريج والنَّخعي؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجن من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير. وقال ابن جريج: إن المعنى يحفظون عليه عمله، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقواله وأفعاله. ويجوز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الهاء في «له» لله عز وجل، كما ذكرنا؛ ويجوز أن تكون للمستخفي، فهذا قول. وقيل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني به النبي ﷺ؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه؛ وقد جرى ذكر الرسول في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أي سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به في أنه لا يضرَّ النبي ﷺ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه. وقول رابع - أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

(١) راجع ٢٠٩/٢٠.

(٢) راجع ٣٢٣/١٠.

يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئاً؛ قاله ابن عباس وعِكرمة؛ وكذلك قال الضحاك: هو السلطان المتحرّس من أمر الله، المشرك. وقد قيل: إن في الكلام على هذا التأويل نفيّاً محذوفاً؛ تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوردي. قال المهدوي: ومن جعل المعقبات الحرس فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه. وقيل: سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أن ينجم فيه وعظ؛ قال القشيري: وهذا لا يمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غيّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سبباً للعقوبة فكانه الذي يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من أمثال أمر الله. وقال عبد الرحمن زيد: المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته؛ قال الماوردي: ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وجهان: أحدهما - يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل؛ قاله الضحاك. الثاني - يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية، ما لم يأت قدر؛ قاله أبو أمامة وكعب الأحرار - فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وأبن جريج؛ ورؤي عن ابن عباس، واختاره النحاس، وأحتج بقول النبي ﷺ: «يتعاقبون»^(١) فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار الحديث، رواه الأئمة. وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ - «معقبات من بين يديه ورفاء من خلفه» [من أمر^(٢) الله] يحفظونه؛ فهذا قد بيّن المعنى. وقال كُثَّانَةُ الْعَدَوِّي: دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: «ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كُتبت عشراً وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثاً قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الحديث في ابن عطية: «يتعاقب فيكم ملائكة» والبحث في رواية القرطبي سنداً ومتناً في العسقلاني ٢٨/٢.

(٢) الزيادة من «تفسير الطبري».

فبئس القرين هو ما أقل مراقبته لله عز وجل وأقل أستحياءه منا يقول الله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١) وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك]^(٢) وملكان على شفئك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل. ذكره الثعلبي. قال الحسن: المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر. واختيار الطبري: أن المعقبات الموابك بين أيدي الأمراء وخلفهم؛ والهاء في «له» لهن؛ على ما تقدم. وقال العلماء رضوان الله عليهم: إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين: أحدهما - قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره. والآخر - قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال ﷺ - وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون؟ قال -: «نعم إذا كثُر الخُبث»^(٣). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي هلاكاً وعذاباً، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾. وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مرد لبلائه. وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى

(١) راجع ١١/١٧.

(٢) الزيادة من «تفسير الطبري» وغيره.

(٣) المراد بالخُبث الفسق والفجور.

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حنفة بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي ملجأ؛ وهو معنى قول الشدي. وقيل: من ناصر يمنهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمن من والٍ

ووالٍ ووليّ كقادر وقدير.

- [١٢] ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.
- [١٣] ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي بالمطر. «والسحاب» جمع، والواحدة سحابة، وسُحِبَ وسَحَابٌ في الجمع أيضاً. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة»^(١) القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز؛ أي يريكم البرق في السماء خوفاً للمسافر، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذَى مِنْ مَطَرٍ﴾^(٢) وطمعاً للحاضر أن يكون عقبه مطر وخضب؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما. وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيئه المزيل للقطر. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ قال مجاهد: أي بالماء. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يُسَبِّحُ الرعد بدليل خلق الحياة فيه؛ ودليل صحة هذا القول قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ فلو كان الرعد ملكاً لدخل في جملة الملائكة. ومن قال إنه ملك قال: معنى. ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ من خيفة الله؛ قاله الطبري وغيره. قال ابن عباس: إن الملائكة

(١) راجع ٢١٦/١ فما بعد.

(٢) راجع ٣٧٢/٥.

خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحد منهم مَنْ على يمينه وَمَنْ على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال: الرَّعْدُ مَلَكٌ يَسُوقُ السَّحَابَ، وَإِنْ بخار الماء لفي نُفْرَةٍ إِبْهَامِهِ، وَأَنَّهُ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ يَصْرِفُهُ حَيْثُ يُمْرُ، وَأَنَّهُ يَسْبِغُ اللهُ؛ فَإِذَا سَبَّحَ الرَّعْدُ لَمْ يَبْقَ مَلَكٌ فِي السَّمَاءِ إِلَّا رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّسْبِيحِ، فَعِنْدَهَا يَنْزِلُ الْقَطَرُ، وَعَنهُ أَيْضاً كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ قَالَ: سَبْحَانَ الَّذِي سَبَّحْتَ لَهُ. وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ قَالَ: سَبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مَلَكٌ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَعَنْ يَمِينِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلُ ذَلِكَ؛ فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى يَمِينِهِ وَسَبَّحَ سَبَّحَ الْجَمِيعُ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى يَسَارِهِ وَسَبَّحَ سَبَّحَ الْجَمِيعُ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ. ﴿وَيُزِيلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذَكَرَ الْمَاورِدِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُجَاهِدٍ: نَزَلَتْ فِي يَهُودِيٍّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَخْبِرْنِي! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ رَبُّكَ، أَمِنْ لَوْلَا أَمْ مِنْ يَاقُوتٍ؟ فَجَاءَتْ صَاعِقَةٌ فَأَحْرَقَتْهُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي بَعْضِ كَفَّارِ الْعَرَبِ؛ قَالَ الْحَسَنُ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ طَوَاغِيتِ الْعَرَبِ بَعَثَ النَّبِيَّ ﷺ نَفَرًا يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي عَنْ رَبِّ مُحَمَّدٍ مَا هُوَ، وَمِمَّ هُوَ، أَمِنْ فِضَّةٍ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ أَمْ مِنْ نَحَاسٍ؟ فَاسْتَعْظَمَ الْقَوْمُ مَقَالَتَهُ؛ فَقَالَ أُجِيبُ مُحَمَّدًا إِلَى رَبِّ لَا يَعْرِفُهُ! فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ مَرَارًا وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ هَذَا؛ فَبَيْنَا التَّفَرُّقُ يَنَازَعُونَهُ وَيَدْعُوهُ إِذْ أَرْتَفَعَتْ سَحَابَةٌ فَكَانَتْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ، فَرَعَدَتْ وَأَبْرَقَتْ وَرَمَتْ بِصَاعِقَةٍ، فَأَحْرَقَتْ الْكَافِرَ وَهُمْ جُلُوسٌ؛ فَرَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَقْبَلَهُمْ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: أَحْتَرَقَ صَاحِبُكُمْ، فَقَالُوا: مَنْ أَيْنَ عَلِمْتُمْ؟ قَالُوا: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. ﴿وَيُزِيلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾. ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ عَنْ الْحَسَنِ؛ وَالْقَشِيرِيُّ بِمَعْنَاهُ عَنْ أَنَسٍ، وَسَيَّاتِي. وَقِيلَ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي أَرْبَدِ بْنِ رَبِيعَةَ أَخِي لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَفِي عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَقْبَلَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَأَزِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ

العامريان يريدان النبي ﷺ وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلوا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: «هذا يا رسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك؛ فقال: «دَعَهُ فَإِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُهْدِهِ» فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد مالي إن أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين». قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء». قال: أتجعلني على الوَيْرِ وأنت على المَدَرِ؟ قال: «لا». قال: فما تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أَعِنَّةَ الْخَيْلِ تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أَعِنَّةُ الْخَيْلِ اليوم؟ قم معي أكلمك؛ فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر أوماً إلى أَرَبْدَ: إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه وأضربه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبي ﷺ ويراجعه؛ فاخترط أَرَبْدَ من سيفه شبراً ثم حبسه الله، فلم يقدر على سَلِّهِ، ويَسْتِ يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائِفٍ صَاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد! دعوت ربك على أَرَبْدَ حتى قتلت؛ والله لأملائها عليك خيلاً جُرْداً، وفتياناً مُردّاً؛ فقال عليه السلام: «يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلَةٍ» يعني الأوس والخزرج؛ فنزل عامر بيت امرأة سَلُولِيَةٍ؛ وأصبح وهو يقول: والله لئن أَصْحَرَ^(١) لي محمدٌ وصاحبه - يريد مَلِكَ الموت - لأنفذتهما برمحي؛ فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه^(٢) في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمة في الوقت؛ فعاد إلى بيت السَلُولِيَةِ وهو يقول: غُدَّةٌ كغدة البعير، وموت في بيت سَلُولِيَةٍ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره. ورثي لبيد بن ربيعة أخاه أَرَبْدَ فقال:

يا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرَبْدَ إِذْ قُمْتُ سَنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبْدِ^(٣)
أَخْشَى عَلَى أَرَبْدَ الْحُثُوفِ وَلَا أَزْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْفَا رِسَ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ النَّجْدِ^(٤)

(١) أصحرج الرجل: إذا خرج إلى الصحراء.

(٢) أذراه: قلعه ورمى به.

(٣) كبد: شدة وعناء.

(٤) النجد: السريع الإجابة.

وفيه قال:

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رِزْيَةَ مِثْلَهَا
يَا أَرْبَدَ الْخَيْرِ الْكَرِيمِ جُدُودُهُ
فَقَدَانِ كُلُّ أَحْ كَضْوَاءِ الْكَوْكَبِ
أَفْرَدْتَنِي أَمْسِي بِقَرْنٍ أَغْضَبَ^(١)
وَأَسْلَمَ لِيَبْدَ بَعْدَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مسألة - روى أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَأْخُذْ الصَّاعِقَةُ ذَاكِرًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلي ديتة»^(٢). وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال: كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد، فقال لنا كعب: من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإذا بردة^(٣) قد أصابت أنفه فأثرت به، فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذا؟ قال بردة أصابت أنفي فأثرت، فقلت: إن كعباً حين سمع الرعد قال لنا: من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولها؛ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني جدال اليهودي حين سأل عن الله تعالى: من أي شيء هو؟ قاله مجاهد. وقال ابن جريج: جدال أربد فيما هم به من قتل النبي ﷺ. ويجوز أن يكون، ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حالاً، ويجوز أن يكون منقطعاً. وروى أنس أن رسول الله ﷺ بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل، فقال لرسول الله: أخبرني عن إلهك هذا! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس؟

(١) قرن أعضب: مكسور.

(٢) في العبارة سقط والذي في تفسير البغوي: عن ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال. الحديث ثم قال: فإن أصابته صاعقة فعلى ديتة. محققه.

(٣) البرد (بالتحريك): حب الغمام.

(٤) راجع ٢١٦/١ فما بعد.

فاستعظم ذلك؛ فرجع إليه فأعلمه؛ فقال: «أرجع إليه فادعه» فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: «المِحَال» المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق، النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي النقمة. وقال الأزهري: «المحال» أي القوة والشدة. والمحل: الشدة؛ الميم أصلية، وما حلت فلاناً محالاً أي قاوته حتى يتبين أينما أشد. وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكروه. وقال ابن عرفة: «المحال» الجدال؛ يقال: ماحل عن أمره أي جادل. وقال القتيبي: أي شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مهاد وملاك ومراس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو^(١) مثل: مزود ومخول ومخور، وغيرها من الحروف؛ وقال^(٢): «قرأ الأعرج - وهو شديد المحال» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهروي، إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها - شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها - شديد الحول، قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها - شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب. ورابعها - شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها - شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها - شديد الغضب، قاله وهب بن منبه. وسابعها - شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها - شديد الحيلة؛ قاله قتادة. وقال أبو عبيدة معمر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى:

فرع نَبْعٍ يَهْتَرُ فِي غُصْنِ الْمَجْجِ بِكَ كَثِيرَ النَّدى شديد المحال

(١) أي والياء في ذوات الياء كالمعير والمزيل. كما في «اللسان».

(٢) أي الأزهري كما في «اللسان» مادة «محل».

وقال آخر^(١):

وَلَيْسَ بَيْنَ أَقْوَامٍ فُكْلٌ أَعَدَّ لَهُ الشَّغَابُ وَالْمَحَالَا

وقال عبد المطلب:

لَا هُمْ إِنْ الْمَرْءَ يَمُ نَعَّ رَحْلَهُ فَاثْنَعُ حِلَالِكَ^(٢)
لَا يَغْلِبَنَّ صَليُّهُمْ وَمِحَا لَهُمْ عَذْوًا مِحَالِكَ

[١٤] ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(١٤).

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ﴾ أي الله دعوة الصديق. قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: لا إله إلا الله. وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق. وقيل: إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين. وقيل: دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٣)؛ قال الماوردي: وهو أشبه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام والأوثان. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء. ﴿إِلَّا كَبَسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلاً لياسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد؛ قال:

فأصبحتُ فيما كان بيني وبينها من الودِّ مثل القابض الماء باليد

(١) هو ذو الرمة، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى. والليس: الاختلاط. والشغاب، قال الأصمعي: الشغزية ضرب من الحيلة في الصراع؛ وهو أن يدخل الرجل بين رجلين صاحبه فيصرعه؛ والمعنى: فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيداً.

(٢) الحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم سكان الحرم. ويروى: غدوا: الغدو أصل الغدو وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك فحذفت لامه. «اللسان». ويروى: أبداً محالك. البحر.

(٣) راجع ٢٩١/١٠.

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها - أن الذي يدعو إليها من دون الله كالظمان الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء بباليغ إليه؛ قاله مجاهد. الثاني - أنه كالظمان الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو بباليغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس. الثالث - أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه. وزعم الفراء أن المراد بالماء ها هنا البشر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البشر بغير رشاء؛ وشاهده قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي وبشري ذو حفرت وذو طويث

قال علي رضي الله عنه: هو كالعطشان على شفة البشر، فلا يبلغ قعر البشر، ولا الماء يرتفع إليه؛ ومعنى «إِلَّا كَبَّاسِطٍ» إلا كاستجابة باسط كفيه «إِلَى الْمَاءِ» فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء؛ والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء؛ واللام في قوله: «لِيَلْبِغَ فَاهُ» متعلقة بالبسط؛ وقوله: «وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ» كناية عن الماء؛ أي وما الماء بباليغ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم؛ أي ما الفم بباليغ الماء. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال أي يضلّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه سبيلاً؛ كما قال: ﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾^(١) وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم.

[١٥] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ الْغُذُو وَالْأَصَالُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً بالسيف. وعن قتادة أيضاً: يسجد الكافر كرهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجود الكافر كرهاً ما فيه من الخضوع وأثر الصنعة.

وقال ابن زيد: «طوعاً» من دخل في الإسلام رغبة، و«كرهاً» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل: «طوعاً» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و«كرهاً» من يكره نفسه لله تعالى: فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «وَالْأَرْضِ» وبعض من في الأرض. قال القشيري: وفي الآية مسلكان: أحدهما - أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعاً، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء، ذكره الفراء. وقيل على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقة، ولكنهم يتحملون المشقة إخلاصاً وإيماناً، إلى أن يألفوا الحق ويمرنوا عليه. والمسلك الثاني - وهو الصحيح - إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما - أن المؤمن يسجد طوعاً، وأما الكافر فأمور بالسجود مؤاخذ به. والثاني - وهو الحق - أن المؤمن يسجد ببدنه طوعاً، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١) وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. ﴿وَزَلَّالُتْهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريح الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره. وقال ابن الأنباري: يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخضع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القشيري: في هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة أي مالت. و«الآصال» جمع أُصْل، والأصل جمع أصيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلي:

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ وَأَقْعَدُ فِي أَفْيَائِهِ بِالْأَصَائِلِ

و «ظِلَالُهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون أرتفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ التقدير: وظلالهم سُجَّدٌ بالغدو والآصال و «بالغدو» يجوز أن يكون مصدرًا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوِّي كونه جمعاً مقابلة الجمع الذي هو الآصال به .

[١٦] ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعَمَاءَ وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أمره أن يقول [لهم] ^(١): هو الله إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجعلوا مَنْ هو. ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هذا يدل على أعترافهم بأن الله هو الخالق [والإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ معنى؛ دليله قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ^(٢) أي فإذا أعتزتم فلم تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مثل لما عبده من دون الله، والبصير مثل الله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي «يستوي» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقيون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و «الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خلق غير الله مثل

(١) من أو ووحـ.

(٢) راجع ٢٥٨/١٥

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلزم لذلك أن يعبد كل شيء. والآية ردّ على المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ قبل كل شيء. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد. قال القشيري أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أي سلّمهم عن خالق السموات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم، ويقرب الأمر من الضرورة؛ فإن عجز الجماد وعجز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم؛ وإذا تقرّر هذا وبأن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له؟! وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين!؟

[١٧] ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ۞ .

[١٨] ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْفَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاءٌ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا يَلْمَهُوا ﴿١٨﴾ ۞ .

[١٩] ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الرِّيحِ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَفْوَاجًا ۚ أَلَا لَبِئْسَ الْأَلْبَابُ ﴿١٩﴾ ۞ .

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ ضرب مثلاً للحق والباطل؛ فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل، على ما نبّيته. قال مجاهد:

﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ قال: بقدر ملئها. وقال ابن جريج: بقدر صغرها وكبرها. وقرأ الأشهب العُقَيْلي والحسن «بِقَدَرِهَا» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدر لها. والأودية جمع الوادي؛ وسُمي وادياً لخروجه وسيلانه؛ فالوادي على هذا اسم للماء السائل. وقال أبو علي: ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ توسع؛ أي سال ماؤها فحذف، قال: ومعنى «بِقَدَرِهَا» بقدر مياهاها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي طالعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء، وتم الكلام؛ قاله مجاهد. ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وهو المثل الثاني. ﴿أَيْتِفَاءً حَلِيَّةً﴾ أي حلية الذهب والفضة. ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ قال مجاهد: الحديد والنحاس والرصاص. وقوله: ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي يعلو هذه الأشياء زيد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبداً، كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنْبِثُ فِي الْأَرْضِ من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليدوب فيزايله تراب الأرض. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ قال مجاهد: جموداً. وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ إِذَا غَلَّتْ حَتَّى يَنْصَبَ^(١) زَبْدُهَا، وَإِذَا جَمَدَ فِي أَسْفَلِهَا. والجُفَاءُ ما أجفاه الوادي أي رمى به. وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُوْبَةَ يقرأ «جُفَالاً» قال أبو عبيدة: يقال أَجْفَلَتِ الْقِدْرُ إِذَا قَذَفَتْ بِزَبْدِهَا، وَأَجْفَلَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ إِذَا قَطَعَتْهُ. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: هو الماء الخالص الصّافي. وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله؛ فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يَمْضَحَلُّ كاضمحلال الزبد والخَبَث. وقيل: المراد مثلاً ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب؛ فَشَبَّهَ الْقُرْآنَ بِالْمَطَرِ لِعُمُومِ خَيْرِهِ وَبِقَاءِ نَفْعِهِ، وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَوْدِيَةِ، يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ مِثْلُ مَا يَدْخُلُ فِي الْأَوْدِيَةِ بِحَسَبِ سَعَتِهَا وَضَيْقِهَا. قال ابن عباس: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال: قرآنًا؛ ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأودية قلوب العباد. قال صاحب

(١) في زوى: ينضب. بالمعجمة.

«سوق العروس»^(١) إن صحَّ هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء . ومثل القلوب بالأودية، ومثل المُحَكَّم بالصَّافي، ومثل المتشابه بالزَّيد . وقيل : الزيد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلَّعها، كما أن ماء السَّيل يجري صافياً فيرفع ما يجد في الوادي باقياً، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السَّنية . والأخلاق الزَّكية ؛ التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء . وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله : «يَنْفَعُ النَّاسَ» فأخبر، ولا مخاطبة ها هنا . الباقون بالتاء لقوله في أول الكلام : «أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» الآية . وقوله : «فِي النَّارِ» متعلق بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاء التي في «عَلَيْهِ» التقدير : ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً . وفي قوله : «فِي النَّارِ» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي أسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتعلق «فِي النَّارِ» بـ «يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدت عليه في النار؛ لأن الموقد عليه يكون في النار، فيصير قوله : «فِي النَّارِ» غير مفيد . وقوله : «أَتَبَغَاءَ حَلِيَّةٍ» مفعول له . «زَيْدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر؛ أي زيد مثل زيد السَّيل . وقيل : إن خبر «زيد» قوله : «فِي النَّارِ» الكسائي : «زَيْدٌ» ابتداء، و «مِثْلُهُ» نعت له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو «مِمَّا يُوقِدُونَ» . «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ» أي كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بَيِّنَات . تم الكلام، ثم قال : «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أي أجابوا؛ واستجاب بمعنى أجاب؛ قال^(٢) :

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

وقد تقدم؛ أي أجاب إلى مادعاه الله من التوحيد والنبوات . «الْحُسْنَى» لأنها في نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غداً . «وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ»

(١) هو : أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨ وكتابه «سوق العروس» في علم القراءات . (كشف الظنون).

(٢) هو : كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار، وصدر البيت :
وداع دعا يا من يجيب إلى الندى .

أي لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من الأموال. ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ ملك لهم. ﴿لَا فِتْنَتَا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره في «آل عمران» ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(١)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ حسب ما تقدم بيانه هناك. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرَقَدُ السَّبَخِي^(٢) قال [لي]^(٣) إبراهيم التَّخَعِي: يا فَرَقَدُ! أتدري ما سوء الحساب؟ قلت لا! قال أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء. ﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ أي مسكنهم ومقامهم. ﴿جَهَنَّمُ وَيُسَّرَ الْمِهَادُ﴾ أي الفراش الذي مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، ورُوي أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل لعنه الله. والمراد بالعمى عمى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

[٢٠] ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد أسم للجنس؛ أي بجميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبده؛ ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي. وقوله: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس الميثاق، أي إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه. قال قتادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذي أخذه

(١) راجع ٢١/٤ فما بعد. و ص ١٣١ فما بعد.

(٢) السبخي: (بفتحتين) نسبة إلى السبخة موضع بالبصرة.

(٣) من ي.

الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم. وقال القفال: هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات.

الثانية - روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: «ألا تباعون رسول الله ﷺ» وكنا حديث عهد ببيعة^(١) فقلنا: قد بايعناك [حتى قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنا قد بايعناك]^(٢) فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتُصلُّوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا - وأسرّ كلمة خفية - قال لا تسألوا الناس شيئاً». قال: ولقد كان بعض أولئك نفر يسقط سوطه فما يسأل أحداً أن يناوله إياه. قال ابن العربي: من أعظم الموائيق في الذكر ألا يسأل سواه؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العباد سمع أن أناساً بايعوا رسول الله ﷺ ألا يسألوا أحداً شيئاً، الحديث؛ فقال أبو حمزة: رب! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحداً شيئاً؛ قال: فخرج حاجباً من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق؛ فلما حلّ في قعره قال: أستغيث لعل أحداً يسمعني. ثم قال: إن الذي عاهدته يراني ويسمعني، والله! لا تكلمت بحرف للبشر، ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرّ بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سدّ هذا البئر؛ ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله! لا أخرج منها أبداً، ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدت من يراك؟ فسكّ وتوكل، ثم استند في قعر البئر مفكراً في أمره فإذا بالتراب يقع عليه؛ والخشب يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك من يقول: هات يدك! قال: فأعطيته يدي فأقلّني في مرة واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أرَ أحداً؛ فسمعت هاتفاً يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؛ وأنشد:

(١) في و: بيعة.

(٢) الزيادة من كتب الحديث.

نَهَانِي حَيَاتِي مِنْكَ أَنْ أَكْشِفَ الْهَوَى فَأَغْنِيَنِي بِالْعِلْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي إِلَى غَائِبِي وَاللَّطْفُ يُدْرِكُ بِاللُّطْفِ
تَرَأَيْتَ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا تُخَبِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنَّكَ فِي كَفٍّ
أَرَانِي وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَخَشَةً فَتَوَسَّنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ
وَتُحْسِي مُحِبًّا أَنْتَ فِي الْحُبِّ حَقْفُهُ وَذَا عَجَبٌ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَتْفِ

قال ابن العربي: هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا. قال أبو الفرج الجوزي: سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحل؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة؛ كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروج من مكة، وأستنجاره دليلاً، وأستكتامه ذلك الأمر، وأستتاره في الغار، وقوله لسُرَاقَة: «اخْفِ عَنَّا». فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر، وآلة يجتلب بها النفع، فإذا عطّلها مدّعياً للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل، وردّاً لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثوري وغيره، لأنه قد دلّ على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه. وقال أبو الفرج: ولا التفات إلى قول أبي حمزة: «فجاء أسد فأخرجني» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقاً، وقد يكون لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذي هو كسبه، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

[٢١] ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ

الْحِسَابِ ﴿١١﴾ ۞ .

[٢٢] ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ .

[٢٣] ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ .

[٢٤] ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهر في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: في قطع الرحم. وقيل: في جميع المعاصي. ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نوقش الحساب عذب. وقال ابن عباس وسعيد بن جبیر: معنى. ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم. الحسن: هو صلة محمد ﷺ. ويحتمل رابعاً: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح؛ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فيما أمرهم بوصله، ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الَّذِينَ» مستأنف؛ لأن «صَبَرُوا» ماض فلا ينعطف على «يُوفُونَ». وقيل: هو من وصف من تقدم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الَّذِينَ» يتضمن الشرط [و] الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله. وقال عطاء: صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب. وقال أبو عمران الجوني: صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في «البقرة»^(١) وغيرها. ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ أي يدفعون بالعمل

الصالح السَّيِّء من الأعمال، قاله ابن عباس. أبْن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضَّحَّاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيْر: يدفعون الظلم بالعفو. أبْن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَيْبِي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسَّفه السيِّئة، والحلم الحسنة، وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١) ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غدا داران؛ الجنة للمطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عني بالدار دار الدنيا؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا. قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي لهم جنات عدن؛ ف﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من «عُقْبَى» ويجوز أن تكون تفسيراً لـ «عُقْبَى الدَّارِ» أي لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَثٌ و «جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداء محذوف. و «جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسط الجنة وقصبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القشيري أبو نصر عبد الرحيم^(٢). وفي صحيح البخاري: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك إن صحَّ فذلك^(٣) خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن في الجنة قصراً يقال له عَدْنٌ، حوله البرُّوج والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حَبْرَةٍ^(٤) لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. و «عدن» مأخوذ من عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانه في سورة «الكهف»^(٥) إن شاء الله تعالى. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن

(١) راجع ص ١١٠ من هذا الجزء. (٢) في الأصل المطبوع عبد الملك ولعله تصحيف. مصححه.

(٣) في ي: خير.

(٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضروب من البرود اليمينية المخطط.

(٥) راجع ٣٩٥/١٠ فما بعد.

يكون معطوفاً على «أُولَئِكَ» المعنى: أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في «يَدْخُلُونَهَا» وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم؛ أي من كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضع «مَنْ» نصباً على تقدير: يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يلحقه الله بهم كرامة لهم. وقال ابن عباس: هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية. قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان. فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال، والمعنى: أن النعمة غداً تأتيهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه؛ بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ» أي بالتحف والهدايا من عند الله تكملة لهم. «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أي يقولون: سلام عليكم؛ فأضمر القول، أي قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي سلمكم الله، فهو خبر معناه الدعاء؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية. «بِمَا صَبَرْتُمْ» أي بصبركم؛ فـ «بِمَا» مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في «بِمَا» متعلقة بمعنى «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أي هذه الكرامة بصبركم، أي على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جبّير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عمران الجوني. وقيل: على الجهاد في سبيل الله؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرّون من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «المجاهدون الذين تُسَدُّ بهم الثغور وتُتَقَى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». وقال محمد بن إبراهيم: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار» وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يأتي الشهداء، فإذا أتى فُرْضَةً^(١) الشَّعْب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبي ﷺ يفعله، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله. وقال الحسن البصري رحمه الله: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن فضول الدنيا. وقيل: «بِمَا صَبَرْتُمْ» على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفضيل بن عياض. ابن زيد: «بِمَا صَبَرْتُمْ» عما تحبونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً - «بِمَا صَبَرْتُمْ» عن اتباع الشهوات. وعن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين رضي الله عنهما [أنهما^(٢) قالاً]: إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ ليقم أهل الصبر؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: أنطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم! فيقولون: من أنتم فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سلام: فتقول لهم الملائكة: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ». «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا أسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عمران الجوني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن النار. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» الجنة عن الدنيا.

[٢٥] ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾ .

[٢٦] ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ۝٢٦﴾ .

(١) فُرْضة الشعب: فوته. والشعب: ما انفرج بين جبلين. والشهداء كانوا بجبل أحد.

(٢) في الأصل: «أنه قال».

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره، وذكر ما لهم ذكر عكسهم. نقض الميثاق: ترك أمره. وقيل: إهمال عقولهم، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي من الأرحام. والإيمان بجميع الأنبياء. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالكفر وأرتكاب المعاصي ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد والإبعاد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي سوء المنقلب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقاص: والله الذي لا إله إلا هو! إنهم الحَرُورِيَّة. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بين أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا، لأنها دار امتحان؛ فبَسَطَ الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق؛ ومنه. ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ^(١) رِزْقُهُ﴾ أي ضيق. وقيل: «يقدر» يعطي بقدر الكفاية. ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجعلوا ما عند الله؛ وهو معطوف على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. وفي الآية تقديم وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنبها. ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي متاع من الأمتعة، كالقَصْعَةِ وَالسُّكَّرِجَةِ^(٢). وقال مجاهد: شيء قليل ذاهب؛ من مَتَعَ النَّهَارُ إِذَا ارْتَفَعَ، فلا بد له من زوال. ابن عباس: زَادَ كَزَادَ الرَّاعِي. وقيل: متاع الحياة الدنيا ما يُسْتَمْتَعُ بِهَا مِنْهَا. وقيل: ما يتزود منها إلى الآخرة، من التقوى والعمل الصالح، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ثم أبتدا. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع ويضيق.

[٢٧] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾.

[٢٨] ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

(١) راجع ١٨/ ١٧٠.

(٢) السكرجة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق، والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي ﷺ بالآيات. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرّمكم الاستدلال بها يضلّكم عند نزول غيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي من رجع. والهاء في «إليه» للحق، أو للإسلام، أو لله عزّ وجلّ؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» في موضع نصب، لأنه مفعول؛ أي يهدي الله الذين آمنوا، وقيل بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ فهو في محل نصب أيضاً. ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن؛ قال: أي وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بالسنتهم؛ قاله قتادة: وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه؛ كما تؤجل بذكر عدله وأنتقامه وقضائه. وقيل: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه. وقيل: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعده الله. وقال مجاهد: هم أصحاب النبي ﷺ.

[٢٩] ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا أَجْرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ﴾ ابتداء وخبره. وقيل: معناه لهم طوبى ف «طوبى» رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جعل.

لهم طُوبَى، ويعطف عليه «وَحُسْنُ مَأْبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب.
 وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي يُزَيْدٍ الْبِكَالِيِّ
 عَنْ عُثْبَةَ بْنِ عَبْدِ السُّلَمِيِّ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْجَنَّةِ وَذَكَرَ الْحَوْضَ
 فَقَالَ: فِيهَا فَاكْهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ شَجَرَةٌ تَدْعَى طُوبَى» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ شَجَرَةٍ
 أَرْضُنَا تَشْبَهُ؟ قَالَ: «لَا تَشْبَهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ أَتَيْتَ الشَّامَ هُنَاكَ شَجَرَةٌ تَدْعَى
 الْجَوْزَةُ تَنْبِتُ عَلَى سَاقٍ وَيَفْتَرِشُ أَعْلَاهَا». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَمَا عَظَمَ أَصْلُهَا!
 قَالَ: لَوْ أَرَزَتْحَلَّتْ جَذَعَةٌ مِنْ إِبِلٍ أَهْلَكَ مَا أَحَطَّتْ بِأَصْلِهَا حَتَّى تَنْكَسِرَ تَرْقُوتُهَا
 هَرَمًا». وذكر الحديث، وقد كَتَبْنَا بِكَمَالِهِ فِي أَبْوَابِ الْجَنَّةِ مِنْ كِتَابِ «التَّذَكُّرَةِ»،
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرُ عَنْ الْأَشْعَثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ
 شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يُقَالُ لَهَا طُوبَى؛ يَقُولُ اللَّهُ
 تَعَالَى لَهَا: تَفْتَقِي لِعَبْدِي عَمَّا شَاءَ؛ فَتَفْتَقِي لَهُ عَنْ فَرَسٍ بِسَرَجِهِ وَلِجَامِهِ وَهَيْئَتِهِ كَمَا
 شَاءَ، وَتَفْتَقِي عَنِ الرَّاحِلَةِ بِرَحْلِهَا وَزِمَامِهَا وَهَيْئَتِهَا كَمَا شَاءَ، وَعَنِ النَّجَائِبِ
 وَالثِّيَابِ. وَذَكَرَ ابْنُ وَهْبٍ مِنْ حَدِيثِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ:
 «طُوبَى» شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَيْسَ مِنْهَا دَارٌ إِلَّا وَفِيهَا غَصْنٌ مِنْهَا، وَلَا طَيْرٌ حَسَنٌ إِلَّا
 هُوَ فِيهَا، وَلَا ثَمَرَةٌ إِلَّا هِيَ مِنْهَا؛ وَقَدْ قِيلَ: إِنْ أَصْلُهَا فِي قَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ،
 ثُمَّ تَنْقَسِمُ فُرُوعُهَا عَلَى مَنَازِلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَمَا أُنْتَشَرَ مِنْهُ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ عَلَى جَمِيعِ
 أَهْلِ الدُّنْيَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «طُوبَى لَهُمْ» فَرَحَ لَهُمْ وَقَرَّةَ عَيْنٍ؛ وَعَنهُ أَيْضًا أَنَّ
 «طُوبَى» أَسْمُ الْجَنَّةِ بِالْحَبَشِيَّةِ؛ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. الرِّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُوَ الْبُسْتَانُ
 بِلُغَةِ الْهِنْدِ؛ قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: إِنْ صَحَّ هَذَا فَهُوَ وَفَاقٌ بَيْنَ اللَّغَتَيْنِ. وَقَالَ قَتَادَةُ:
 «طُوبَى لَهُمْ» حَسَنَى لَهُمْ. عِكْرَمَةُ: نَعْمَى لَهُمْ. إِبْرَاهِيمُ التَّخَفِيُّ: خَيْرَ لَهُمْ؛ وَعَنهُ
 أَيْضًا كَرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ. الضَّحَّاكُ: غِبْطَةٌ لَهُمْ. النَّحَّاسُ: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ؛ لِأَنَّ
 طُوبَى فُعْلَى مِنَ الطَّيِّبِ؛ أَيْ الْعَيْشِ الطَّيِّبِ لَهُمْ؛ وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ تَرْجِعُ إِلَى الشَّيْءِ
 الطَّيِّبِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: طُوبَى فُعْلَى مِنَ الطَّيِّبِ، وَهِيَ الْحَالَةُ الْمُسْتَطَابَةُ لَهُمْ؛ وَالْأَصْلُ
 طُيْبَى، فَصَارَتْ الْيَاءُ وَآوًا لِسُكُونِهَا وَضَمًّا مَا قَبْلَهَا، كَمَا قَالُوا: مُوسِرٌ وَمَوْقِنٌ.

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه ، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلِيُّ ؛ ذكره أبو عمر في التمهيد، ومنه نقلناه ؛ وذكره أيضاً الثعلبي في تفسيره ؛ وذكر أيضاً المهدوي والقشيري عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحليّ والحُلل وإن أغصانها لَتَرى من وراء سور الجنة » ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبيّ . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة في الجنة أصلها في دار عليّ، وفي دار كل مؤمن منها غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن عليّ : سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ قال : « شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : « شجرة أصلها في دار عليّ وفروعها في الجنة » . فقبل له : يا رسول الله ! سئلت عنها فقلت : « أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئلت عنها فقلت : « أصلها في دار عليّ وفروعها في الجنة » فقال النبي ﷺ : « إن داري ودار عليّ غدا في الجنة واحدة في مكان واحد » وعنه ﷺ : « هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مُدَلَّى فيها غُصْن منها » ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيل : تقدير الكلام الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وعملوا الصالحات طوبى لهم .

[٣٠] ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَسْلُتُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣١﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ﴿ لِّتَسْلُتُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ قال مقاتل وأبن جريج : نزلت في صلح الحُدَيْبِيَّة حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصُّلح، فقال النبي ﷺ لعلي: «أكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مُسَيْلَمَةَ الكذاب؛ أكتب باسمك اللهم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون؛ فقال النبي ﷺ لعلي: «أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك؛ ولكن أكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي ﷺ: دعنا نقاتلهم؛ فقال: «لا ولكن أكتب ما يريدون» فنزلت. وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ»^(١) قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فنزلت. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم. ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وأعتمدت ووثقت. ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي مرجعي غدا، واليوم أيضاً عليه توكلت ووثقت، رِضاً بقضائه، وتسليماً لأمره. وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحجر ويقول: «يا الله يا رحمن» فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين؛ فنزلت هذه الآية، ونزل. ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(٢).

[٣١] ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِلِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾. وذلك أن نفراً من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميان

(١) راجع ٣٤٢/١٠.

(٢) راجع ٦٤/١٣.

جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم؛ فقال له عبد الله: إن سرك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى تنفسح؛ فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، حتى نغرس ونزرع؛ فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت؛ فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود، وأخي لنا قُصياً^(١) جدك، أو من شئت أنت من موتانا نسأله؛ أحق ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك؛ والجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازاً، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا

يعني لهان علي؛ هذا معنى قول قتادة؛ قال: لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم. وقيل: الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا. الفراء: يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن. الزجاج: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمَوْتَى﴾ لما آمنوا، والجواب المضمّر هنا ما أظهر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٢). ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتبسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْتَسِفِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الفراء قال الكلبي: «ينتس» بمعنى يعلم، لغة النخع؛ وحكاه القشيري عن ابن عباس؛ أي أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهري في الصحاح

(١) هو قصي بن كلاب.

(٢) راجع ٦٦/٧.

وقيل: هو لغة هَوَازِن؛ أي أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن. وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبينوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرِي^(١):

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَسْرُونِي أَلَمْ تَنَاسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمِ

يَسْرُونِي مِنَ الْمَيْسِرِ، وقد تقدم في «البقرة»^(٢) ويروى يأسرونني من الأسر. وقال رَبَاحُ بْنُ عَدِيٍّ:

أَلَمْ يَيْئَسِ الْأَقْوَامُ أَنِّي [أَنَا] ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا

في كتاب الردّ «أني أنا ابنه» وكذا ذكره الغزنوي: ألم يعلم؛ والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات. وقيل: هو من اليأس المعروف؛ أي أفلم يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تَمَنُّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار. وقرأ عليّ وابن عباس: «أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ آمَنُوا» من البيان. قال الْقُشَيْرِيُّ: وقيل لابن عباس المكتوب «أَفَلَمْ يَيْئَسِ» قال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس؛ أي زاد بعض الحروف حتى صار «يئس». قال أبو بكر الأنباري: روي عن عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ - «أفلم يتبين الذين آمنوا» وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة؛ وهو باطل عن ابن عباس، لأن مجاهداً وسعيد بن جبّير حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبّير عن ابن عباس؛ ثم إن معناه: أفلم يتبين؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها، وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا؛

(١) ذكر في «لسان العرب» أن قاتل البيت هو سحيم بن وثيل اليربوعي؛ وذكر بعض العلماء أنه قال لولده جابر بن سحيم بدليل قوله فيه: «أني ابن فارس زهدم» وزهدم: فرس سحيم. وقوله: يسرونني من إيسار الجزور؛ أي يجتزرونني ويقتسموني؛ وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه.

(٢) راجع ٥٣/٣.

(٣) من البحر لأبي حيان، وكتاب الرد.

وأما سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ (أَنْ ، مخففة من الثقيلة ، أي أنه لو يشاء الله ﴿ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ وهو يؤدّ على القُدْرَةِ وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمع قوارع ؛ والأصل في القرع الضرب ؛ قال (١) :

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ قَرْعُ الْقَوَاقِيزِ أَقْوَاهُ الْأَبَارِيقِ

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أُرْبَد أو من قتل أو من أسر أو جذب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عكرمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة : القارعة الطلائع والسرايا التي كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . ﴿ أَوْ تَحُلْ ﴾ أي القارعة . ﴿ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أَوْ تَحُلْ أنت قريباً من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتتزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقري المدينة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ في فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أي تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد ، فتحل قريباً من دارهم ، أو تحل بهم محاصراً لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقلاع خيبر ؛ ويأتي وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

[٣٢] ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٣٢)

(١) هو الأقيشر الأسدي ، وأسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدده بعمله . والقواقيز (جمع قاقوزة) وهي أوان يشرب بها الخمر .

[٣٣] ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

[٣٤] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْنَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدم معنى الاستهزاء في «البقرة»^(١) ومعنى الإملاء في «آل عمران»^(٢) أي سخر بهم، وأزري عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة. ﴿فَكَيفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضد القعود، بل هو بمعنى التولي لأمر الخلق؛ كما يقال: قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل. وقيل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي عالم؛ قاله الأعمش. قال الشاعر:

فلولا رجال من قريش أعزّة
سرقتم ثياب البيت واللّه قائم

أي عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس. وقيل: المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك. ﴿وَجَعَلُوا﴾ حال؛ أي أو قد جعلوا، أو عطف على «استهزءوا» أي استهزءوا وجعلوا؛ أي سموا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: «سَمُّوهُمْ» أي بينوا أسماءهم، على جهة التهديد؛ أي إنما يستمنون: اللات والعزى ومناة وهبل. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أم استفهام توبيخ، أي أنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم في المعنى؛ لأن قوله: «سَمُّوهُمْ» معناه: ألهم أسماء الخالقين. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾؟ وقيل: المعنى قل لهم أنبئونا الله بباطن لا يعلمه. ﴿أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه أحوالوا، وإن قالوا:

بظاهر يعلمه فقل لهم: سموهم؛ فإذا سموهم اللَّاتُ وَالْعُزَّى فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً. وقيل: ﴿أَمْ تُبْتِغُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي أفمن هو قائم، أم تبثون الله بما لا يعلم؛ أي أنتم تدعون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً؛ أفتبثونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خصَّ الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم أدعوا له شركاء في الأرض. ومعنى ﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾: الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قتادة: معناه يبطل من القول؛ ومنه قول الشاعر:

أَعْيَرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا وَذَلِكَ عَارٌ يَابِسَ رَيْطَةَ ظَاهِرِ

أي باطل. وقال الضحاك: بكذب من القول. ويحتمل خامساً^(١) - أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم؛ ويكون معنى الكلام: أتخبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين. ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي دع هذا! بل زين للذين كفروا مكرهم؛ قيل: استدراك على هذا الوجه، أي ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ابن عباس ومجاهد - ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ مسمى الفاعل؛ وعلى قراءة الجماعة فالذي زَيْن للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يسمى الكفر مكرًا؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرًا. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي صدَّهم الله؛ وهي قراءة حمزة والكسائي. الباقي بالفتح؛ أي صدَّوا غيرهم؛ واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصُدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٣) وقراءة الضم أيضاً حسنة في «زين» و«صدَّوا» لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة؛ ففيه إثبات القدر، وهو اختيار أبي عبيد. وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة - «وَصُدُّوا» بكسر الصاد؛ وكذلك. ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾^(٤) بكسر الراء أيضاً على ما لم يسم فاعله؛ وأصلها صدَّوا وردَّت، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ حَادٍ﴾ أي موق؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين

(١) كذا في الأصول. ويبدو أن في العبارة نقصاً، ولعل الرابع ما في البحر: وقيل: أم متصلة والتقدير أم تبثونه بظاهر من القول لا حقيقة له.

(٢) راجع ٢٥/٨. (٣) راجع ٢٨٣/١٦. (٤) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء.

ومن تابعهم؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ فكذلك قوله: ﴿وَصَدُّوا﴾. ومعظم القراء يقفون على الدال من غير الياء؛ وكذلك «وال» و «واق»؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهاذٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقاءها مع التنوين. وقرأ «فَمَا لَهُ مِنْ هَادِي»، و «وَالِي» و «وَاقِي» بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالي وواقي بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقاءها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف؛ فردت الياء فصار هادي ووالي وواقي. وقال الخليل في نداء قاضٍ: يا قاضي بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي للمشركين الصادقين، بالقتل والسبي والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أشد؛ من قولك: شق عليّ كذا يشق. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و «من» زائدة.

[٣٥] ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا يَلَّىٰ عَقَبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ اختلف النحاة في رفع «مثل» فقال سيبويه: أرتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ والتقدير: وفيما يتلى عليكم مثل الجنة. وقال الخليل: أرتفع بالابتداء وخبره «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ كقولك: قولي يقوم زيد؛ فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾^(١) وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٢) أي الصفة العليا؛ وأنكره أبو علي وقال: لم يسمع مثل بمعنى الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجري مجراء في مواضعه ومتصرفاته، كقولهم: مررت برجل مثلك؛ كما تقول: مررت برجل شبيهك؛ قال: ويفسد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مثلاً

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام: صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها. وقال الزجاج: مثَّل الله عزَّ وجلَّ لنا ما غاب عنا بما نراه؛ والمعنى؛ مثَّل الجنة جنةً تجري من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علي فقال: لا يخلو المثل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنة جنة، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضاً شبه الجنة جنة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حدث؛ والجنة غير حدث؛ فلا يكون الأول الثاني. وقال الفراء: المثل مقحم للتأكيد؛ والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمثل؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)؛ أي ليس هو كشيء^(٢). وقيل التقدير: صفة الجنة التي وعد المتقون صفة جنة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وقيل معناه: شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود؛ قاله مقاتل. ﴿أَكُلُوا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع؛ وفي الخبر: «إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى» وقد بيناه في «التذكرة». ﴿وَوَظَلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك؛ فحذف؛ أي ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول؛ وهذا رد على الجهمية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى. ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وأخرتهم النار يدخلونها.

[٣٦] ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْبَارِ مَنْ يُنْكِرْ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سلام وسلمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

(١) راجع ٨/١٦.

(٢) في ي: ليس كشيء.

وابن زبد. وعن مجاهد أيضاً أنهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بتزول القرآن لتصديقه كتبهم. وقال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أول ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَرِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(١) فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مُسَيِّلَةَ الكَذَاب؛ فنزلت: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢) ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾. ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني مشركي مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس. وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي ﷺ. وقيل: ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض. ﴿قُلِ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على «أعبد». وقرأ أبو خالد^(٣) بالرفع على الاستثناف أي أفرد بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرأ عن المشركين، ومن قال: المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود. ﴿إِلَيْهِ ادْعُوا﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس. ﴿وَإِلَيْهِ مَأْبٍ﴾ أي أرجع في أموري كلها.

[٣٧] ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكماً عربياً. وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ، وهو عربي، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضاً. وقيل نظم الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً، أي بلسان العرب؛ ويريد بالحكم ما فيه

(١) راجع ٣٤٢/١٠.

(٢) راجع ٢٨٧/١١.

(٣) في حواشي: أبو خليل: وهو عتبة بن حماد الحكمي روى عن نافع. «غاية النهاية».

من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم. ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجيه إلى غير الكعبة. ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي ناصر ينصرك. ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه؛ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة.

[٣٨] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ﴿٣٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى - قيل: إن اليهود عابوا على النبي ﷺ الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء؛ فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي جعلناهم بشراً يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي.

الثانية - هذه الآية تدلّ على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التَّبَتُّل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصّت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال ﷺ: «تَزَوَّجُوا فَإِنِّي مَكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمِ» الحديث. وقد تقدّم في «آل عمران»^(١) وقال: «من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتيق الله في النصف الثاني»^(٢). ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الْخُصْلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ضَمِنَ رسول الله ﷺ عليهما الجنة فقال: «من وقاه الله شر أُنثَتَيْنِ وَلَجَّ الْجَنَّةَ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ» خرجه الموطأ وغيره. وفي صحيح البخاري عن أنس قال: جاء ثلاثة رَهْطٍ إِلَى بَيْوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ

(١) راجع ٧٢/٤ فما بعد.

(٢) روى ابن الجوزي في الملل «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتيق الله في النصف الباقي» وراجع الحديث بطرقه في ج ٢ «كشف الخفاء» ص ٢٣٩ ففيه بحث.

يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُوهَا فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم؛ أما أنا فإني أُصَلِّي الليل أبداً، وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج؛ فجاء رسول الله ﷺ [إليهم] ^(١) فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم الله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني». خروجه مسلم بمعناه؛ وهذا أبين وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي ﷺ؛ ولو أجاز له ذلك لاختصمتنا، وقد تقدم في «آل عمران» ^(٢) الحضّ على طلب الولد والرّدّ على من جهل ذلك. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطوها وما أشتيها؛ قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبي أن يخرج الله مني من يكاثربه النبي ﷺ النبيين يوم القيامة؛ وإني سمعته يقول: «عليكم بالأبكار فإنهن أغذب أفواهاً وأحسن أخلاقاً وأنتن أرحاماً وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» يعني بقوله: «أنتن أرحاماً» أقبل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمي بالأولاد رميةً. وخرج أبو داود عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وأنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم». صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات - ما تقدم ذكره في هذه السورة - فأنزل [الله] ^(٣) ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظَرُ ومعناه النفي؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أمر قضاءه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء

(١) من ي.

(٢) راجع ٧٢/٤، و٢٦٠/٦ فما بعد.

(٣) من ع.

وَالضَّحَّاكُ؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره. ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾^(١)؛ بين أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقدر لا تقف عليه الملائكة. وذكر الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: لما أرتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجبار في إصبغه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيء من خلّي الرجال، قال: فهل عليه شيء من أسمائي مكتوب أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ».

[٣٩] ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به. «وَيُثَبِّتُ» ما يشاء؛ أي يؤخره إلى وقته؛ يقال: محوت الكتاب محواً، أي أذهبت أثره. «وَيُثَبِّتُ» أي ويثبت؛ كقوله: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ»^(٢) أي والذاكرات الله.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «وَيُثَبِّتُ» بالتخفيف، وشدد الباقون؛ وهي قراءة ابن عباس، وأختار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قرأ بها؛ لقوله: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»^(٣). وقال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت». وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء^(٤)؛ الخلق والخلق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت. «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» الذي لا يتغير منه شيء. قال القشيري: وقيل السعادة والشقاوة والخلق والخلق والرزق لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفي هذا القول نوع تحكم.

قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

(١) راجع ١١/٧.

(٢) راجع ١٤/١٨٥.

(٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء.

(٤) في أو و: إلا ستا.

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الكلبي. وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب. وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء وأثبتني في السعداء؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت؛ وعندك أم الكتاب. وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح وأكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقال كعب لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله لأنباتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاماً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقد تقدم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من سرّه أن يُبَسِّطَ له في رزقه ويُنْسَأَ له في أثره^(١) فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ» فذكره بلفظه سواء؛ وفيه تأويلان: أحدهما - معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكانه لم يمت. والآخر - يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدل له، كما قال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتبّع الله وليصل رَحِمَهُ» كيف يزداد في العمر والأجل؟! فقال: قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ^(٢)﴾. فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل

(١) الأثر: الأجل. سمي به لأنه يتبع العمر. وأصله من أثر مشيه في الأرض فإن مات لا يبقى له أثر ولا يرى لأقدامه في الأرض أثر النهاية.

(٢) راجع ١/٣٨٧.

الثاني - يعني المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق أمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١) فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السنّة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس. وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي ﷺ. ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب. وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبّير: يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدّثنا بكر بن سهل، قال حدّثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: جملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ. وقال سعيد بن جبّير أيضاً: يغفر ما يشاء - يعني - من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره. وقال عكرمة: يمحو ما يشاء - يعني بالتوبة - جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعالى]^(٢): ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾^(٣) الآية. وقال

(١) راجع ٢٠١/٧.

(٢) الزيادة من «البحر المحيط».

(٣) راجع ٧٧/١٣.

الحسن: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من جاء أجله، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ من لم يأت أجله. وقال الحسن: يمحو الآباء، ويثبت الأبناء. وعنه أيضاً: يُنسي الحفظة من الذنوب ولا يُنسي. وقال السدي: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: القمر، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ يعني: الشمس؛ بيانه قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾^(١) وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم؛ يقبضها عند النوم، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه، ومن أراد بقاء أثبتته وردّه إلى صاحبه؛ بيانه قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢) الآية. وقال علي بن أبي طالب يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾^(٣) ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(٤) فيمحو قرناً، ويثبت قرناً. وقيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله؛ فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويثبته في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبي والماوردي عن ابن عباس. وقيل: يمحو الله ما يشاء - يعني الدنيا - ويثبت الآخرة. وقال قيس بن عباد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت فيه ما يشاء؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان. وقال ابن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء، لها دفتان من ياقوتة حمراء، لله^(٥) فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء. وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن الله سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبين من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء». والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت؛ ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحو، والله أعلم. الغزنوي: وعندي أن ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة؛ فيحتمل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدل. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصل ما كتب من الآجال

(٢) راجع ٢٦٥/١٥ و ٢٢.

(١) راجع ٢٢٧/١٠.

(٤) من ي.

(٣) راجع ١٢٠/١٢ فما بعد.

وغيرها. وقيل: أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر. وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون؛ فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبديل في علم الله، وعنه أنه الذكر؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾^(١) وهذا يرجع معناه إلى الأول؛ وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحبار: أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق.

[٤٠] ﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

[٤١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ﴾ «ما» زائدة، والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي إن أرينك بعض ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أي التبليغ؛ ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي الجزاء والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي نقصدها. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موت علمائها وصلحائها. قال القشيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف؛ وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم؛ ولكن هذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمورهم، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى. وقال مجاهد أيضاً

وقتادة والحسن: هو ما يغلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين؛ وروي ذلك عن ابن عباس، وعنه أيضاً هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وعن مجاهد: نقصانها خرابها وموت أهلها. وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عُمَيْر عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهاب فقائها وخيار أهلها. قال أبو عمر بن عبد البر: قول عطاء في تأويل الآية حسن جداً؛ تلقاه أهل العلم بالقبول.

قلت: وحكاية المهدوي عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأول نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد، ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: موت الفقهاء والعلماء؛ ومعروف في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء؛ وهذا خلاف ما أرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس. وقال عكرمة والشَّعْبِي: هو النقصان وقبض الأنفس. قال أحدهما: ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشَكٌ^(١). وقال الآخر: لضاق عليك حَشٌّ تبرز فيه. قيل: المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم؛ والمعنى: أو لم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟ أفلا يخافون أن يحلَّ بهم مثل ذلك؛ وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وأبن جُرَيْج. وعن ابن عباس أيضاً أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها. وقيل: [نقصها]^(٢) بِجُورٍ وَلَأَنهَا.

قلت: وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرّب البلاد، بقتل أهلها وأنجلانهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى روية قلب، ولا عقد بنان؛ حسب ما تقدّم في «البقرة»^(٣) بيانه

(١) الحش: موضع قضاء الحاجة.

(٢) من ي.

(٣) راجع ٤٣٤/٢ فما بعد.

[٤٢] ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

[٤٣] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسول وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه. وقيل: فلله خير المكر؛ أي يجازيهم به. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. الباقيون: «الْكُفَّارُ» على الجمع. وقيل: عنى [به] ^(١) أبو جهل. ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة؛ وهذا تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قتادة: هم مشركو العرب؛ أي لست بنبي ولا رسول، وإنما أنت متقول؛ أي لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك. ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾ أي كفى الله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدقي وكذبكم. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب - من آمن منهم - في التفسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري والنجاشي وأصحابه؛ قاله قتادة وسعيد بن جبيرة. وروى الترمذي عن ابن أخي عبد الله بن سلام قال: لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرتك؛ قال: أخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنك خارج خير لي من داخل؛ [قال] ^(١) فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال: أيها الناس! إنه كان أسمي في الجاهلية فلان ^(٢)، فسماني

رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله؛ فنزلت في. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) ونزلت في. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الحديث. وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة». وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبّير ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟ قال: هو عبد الله بن سلام.

قلت: وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية^(٢) وأبن سلام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي، وقال القشيري: وقال ابن جبّير السورة مكية وأبن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول ابن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضحاك: هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وينكرون على من يقول: هو عبد الله بن سلام وسلمان؛ لأنهم يروون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة. وروى عن النبي ﷺ أنه قرأ ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وإن كان في الرواية ضعف، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني أنه قرأ كذلك - ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ﴾ بكسر الميم والعين والذال «عِلْمُ الْكِتَابِ» بضم العين ورفع الكتاب. وقال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال: إنما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية. وقيل: جميع المؤمنين، والله أعلم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما من قال إنه علي فعول على أحد وجهين: إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه. ولقول النبي ﷺ. «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وهو حديث باطل^(٣)؛ النبي ﷺ مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفصح، ومنهم المتوسط، على قدر منازلهم في العلوم. وأما من قال

(١) قيل: السورة مدنية إلا ﴿ولو أن قرآنًا﴾ الآيتين. قاله قتادة. وفيها مدني كثير كقصة ابن الطفيل وأريد. ابن عطية.

(٢) في «كشف الخفاء» بحث قيم في هذا الحديث ٢٠٣/١ فما بعد. وجزم ابن تيمية بأنه من وضع الشيعة.

إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبي ﷺ بصدقه.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن. وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعول على حديث الترمذي؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سَلَام شيئاً ويتناول جميع المؤمنين لفظاً؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان. قال النحاس: وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمراً مؤكداً؛ والله أعلم بحقيقة ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً^(١)]

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث ، نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ .

[١] ﴿الرَّكَابُ أَتَزَلُّوا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿الرَّكَابُ أَتَزَلُّوا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ تقدم معناه . ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ أي بالكتاب ، وهو القرآن ، أي بدعائك إليه . ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم ؛ وهذا على التمثيل ؛ لأن الكفر بمنزلة الظلمة ؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة ، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بـ «تخرج» وأضيف الفعل إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمندرج الهادي . ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو ، لأنهما شيء واحد ؛ والله هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبيه . وقيل : «الْعَزِيزُ» الذي لا يغلبه غالب . وقيل : «الْعَزِيزُ» المنيع في ملكه وسلطانه . «الْحَمِيدُ» أي المحمود بكل لسان ، والممجد في كل مكان على كل حال . وروى مِقْسَمٌ عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعبسى ابن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما بُعِثَ محمد ﷺ آمن به الذين كفروا بعبسى ، وكفر الذين آمنوا بعبسى ؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردي .

[٢] ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

[٣] ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملكاً وعبداً وأخترعاً وخلقاً. وقرأ نافع وأبن عامر وغيرهما: «اللَّهُ» بالرفع على الابتداء «الَّذِي» خبره. وقيل: «الَّذِي» صفة، والخبر مضمرة؛ أي الله الذي له ما في السموات وما في الأرض قادر على كل شيء. الباكون بالخفض نعتاً للعزیز الحميد قدم النعت على المنعوت؛ كقولك: مررت بالظريف زيد. وقيل: على البذل من «الْحَمِيدِ» وليس صفة؛ لأن اسم الله صار كالعلم فلا يوصف؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الأرض. وكان يعقوب إذا وقف على «الْحَمِيدِ» رفع، وإذا وصل خفض على النعت. قال ابن الأنباري: من خفض وقف على ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد تقدّم معنى الويل في «البقرة»^(١) وقال الزجاج: هي كلمة تقال للعذاب والهلكة. ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي في جهنم. ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك. فـ«الَّذِينَ» في موضع خفض صفة لهم. وقيل: في موضع رفع خبر ابتداء مضمرة؛ أي هم الذين. وقيل: «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ» مبتدأ وخبر. «أُولَئِكَ». وكل من آثر الدنيا وزهرتها، وأستحب

البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصدّ عن سبيل الله - أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُتَمَّةَ الْمُضَلُّونَ» وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان. قيل: «يَسْتَحِبُّونَ» أي يلتصمون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتصم إلا بطاعته دون معصيته. «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أي يطلبون لها زَيْغًا وميلًا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تذكّر وتوثّق. والعِوَج بكسر العين في الدين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائمًا؛ وبفتح العين في كل ما كان قائمًا، كالحائط والرُّمَح ونحوه؛ وقد تقدّم في «آل عمران»^(١) وغيرها. «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» أي ذهاب عن الحق بعيد عنه.

[٤] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ» أي قبلك يا محمد «إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ» أي بلغتهم، ليبينوا لهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهي أسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة؛ وقد قال الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»^(٢). وقال ﷺ: «أُرْسِلَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهَا وَأُرْسِلَنِي اللَّهُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ مِنْ خَلْقِهِ». وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار». خرجه مسلم، وقد تقدّم. «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» ردّ على القدرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على

(١) راجع ١٥٤/٤.

(٢) راجع ٣٠٠/١٤.

«لَيُبَيِّنَنَّ» لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال.. ويجوز النصب في «يضل» لأن الإرسال صار سبباً للإضلال؛ فيكون كقوله: «لَيَكُونَنَّ لَهُمْ عَذُوبًا وَحَزَنًا»^(١) وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم؛ فصار كأنه سبب لكفرهم. «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» تقدم معناه.

[٥] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيُّمِ اللَّهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكَلَّ صَكْبَارٍ شَكُورٍ﴾.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا» أي بحجتنا وبراهيننا؛ أي بالمعجزات الدالة على صدقه، قال مجاهد: هي التسع الآيات^(٢). «أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة: «لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ». وقيل: «أَنْ» هنا بمعنى أي، كقوله تعالى: «وَأَنْطَلَقَ أَلْمَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا»^(٣) أي أَمْشُوا.

قوله تعالى: «وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ» أي قل لهم قولاً يتذكرون به أيام الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: بنعم الله عليهم؛ وقاله أبي بن كعب ورواه مرفوعاً؛ أي بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه إلى سائر النعم، وقد تسمى النعم الأيام؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم^(٤):

وأيام لنا غرٌّ طوالٍ

(١) راجع ١٣/٢٥٢.

(٢) الآيات التسع هي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات.

(٣) راجع ١٥/١٥١.

(٤) البيت من معلقته وتماهه:

عصينا الملك فيها أن ندينها

وقد يكون تسميتها غراً لعلوهم على الملك وامتناعهم منه، فأيامهم غر لهم، وطوال على أعدائهم؛ وعليه فلا دليل في البيت على أن الأيام بمعنى النعم. وأيام بالجر عطف على (بأننا) في البيت قبله، ويجوز أن تجعل الواو بدلاً من رب.

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة؛ يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعها. قال ابن زيد: يعني الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبري: وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم؛ أي بما كان في أيام الله من النعمة^(١) والمحنة؛ وقد كانوا عبيداً مستذلين؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بيننا موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماءه، وذكر حديث الخضر؛ ودلّ هذا على جواز الوعظ المرقق للقلوب، المقوّي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزه عن كل ضلالة وشبهة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في التذكير بأيام الله ﴿لآيَاتٍ﴾ أي دلالات. ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أُعطي شكر، وإذا أبْتلي صبر. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر - ثم تلا هذه الآية - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾». ونحوه عن الشعبي موقوفاً. وتوآزى الحسن البصري عن الحجاج سبع سنين، فلما بلغه موته قال: اللهم قد أمته فأمته سُنَّته، وسجد شكراً، وقرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. وإنما خص بالآيات كل صبار شكور؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾^(٢) وإن كان منذراً للجميع.

[٦] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

[٧] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

(١) في أرو: النعمة والمحنة.

(٢) راجع ٢٠٧/١٩.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تقدم في «البقرة»^(١) مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله؛ أي وأذكر يا محمد إذ قال ربك كذا. و «تَأَذَّنَ» وأذن بمعنى أعلم؛ مثل أُوْعِدَ وتَوَعَّدَ؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان، لأنه إعلام؛ قال الشاعر:

فَلَمْ نَشْعُرْ بِضَوْءِ الصَّبِيحِ حَتَّى سَمِعْنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذِينَ

وكان ابن مسعود يقرأ: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ» والمعنى واحد. «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي. ابن عباس: لئن وَحَّدْتُمْ وأطعتم لأزيدنكم من الثواب، والمعنى متقارب في هذه الأقوال؛ والآية نص في أن الشكر سبب المزيد؛ وقد تقدم في «البقرة»^(٢) ما للعلماء في معنى الشكر. وسئل بعض الصالحاء عن الشكر لله فقال: أَلَّا تَتَّقُوا بنعمه على معاصيه. وحكى عن داود عليه السلام أنه قال: أي رب كيف أشكرك، وشكري لك نعمة مجددة منك علي. قال: يا داود الآن شكرتني.

قلت: فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم، وألا يصرفها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي وهو يأكل:

أَنَا لَكَ رِزْقُهُ لَتَقُومَ فِيهِ بطاعته وتشكر بعض حقه
فَلَمْ تَشْكُرْ لِنِعْمَتِهِ وَلَكِنْ قَوِيَتْ عَلَى مَعَاصِيهِ بِرِزْقِهِ

فُغِصَّ بِاللَّقْمَةِ، وخنقته العبرة. وقال جعفر الصادق: إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد. «وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» أي جحدتم حقي. وقيل: نِعَمِي؛ وَعَدَ بالعذاب على الكفر، كما وَعَدَ بالزيادة على الشكر، وحذفت الفاء التي في جواب الشرط من «إِنْ» للشهرة.

[٨] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

[٩] ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغني. «الحَمِيدُ» أي المحمود.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبا الخبر، والجمع الأنبياء؛ قال (١):

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الْآلِ الْأَنْبِيَاءِ تَنَمِي

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله: أي وأذكر يا محمد إذ قال ربك كذا. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله في كتابه. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يعرف نسبهم إلا الله؛ والتسابون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويمسكون عن نسب البعض؛ قد روي عن النبي ﷺ لما سمع التسابيين ينسبون إلى معد بن عدنان ثم زادوا فقال: «كذب التسابيون إن الله يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾». وقد روي عن عروة بن الزبير أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل. وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون

(١) القائل هو: قيس بن زهير، وتمام البيت:

بما لاقت لبون بني زياد

وبعده:

ومحبها على القرشي تشرى بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد: الربيع بن زياد وإخوته، أخذ لقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة وباعها

لعبد الله بن جدعان - وهو مراده بالقرشي - بدروع وسيوف.

أبا لا يعرفون. وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: كذب التسابون. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلالات. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي جعل أولئك القوم أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظاً^(١) مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾^(٢). وقال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أَنْ أَسَكْتَ، تكذيباً له، ورداً لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسناداً؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي إسحق عن أبي الأحوص [عن]^(٣) عبد الله في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال: عَضُّوا عليها غيظاً؛ وقال الشاعر:

لو أَنَّ سَلَمَى أَبْصَرَتْ تَخَذُّدِي^(٤) وَدِقَّةً فِي عَظْمِ سَاقِي وَيَدِي
وَبُعْدَ أَهْلِي وَجَفَاءَ عُوْدِي عَضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران»^(٢) مجوداً، والحمد لله. وقال مجاهد وقتادة: ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل معناه: أَوْمَأُوا للرسل أَنْ يَسْكُتُوا. وقال مقاتل: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم. وقيل: ردّ الرسل أيدي القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيدي هنا التَّعْم؛ أي ردوا نعم الرسل بأفواههم، أي بالنطق والتكذيب؛ ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى: كذبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و«في» بمعنى الباء؛ يقال: جلست في البيت وباليبيت؛ وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض. وقال أبو عبيدة: هو ضرب مَثَل؛ أي لم يؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

(١) من ي، وهي رواية ابن عباس. وفي أوحود: عضا. (٢) راجع ١٨٢/٤.

(٣) من ي. (٤) التخذد: أن يضطرب اللحم من الهزال.

الجواب وسكت: قد ردّ يده في فيه؛ وقاله الأخفش أيضاً. وقال القُتَيْبِيُّ: لم نسمع أحداً من العرب يقول: ردّ يده في فيه إذا ترك ما أمر به، وإنما المعنى: عضوا على الأيدي حنقاً وغيظاً؛ لقول الشاعر:

تَرُدُّونَ فِيهِ غِشَّ الْحُسُو دِ حَتَّى يَعْضَّ عَلَيَّ الْأَكْفَا
يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه. وقال آخر:

قَدْ أَفْنَى أَنَامِلَهُ أَرْمَةً^(١) فَأَضْحَى يَعْضُّ عَلَيَّ الْوُظَيْفَا

وقالوا: - يعني الأمم للرسول - ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقرّوا أنهم أرسلوا. ﴿وإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ أي في ريب ومِرة. ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موجب للريبة؛ يقال: أربته إذ فعلت أمراً أوجب ريبة وشكاً؛ أي نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

[١٠] ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام معناه الإنكار؛ أي لا شك في الله، أي في توحيده؛ قاله قتادة. وقيل: في طاعته. ويحتمل وجهاً ثالثاً: أفي قدرة الله شك؟ لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها؛ يدلّ عليه قوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدّها بعد العدم، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له، ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي إلى طاعته بالرسول والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيد: «من» زائدة. وقال سيويه: هي للتبعض؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع.

(١) أزيمة: عضاً؛ والوظيف لكل ذي أربع: ما فرق الرسغ إلى مفصل الساق.

وقيل: «من» للبدل وليست بزائدة ولا مُبْعَضَةٌ؛ أي لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ﴾ أي ما أنتم. ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة؛ وكان هذا محالاً منهم؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات.

[١١] ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

[١٢] ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَبَ عَلَىٰ مَاءٍ ءَازِيْمُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يتفضل عليه بالنبوة. وقيل؛ بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه.

قلت: وهذا قول حسن؛ وقد خرج الطبري من حديث ابن عمر قال قلت لأبي ذر: يا عم أوصني؛ قال: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: «ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا والله فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن يلهمهم ذكره». ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي بحجة وآية. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا؛ أي لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته؛ فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحدا ما لا يقدر عليه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ «ما» استفهام في موضع رفع بالابتداء، و«لنا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال؛ التقدير: أي شيء لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي الطريق الذي يوصل إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته. ﴿وَلَنَضِيرَنَّهُ﴾ لام قسم؛ مجازة: والله لنصبرن «عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا» به، أي من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفيننا ويثيبنا. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

[١٣] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

[١٤] ﴿وَلَنَسْكُنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ اللام لام قسم؛ أي والله لنخرجنكم. ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ﴾ أي حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبري وغيره. قال ابن العربي: وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإن «أو» على بابها من التخيير؛ خيّر الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾^(١) وقد تقدم هذا المعنى في «الأعراف»^(٢) وغيرها. «فِي مِلَّتِنَا» أي إلى ديننا، «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنَسْكُنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي مقامه بين يدي يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل. والمقام مصدر كالقيام؛ يقال: قام قياماً ومقاماً؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به. والمقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضم فعل الإقامة؛ و«ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(٣). وقال الأخفش: «ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي عذابي، «وَخَافَ وَعِيدِ» أي القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

[١٥] ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

[١٦] ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾.

[١٧] ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيٍّ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي وأستنصروا؛ أي أذن للرسول في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم؛ قاله ابن عباس وغيره، وقد مضى في «البقرة»^(١). ومنه الحديث: إن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(٢) الآية. وروي عن ابن عباس. وقيل قال الرسول: «إنهم كذبوني فافتح بيني وبينهم فتحا» وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذبنا، عن ابن عباس أيضاً؛ نظيره ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣) ﴿أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤). «وخاب كلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً؛ هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس. والعنيد المعاند للحق والمجانِب له، عن ابن عباس وغيره؛ يقال: عَنَدَ عن قومه أي تباعد عنهم. وقيل: هو من العَنَد، وهو الناحية وعاند فلان أي أخذ في ناحية مُعْرِضاً؛ قال الشاعر:

إذا نزلتُ فأجعلوني وسطاً إني كبيرٌ لا أُطِيقُ العُنْدَا

وقال الهَرَوِيُّ قوله تعالى: ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي جائر عن القصد؛ وهو العنود والعنيد والعاند؛ وفي حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة فقال: إنه عِرْقُ عَانِدٍ. قال أبو عبيد: هو الذي عَنَدَ وَبَغَى كالإنسان يعاند؛ فهذا العِرْقُ في كثرة ما يخرج منه بمنزلة. وقال شِمَرُ: العائد الذي لا يرقأ. وقال عمر يذكر سيرته: أَضْمُ العُنُودُ؛ قال الليث: العنود من الإبل الذي لا يخالطها إنما هو في ناحية أبداً؛ أراد من هم بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفٌ به إليها. وقال مقاتل: العنيد المتكبر. وقال ابن كيسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العنود والعنيد الذي

(١) راجع ٢٦/٢ فما بعد. (٢) راجع ٣٩٨/٧.

(٣) راجع ٣٤١/١٣. (٤) راجع ٢٤٠/٧.

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها؛ تقول العرب: شر الإبل العنود الذي يخرج عن الطريق. وقيل: العنيد العاصي. وقال قتادة: العنيد الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله.

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفاً، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أي متكبر. وقيل: إن المراد به في الآية أبو جهل؛ ذكره المهدوي. وحكى الماوردي في كتاب «أدب الدنيا والدين» أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أَتُوْعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فها أنا ذاك جَبَّارٌ عَنِيدُ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ يَا رَبِّ مَزَقْنِي الْوَلِيدُ

فلم يلبث [إلا] ^(١) أياماً حتى قُتل شر قتلة، وصُلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده. قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم، أي من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بعد؛ قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وليس وراءَ اللَّهِ للمرءِ مذهبٌ ^(٢)

أي بعد الله جلّ جلاله، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي من بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ ^(٣) أي بما سواه؛ قاله الفراء. وقال أبو عبيد: بما بعده. وقيل: ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ أي من أمامه، ومنه قول الشاعر:

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بِالْغُهِ لا حاضرٌ مُعِجِزٌ عنه ولا بادي

وقال آخر:

أَتَرْجُوْ بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وقومسي تميمٌ والفلاة ورائيا

وقال لبيد:

أليس ورائي إن [تراخت] ^(٤) منيَّتي لُزُومُ الْعَصَا تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ

(١) من و. (٢) ويروى: مهرب. (٣) راجع ٢/٢٩.

(٤) كذا في ديوانه «واللسان»، وفي الأصل: «إن بلغت منيَّتي».

يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾^(١) أي أمامهم؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطْرُب وغيرهما. وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك، أي سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه. وقال النحاس: في قوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى؛ أي أستر. وقال الأزهري: إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد، وقاله أبو عبيدة أيضاً، واشتقاقهما مما توارى واستتر، فجهنم تَوَارَى ولا تظهر، فصارت من وراء لأنها لا ترى، حكاه ابن الأنباري وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي من ماء مثل الصديد، كما يقال للرجل الشجاع أسد، أي مثل الأسد، وهو تمثيل وتشبيه. وقيل: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم. وقال محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: هو غسالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني. وقيل: هو من ماء كرهته تصد عنه، فيكون الصديد مأخوذاً من الصّد. وذكر ابن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ قال: «يَقْرَبُ إِلَى فِيهِ فَيَكْرَهُهُ فَإِذَا أَدْنَى مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ دَبْرِهِ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَسَقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾»^(٢) ويقول الله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾»^(٣) أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب، وعبيد الله بن بسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله بن بسر. ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي يَتَحَسَّاهُ جُرْعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي يبتلعه؛ يقال: جرع الماء وأجترعه وتجرعه بمعنى. وساغ الشَّرَابُ في الحلق يسوغ سَوْغاً إذا كان سَلِساً سَهْلاً، وأساغه الله إِسَاغَةً. و «يَكَادُ» صلة؛ أي يسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٤) أي فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾^(٥) فهذا يدل على الإِسَاغَةِ. وقال ابن عباس: يجيزه ولا يمر به^(٦). ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

(١) راجع ٣٤/١١. (٢) راجع ٢٣٧/١٦. (٣) راجع ٣٩/١٠.

(٤) راجع ٤٥٥/١. (٥) راجع ٢٧/١٢. (٦) كذا في الأصل؛ ولعله لا يجيزه ولا يمرأ به.

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿١﴾ قال ابن عباس: أي يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحتة ومن قدامه وخلفه، كقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾^(١). وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره؛ للآلام التي في كل مكان من جسده. وقال الضحّاك: إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجله. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتاً، وهي من أعظم الموت. وقيل: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكل به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة؛ إما حية تنهشه، أو عقرب تلسبه^(٢)، أو نار تسفعه، أو قيد برجله، أو غُلّ في عنقه، أو سلسلة يقرن بها، أو تابوت يكون فيه، أو زقوم أو حميم، أو غير ذلك من العذاب. وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافر في جهنم بالشراب فرآه مات موتاتٍ، فإذا دنا منه مات موتاتٍ، فإذا شرب منه مات موتاتٍ؛ فذلك قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قال الضحّاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جريج: تعلق رُوحه في حنجرتة فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتفتعه الحياة؛ ونظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾^(٣). وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً كل واحد منها كالموت. وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لتطول شدائد الموت به، وأمتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادة في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾^(٤) وبذلك وردت السنة؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائماً، والله أعلم. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ أي من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي شديد متواصل الآلام من غير فتور؛ ومنه قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^(٥) أي شدة وقوة. وقال فضيل بن عياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس.

(١) راجع ٢٤٢/١٥. (٢) تلسبه: تلدغه، وتسفعه تسود وجهه.

(٣) راجع ٢٢٥/١١. (٤) راجع ٣٥٢/١٤. (٥) راجع ٢٩٨/٨ فما بعد.

[١٨] ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَإُ الْبَعِيدُ﴾.

[١٩] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

[٢٠] ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلاف النحويون في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه : أرتفع بالابتداء والخبر مضمرة ، التقدير : وفيما يتلى عليكم أو يُقَصُّ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ثم أبتدا فقال : ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أي كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ . وقال الزجاج : أي مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد ، وهو عند الفراء على إلغاء المَثَل ، التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . وعنه أيضاً أنه على حذف مضاف ؛ التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد ؛ وذكر الأول عنه المهدوي ، والثاني القُشَيْرِيُّ والثعلبي ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر ؛ فـ «مَثَلُ» بمعنى صفة . ويجوز في الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ» وأتصل هذا بقوله : ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ والمعنى : أعمالهم مُحَبَّطَةٌ غير مقبولة . والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء ؛ فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الرِّيحُ الشديدة الرَّمَادَ في يوم عاصف . والعَصْفُ شدة الريح ؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها - أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الرِّيح تكون فيه ، فجاز أن يقال : يوم عاصف ، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد ، والبرد والحرّ فيهما . والثاني - أن يريد «فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» الرِّيح ؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة ، كما قال الشاعر :

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفٌ

يريد كاسف الشمس فحذف ؛ لأنه قد مرّ ذكره ؛ ذكرهما الهَرَوِيُّ . والثالث - أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحِرُ ضَبِّ خَرِبٍ ؛ ذكره

الثعلبي والمارودي. وقرأ ابن [أبي] ^(١) إسحق وإبراهيم بن أبي بكر «في يوم عاصف» ^(٢). «لَا يَقْدِرُونَ» يعني الكفار. «مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ» يريد في الآخرة؛ أي من ثواب ما عملوا من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر. «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» أي الخسران الكبير؛ وإنما جعله كبيراً بعيداً لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» الرؤية هنا رؤية القلب؛ لأن المعنى: ألم ينته علمك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي - «خَالَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». ومعنى «بِالْحَقِّ» ليستدل بها على قدرته. «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ» أيها الناس؛ أي هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه «يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» أفضل وأطوع منكم؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال. «وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ» أي منيع متعذر.

[٢١] ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَا لَكُم سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ ^(٢١).

[٢٢] ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(٢٢).

(١) من أوز ووى والبحر.

(٢) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف، ومن قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف؛ أي في يوم ريح عاصف. وقراءة نافع وابن جعفر: الرياح. على الجمع.

قوله تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة. والبروز الظهور. والبراز المكان الواسع لظهوره؛ ومنه امرأة برزة أي تظهر^(١) للناس؛ فمعنى، «برزوا» ظهوروا من قبورهم. وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال، وأتصل هذا بقوله: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي وقاربوا لما أستمثحوا فأهلكوا، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر. «لِلَّهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوز أن يكون تبع مصدر؛ التقدير: ذوي تبع. ويجوز أن يكون جمع تابع؛ مثل حارس وحرّس، وخادم وخدم، وراصد ورصد، وباقر وبقر^(٢). ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾ أي دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً، و«مِنْ» صلة؛ يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع. ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل: لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ هذا ابتداء خبره «أَجَزَعْنَا» أي: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي من مهرب وملجأ. ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: خاص فلان عن كذا أي فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصاً وحَيْصاً وحَيْصَاناً؛ والمعنى: ما لنا وجه نتباعد به عن النار. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول أهل النار إذا أشدّ بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾». وقال محمد بن كعب القرظي: ذكّر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون، فهلمّ فلنصبر؛ فلعلّ الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا، فطال صبرهم فجزعوا، فنادوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا

(١) قال في المصباح: امرأة برزة عفيفة تبرز للرجال وتتحدث معهم وهي المرأة التي أسنت وخرجت عن حد المحجوبات. اهـ. وامرأة برزة بارزة المحاسن. قال الراغب: لأن رفعتها بالعفة لا إن اللفظة اقتضت ذلك. (٢) بقر: شق ووسع.

مَالَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿١﴾ أَيِ مَنَجِيٍّ، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يقول: لست بمغني عنكم شيئاً ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكماله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلاق جميعاً. ومعنى: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي حُصِّلَ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، على ما يأتي بيانه في «مريم»^(١) عليها السلام. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ يعني البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصي فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم. وروى ابن المبارك من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ قَالَ: «يَقُولُ عِيسَى أَدْلَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْأَمِيِّ فَيَأْتُونِي فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ فَيُثَوِّرُ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ حَتَّى آتِيَ رَبِّي فَيَشْفَعَنِي وَيَجْعَلَ لِي نُوراً مِنْ شَعْرِ رَأْسِي إِلَى ظَفَرِ قَدَمِي ثُمَّ يَقُولُ الْكَافِرُونَ قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا فَيَقُولُونَ مَا هُوَ غَيْرُ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَاشْفَعْ لَنَا فَإِنَّكَ أَضَلَلْتَنَا فَيُثَوِّرُ مَجْلِسُهُ مِنْ أَنْتَنٍ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ ثُمَّ يَعْظُمُ نَحِيبُهُمْ وَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية. «وَعْدَ الْحَقِّ» هو إضافة الشيء إلى نعته^(٢) كقولهم: مسجد الجامع؛ قال الفراء قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحق أو وعدكم وعد الوعد الحق فصدقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة وبيان؛ أي ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيتته لكم في الدنيا، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ هو استثناء منقطع؛ أي لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لي باختياركم، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

دعوتكم فاستجبتم لي؛ وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فإنه يدلُّ على أنه خَطَبَ الكفارَ دونَ العاصينَ الموحِّدين؛ والله أعلم. ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إذا جِئْتُمُونِي من غير حجة. ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ أي بمغيثي. والصَّارِخُ والمستصرخ هو الذي يطلب النَّصْرَةَ والمعاونة، والمُصْرِخُ هو المغيث. قال سَلَامَةُ بن جَنْدَل:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعُ الظَّنَائِبِ^(١)
وقال أُمَيَّة بن أَبِي الصَّلْت:

وَلَا تَجْزَعُوا إِنِّي لَكُمْ غَيْرُ مُصْرِخٍ وَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي غَنَاءٌ وَلَا نَصْرُ

يقال: صَرَخَ فلان أي استغاث يَصْرِخُ صَرَخًا وَصَرَخًا وَصَرَخَةً. وأصطرخ بمعنى صَرَخ. والتَّصْرِخُ تَكْلُفُ الصُّرَاخ. والمُصْرِخُ المُغِيث، والمستصرخ المستغيث؛ تقول منه: أَصْطَرَخْنِي فأصْرخته. والصَّرِيخُ صوت المستصرخ. والصَّرِيخُ أيضاً الصَّارِخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهري. وقراءة العامة «بِمُصْرِخِي» بفتح الياء. وقرأ الأعمش وحمزة «بِمُصْرِخِي» بكسر الياء. والأصل فيها بمصْرخين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصب فلاجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل: هَوَايَ وَعَصَايَ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل: غَلَامِي وَغَلَامَتِي، ومن كسر فللتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة. وقال الفراء: قراءة حمزة وَهَمُّ منه، وَقُلْ مَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ^(٢) عن خطأ. وقال الزجاج: هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بني يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء. القُشَيْرِي: والذي يغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي ﷺ فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو رديء، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي

(١) الظنائب (جمع) ظنوب؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم. وقرع الظنوب أن يقرع الرجل ظنوب البعير ليتنوخ له فيركبه، والمراد هنا سرعة الإجابة. (٢) أي من القراء.

مِنْ قَبْلُ ﴿١﴾ أي كُفِرَتْ بِإِشْرَاكِكُمْ إِيَّايَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الطَّاعَةِ؛ فـ «مَا» بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ^(١): «إِنِّي كُفِرْتُ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى. قَتَادَةُ: «إِنِّي عَصَيْتُ اللَّهَ. الثَّوْرِيُّ: كُفِرَتْ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّايَ فِي الدُّنْيَا. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ وَالْإِمَامِيَّةِ وَمَنْ كَانَ عَلَى طَرِيقِهِمْ؛ أَنْظِرْ إِلَى قَوْلِ الْمُتَبَوِّعِينَ: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ وَقَوْلِ إِبْلِيسَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ كَيْفَ اعْتَرَفُوا بِالْحَقِّ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ؛ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿كُلَّمَا أَلْقَيْتُ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ ^(٢) وَاعْتَرَفَهُمْ فِي دَرَكَاتٍ لَطَى بِالْحَقِّ لَيْسَ بِنَافِعٍ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ الْاعْتِرَافُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ^(٣) وَ «عَسَى» مِنْ اللَّهِ وَاجِبَةٌ ^(٤).

[٢٣] ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ^(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أَيِ فِي جَنَّاتٍ لِأَن دَخَلَتْ لَا يَتَعَدَّى، كَمَا لَا يَتَعَدَّى نَقِيضُهُ وَهُوَ خَرَجَتْ، وَلَا يَقَاسُ عَلَيْهِ؛ قَالَ الْمَهْدَوِيُّ. وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى أَهْلَ النَّارِ أَخْبَرَ بِحَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَيْضًا. وَقَرَأَةُ الْجَمَاعَةِ «أَدْخِلْ» عَلَى أَنَّهُ فَعْلٌ مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ «وَأَدْخِلْ» عَلَى الْاسْتِقْبَالِ وَالْاسْتِثْنَاءِ. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أَيِ بِأَمْرِهِ. وَقِيلَ: بِمَشِيئَتِهِ وَتَسِيرِهِ. وَقَالَ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: بِإِذْنِي تَعْظِيمًا وَتَفْخِيمًا. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ تَقْدِمُ فِي «يُونُسَ» ^(٢). وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

[٢٤] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ^(١).

[٢٥] ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ^(٢).

(٢) راجع ١٨/٢١٢.

(١) كذا في ع، وفي أ و ج و د: ابن بحر.

(٤) أي ما دلت عليه محقق الحصول من الله.

(٣) راجع ٨/٢٤١ و ٣١٣.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المثل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ التمر، فحذف لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن. وقال مجاهد وابن جريج: الكلمة الطيبة الإيمان. عطية العوفيّ والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه. وقال مجاهد أيضاً وعكرمة: الشجرة النخلة؛ فيجوز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في قلب المؤمن - وهو الإيمان - شبهه بالنخلة في المنبت، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة، وثواب الله له بالتمر. وروي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مثل الإيمان كممثل شجرة ثابتة، الإيمان عروقتها والصلاة أصلها والزكاة وفروعها والصيام أغصانها والتأذي في الله نباتها وحسن الخلق ورقها والكفّ عن محارم الله ثمرتها». ويجوز أن يكون المعنى: أصل النخلة ثابت في الأرض؛ أي عروقتها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكية نامية. وخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: أتني رسول الله ﷺ بقنّاع^(١) فيه رطب، فقال: ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ - قال - هي النخلة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ - قال - هي الحنظل. وروي عن أنس قوله [وقال]: وهو أصح^(٢). وخرج الدارقطني عن ابن عمر قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أندرون ما هي» فوقع في نفسي أنها النخلة. قال السهيلي ولا يصح فيها ما روي عن عليّ بن أبي طالب أنها جَوْزَة الهند؛ لما صحّ عن النبي ﷺ في حديث ابن عمر «إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي» - ثم قال - هي النخلة، خرّجه مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره إلّا يحيى فإنه أسقطه من روايته. وخرجه أهل الصحيح وزاد

(١) القنّاع: الطبق من عشب النخل يوضع فيه الطعام والفاكهة.

(٢) أي قال الترمذي: والحديث الموقوف أصح.

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوي رحلة^(١)؛ عن النبي ﷺ قال: «وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة». فبيّن معنى الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغزّوّيّ عنه عليه السلام «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالنَّخْلَةِ إِنْ صَاحَبَتْهُ نَفْعَكَ وَإِنْ جَالَسَتْهُ نَفَعَكَ وَإِنْ شَاوَرَتْهُ نَفَعَكَ كَالنَّخْلَةِ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَنْتَفِعُ بِهِ». وقال: «كُلُّوا مِنْ عَمَّتِكُمْ» يعني النخلة خلقت من فَضْلَةِ طِينَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلبها تحيا، وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبِّهَتْ بِهِ؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها ييبست وزهبت أصلاً؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتحاق لأنها لا تحمل حتى تلحق قال النبي ﷺ: «خَيْرُ الْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ وَمُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ»^(٢). والإبَارُ اللِّقَاحُ وسيأتي في سورة «الحجر»^(٣) بيانه. ولأنها من فضلة طينة آدَمَ. ويقال: إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا صَوَّرَ آدَمَ مِنَ الطِّينِ فَضَّلَتْ قِطْعَةً طِينٍ فَصَوَّرَهَا بِيَدِهِ وَغَرَسَهَا فِي جَنَّةِ عَدْنٍ. قال النبي ﷺ: «أَكْرَمُوا عَمَّتَكُمْ» قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة». «تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ» قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ» غدوة وعشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه «تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ» قال: هو شجرة [جوزة]^(٤) الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر، شبه عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتي أكلها في أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاءً وصيفاً يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها. وقال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي بيت التّابغة:

تَنَازَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سَمِّهَا تُطَلِّقُهُ حِيناً وَحِيناً تُرَاجِعُ^(٥)

(١) أي يجب أن يرحل إليها لروايتها. (٢) السكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمهرة المأمورة الكثيرة النسل والتناج؛ أراد خير المال نتاج أو زرع. (٣) راجع ١٥/١٠. (٤) من ي. (٥) البيت في وصف حية؛ و «تناذرها الراقون» أي أنذر بعضهم بعضاً ألا يتعرضوا لها. ومعنى: «تطلقه حيناً وحيناً تراجع» أنها تخفي الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشد عليه. ويروى: «من سوء سمعها» أي أنها لا تجيب الراقي لا أنها صماء؛ لقولهم: أسمع من حية.

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها، من الرطب والبُسْر والبلح والزَّهْو^(١) والتَّمَر والطلح. وفي رواية عن ابن عباس: إن الشجرة شجرة في الجنة تثمر في كل وقت. و «مَثَلًا» مفعول بـ «ضَرَبَ»، «وَكَلِمَةً» بدل منه، والكاف في قوله: «كَشَجَرَةٍ» في موضع نصب على الحال من «كَلِمَةٍ» التقدير: كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة.

الثانية - قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ لما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألا يكلم فلاناً حيناً، ولا يقول كذا حيناً إن الحين سنة. وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾^(٢) قيل في «التفسير»: أربعون عاماً، وحكى عكرمة أن رجلاً قال: إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها فقلت: إن من الحين حيناً لا يدرك، قوله: ﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٣) فأرى أن تُمسك ما بين صِرَام^(٤) النخلة إلى حَمَلِهَا، فكانه أعجبه؛ وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره. وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة»^(٥) مستوفى والحمد لله. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدم.

[٢٦] ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد

(١) الزهو: البسر الملون.

(٢) راجع ١٩/١١٩.

(٣) راجع ١١/٣٥٠.

(٤) صرام النخلة: حين يقطع ثمرها.

(٥) راجع ١/٣٢١ فما بعد.

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضاً: أنها شجرة لم تخلق على الأرض. وقيل: هي شجرة الثوم؛ عن ابن عباس أيضاً. وقيل: الكُمَّة أو الطَّحْلبَة. وقيل: الكَشُوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وَهُمْ كَشُوثٌ فَلَا أَصْلَ وَلَا وَرَقٌ^(١)

﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أفتلت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لقيط^(٢):

هو الجلاء الذي يَجْتَنُّ أَصْلَكُمْ فمن رأى مثل ذا يوماً ومن سَمِعَا

وقال المؤرج: أَخَذَتْ جَنَّتُهَا وهي نفسها، والجَنَّة شخص الإنسان قاعداً أو قائماً. وَجَنَّهُ قَلْعُهُ، وَأَجَنَّتْهُ ائْتَلَعَهُ من فوق الأرض؛ أي ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي من أصل في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكَذَلِكَ الْكَافِر لَا حِجَّةَ لَهُ وَلَا ثَبَاتٍ وَلَا خَيْرَ فِيهِ، وما يصعد له قولٌ طَيِّبٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ. وروى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: المؤمن؛ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثَابِتَةٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ؛ «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: الشرك، «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: المشرك؛ ﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه. وقيل: يرجع المَثَلُ إِلَى الدِّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ، والدِّعَاءُ إِلَى الشَّرِكِ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ يَفْهَمُ مِنْهَا الْقَوْلُ والدِّعَاءُ إِلَى الشَّيْءِ.

[٢٧] ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وروى النسائي عن البراء قال قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ

(١) تمامه:

ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب. رواية «اللسان» و«التاج»: هو الكشوث.

(٢) هو لقيط بن معمر الأيادي، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه؛ فلم يلتفتوا إلى قوله، فظفر بهم كسرى وهزمهم.

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿ نزلت في عذاب القبر؛ يقال: مَنْ رَبِّكَ؟ فيقول: رَبِّيَ اللهُ ودينِي دين محمد، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

قلت: وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء [أنه] قوله^(١)، والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن^(٢) البراء عن النبي ﷺ؛ وذكر البخاري؛ حدثنا جعفر بن عمر، قال حدثنا شُعْبَةُ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَقْعَدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ آتٍ ثُمَّ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». وقد بيّنا هذا الباب في كتاب «التذكرة» وبيّنا هناك مَنْ يُقْتَنُ فِي قَبْرِهِ وَيُسَال، فمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ تَأَمَّلْهُ هُنَاكَ. وقال سهل بن عمار: رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أُنَانِي فِي قَبْرِي مَلَكًا فَظَّانٌ غُلِيظَان، فقالا: ما دينك ومن ربك ومن نبيك؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت: أَلِمْلِي يَقَالُ هَذَا وَقَدْ عَلِمْتُ النَّاسَ جَوَابَكُمَا ثَمَانِينَ سَنَةً! فَذَهَبَا وَقَالَا^(٣): أَكْتَبْتَ عَنْ حَرِيزِ بْنِ عَثْمَانَ؟ قلت نعم! فقالا: إِنَّهُ كَانَ يَبْغِضُ [عَلِيًّا]^(٤) فَأَبْغَضَهُ اللهُ. وقيل: معنى، ﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ يُدِيمُهُمُ اللهُ عَلَى الْقَوْلِ الثَّابِتِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ:

يُثَبِّتُ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصِرَا

وقيل: يشبّتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت. وقال القفال وجماعة: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي فِي الْقَبْرِ؛ لِأَنَّ الْمَوْتَى فِي الدُّنْيَا إِلَى أَنْ يَبْعَثُوا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَي عِنْدَ الْحِسَابِ؛ وَحِكَاةُ الْمَوْرِدِيِّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: الْمُرَادُ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْمُسَاءَلَةُ فِي الْقَبْرِ، وَبِالْآخِرَةِ الْمُسَاءَلَةُ فِي الْقِيَامَةِ: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ أَي عَنْ حُجَّتِهِمْ فِي قُبُورِهِمْ كَمَا ضَلُّوا فِي الدُّنْيَا

(١) أَي قَوْلُ الْبَرَاءِ. (٢) فِي ي: قَالَ الْبَرَاءِ.

(٣) فِي التَّهْذِيبِ غَيْرَ هَذَا فَلْيُرَاجَعْ.

(٤) فِي الْأَصُولِ «عَثْمَان» وَمِثْلُهُ فِي كِتَابِ «التَّذَكُّرَةِ» لِلْمُؤَلِّفِ. وَالَّذِي فِي «تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ» أَنَّهُ كَانَ

يَبْغِضُ عَلِيًّا.

بكفرهم فلا يُلْفَنهم كلمة الحق، فإذا سنلوا في قبورهم قالوا: لا ندري؛ فيقول: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ^(١)؛ وعند ذلك يُضْرَبُ بالمقامع^(٢) على ما ثبت في الأخبار؛ وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة». وقيل: يمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا. ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ﷺ لما وصف مُسَاءلة مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وما يكون من جواب الميت قال عمر: يا رسول الله أكون معي عقلي؟ قال: «نعم» قال: كُفَيْتُ إِذَا؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

[٢٨] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

[٢٩] ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْقَارَهُ﴾.

[٣٠] ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمداً ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم؛ عن ابن عباس وعلي وغيرهما. وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر. قال أبو الطُّفَيْل: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: هم قريش الذين نُجِرُوا يوم بدر. وقيل: نزلت في الأفْجَرَيْنِ من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمَتَّعُوا إلى حين؛ وأما بنو مخزوم فأهْلَكُوا يوم بَدْر؛ قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وقول رابع: أنهم مُتَنَصِّرَةُ العرب جَبَلَةُ بن الْأَيْيَمِ وأصحابه حين لَطَمَ فجعل له عمر القصاص بمثلها، فلم يرض وَأَنْفَ فَأَرْتَدَّ مُتَنَصِّراً وَلَحِقَ بِالرُّومِ في جماعة من قومه؛ عن ابن عباس وقتادة. ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال:

(١) قيل في معنى «ولا تليت»: «ولا تلتوت؛ أي لا قرأت؛ من تلا يتلو، وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الباء في دريت.

(٢) المقامع: سياط من حديد رمسها معوجة.

تَنْصُرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارٍ لَطْمَةٍ وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرْزُ
تَكْتَفِنِي مِنْهَا لَجَاجٌ وَنَخْوَةٌ وِبِعْتُ لها العَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَزِ
فِيَا لَيْتَنِي أَرَعَى الْمَخَاضَ بِلِدَّةٍ ولم أنكر القولَ الذي قاله عُمَرُ

وقال الحسن: إنها عامة في جميع المشركين. ﴿وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي أنزلوهم. قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر. ﴿أَحْلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي الذين أتبعوهم. ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ قيل: جهنم؛ قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر؛ قاله علي بن أبي طالب ومجاهد. واليوار الهلاك؛ ومنه قول الشاعر:

فلم أرَ مثلَهُمْ أبطالَ حَرْبٍ غداةَ الحربِ إذْ خِيفَ الْبَوَارُ

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يبين أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هي جهنم، أو بما عاد من الضمير في ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ لحسن الوقف على ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾. ﴿وَيُشَسِّ الْقَرَارُ﴾ أي المستقر. قوله تعالى: ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أي أصناماً عبدوها؛ وقد تقدم في «البقرة»^(١). ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومثله في «لقمان»^(٢) و «الزمر»^(٢) وضمها الباقون على معنى ليضلوا الناس عن سبيله، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم، أي عاقبتهم إلى الإضلال والضلال؛ فهذه لام العاقبة. ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ وعيد لهم، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع. ﴿فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَيَّ النَّارِ﴾ أي مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم.

[٣١] ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾.

(١) راجع ٢٣٠/١ فما بعدها.

(٢) راجع ١٦/١٢، و ٥٦/١٤، و ٢٣٧/١٥.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي إن أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول: أطع الله يُدخلك الجنة؛ أي إن أطعته يدخلك الجنة؛ هذا قول الفراء. وقال الزجاج: ﴿يُقِيمُوا﴾ مجزوم بمعنى اللام، أي لقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ «قل». قال: ويحتمل أن يقال: ﴿يُقِيمُوا﴾ جواب أمر محذوف؛ أي قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة. ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره. وقال الجمهور: السرّ ما خفي والعلانية ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»^(١) مجوداً عند قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾ تقدم في «البقرة»^(٢) أيضاً. و«خِلَالٌ» جمع خلة كفلة وقلال. قال^(٣):

فلست بمقلي الخلال ولا قالي

[٣٢] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآلَنْهَرَ﴾.

[٣٣] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

[٣٤] ﴿وَعَاتِلَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أبداعها واختراعها على غير مثال سبق. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب. ﴿مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من الشجر

(١) راجع ٣٣٢/٣ فما بعد و ٢٦٦ فما بعد.

(٢) قاله امرئ القيس، وصدر البيت:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى

ثمرات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ تقدم معناه في «البقرة»^(١). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران؛ روي معناه عن ابن عباس. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم من كل مسؤل سألتموه شيئاً؛ فحذف؛ عن الأخفش. وقيل: المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه، ومن كل ما لم تسألوه فحذف، فلم نسأله شمساً ولا قمرأً ولا كثيراً من نعمه التي أبتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾^(٣) على ما يأتي. وقيل: «مِنْ» زائدة؛ أي آتاكم كل ما سألتموه. وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما «وَاتَّكُم مِّنْ كُلِّ» بالتنوين «مَا سَأَلْتُمُوهُ» وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة؛ هي على النفي أي من كل ما لم تسألوه؛ كالشمس والقمر وغيرهما. وقيل: من كل شيء ما سألتموه أي الذي ما سألتموه. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي نعم الله. ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ ولا تطيقوا عدّها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسمع والبصر وتقويم الصُّور إلى غير ذلك من العافية والرزق؛ [نعم لا تحصى]^(٤) وهذه النعم من الله، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر؟! وهلا أستمتم بها على الطاعة؟! ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص؛ قال ابن عباس: أراد أبا جهل. وقيل: جميع الكفار.

[٣٥] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٥).

[٣٦] ﴿رَبِّ إِنِّهُنَّ أَصْلَانِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٦).

(١) راجع ٢/١٩٤. (٢) راجع ١٣/١٠٨.

(٣) راجع ١٠/١٦٠. (٤) من أوجو ووى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ يعني مكة وقد مضى في «البقرة»^(١). ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي اجعلني جانباً عن عبادتها، وأراد بقوله: «بنِي» بنيه من صُلْبِهِ وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنماً. وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له. وقرأ الْجَحْدَرِيُّ وعيسى «وَأَجْنِبْنِي» بقطع الألف والمعنى واحد؛ يقال: جَنَبْتُ ذلك الأمر؛ وأجنبته وجَنَّبْتُهُ إياه فتجانبه وأجتنبه أي تركه. وكان إبراهيم التَّيْمِيُّ يقول في قصصه: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ كما عبدها أبي وقومي.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ لما كانت سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل^(٢). ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ في التوحيد. ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي أصرَّ على الشرك. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: قال هذا قبل أن يعرفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به. وقيل: غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك.

[٣٧] ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٣).

فيه ست مسائل:

الأولى - روى البخاري عن ابن عباس: أول ما أتخذ النساء المنطق^(٣) من قبل أم اسمعيل؛ أتخذت منطقاً لتُعْفِي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها اسمعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحَةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد؛ وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

(١) راجع ١١٧/٢ فما بعد.

(٢) ف ي: لا تعقل.

(٣) المنطق: النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشيء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر في ذيلها.

بها ماء، فوضعهما هنالك؛ ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيمُ منطلقاً فتبعته أم إسماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس^(١) ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت إذا لا يضيّعنا؛ ثم رجعت، فأنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، أستقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش أبناها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلَبَّط^(٢) - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفاً أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم أستقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرفَ دِرعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه! تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث^(٣)! فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبَحَثَ بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُه وتقول^(٤) بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سِقَائِها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله.

(١) في و: أنيس.

(٢) يتلَبَّط: يتمرغ.

(٣) غواث: (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهي الإعانة.

(٤) «وتقول بيدها هكذا»: هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل. (قسطلاني).

مسألة - لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضيعة أتكالاً على العزيز الرحيم، وأقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غلاة الصوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وقد روي أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك أبنه وأمته هنالك وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كله يوحى من الله تعالى، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية.

الثانية - لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل المَلَك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء، وفي الصحيح: أن أبا ذر رضي الله عنه أجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذر: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسميت حتى تكسّرت عُنَي (١)، وما أجد على كبدي سَخْفَةً جوع (٢)؛ وذكر الحديث. وروى الدَّارِاقُطْنِي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له إن شربته تشفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه وهي هَزْمَةٌ (٣) جبريل وسُقْيَا الله إسماعيل». وروي أيضاً عن عكرمة قال: كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال: اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاء من كل داء. قال ابن العربي: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحت نيته، وسلمت طويته، ولم يكن به مكذباً، ولا يشربه مجرباً، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجربين. وقال أبو عبد الله محمد بن عليّ الترمذي وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلت الطّواف في ليلة ظلماء فأخذني من البول ما شغلني، ففعلت أعصر (٤) حتى آذاني، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج، فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فَتَضَلَّعْتُ (٥) منه، فذهب عني إلى الصباح. وروي عن عبد الله بن عمرو: إن في زمزم عيناً في الجنة من قبل الركن.

(١) جمع عكنة. وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً. (٢) سخفة الجوع: رفته وهزاله.

(٣) هزمة جبريل: أي ضربها برجله فنبع الماء. (٤) العصر: المنع والحبس.

(٥) تضلع: أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ «مِنْ» في قوله تعالى: «مِنْ ذُرِّيَّتِي» للتبويض أي أسكنت بعض ذريتي؛ يعني إسماعيل وأمه، لأن إسحق كان بالشام. وقيل: هي صلة؛ أي أسكنت ذريتي.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يدل على أن البيت كان قديماً على ما روي قبل الطوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»^(١). وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره، ووصفه بأنه محرم، أي يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع وأستحلال. وقيل: محرم على الجابرة، وأن تنتهك حرمة، ويستخف بحقه؛ قاله قتادة وغيره. وقد مضى القول في هذا في «المائدة»^(٢).

الخامسة - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خَصَّهَا من جملة الدِّين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد». الحديث. واللام في «لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ» لام كي؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ «أَسْكَنْتُ» ويصح أن تكون لام أمر، كأنه رغب إلى الله [أن يأتهم] ^(٣) أن يوفقهم لإقامة الصلاة.

السادسة - تَضَمَّنَتْ هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى «رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ» أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقوموا الصلاة فيه. وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي ﷺ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول الله ﷺ بمائة صلاة، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة». قال الإمام الحافظ أبو عمر: وأسنَد هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير وجوده، ولم يخلط في لفظه ولا في معناه، وكان ثقة. قال ابن أبي خيثمة سمعت

(١) راجع ١٢٠/٢ فما بعد.

(٢) راجع ٣٢٥/٦. (٣) من ي.

يحيى بن مَعِين يقول: حبيب المعلم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول: حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه! وسئل أبو زُرْعَةَ الرازي عن حبيب المعلم فقال: بصري ثقة.

قلت - وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير عن النبي ﷺ الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمي البستي في المسند الصحيح له، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف. والحمد لله. قال أبو عمر: وقد روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ مثل حديث ابن الزبير؛ رواه موسى الجهني عن نافع عن ابن عمر؛ وموسى الجهني [الكوفي] ^(١) ثقة، أثنى عليه القَطَّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبة والثوري ويحيى بن سعيد. وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدتي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه». وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرُّقَّة قد روى عنه أبو زُرْعَةَ الرازي، وأخذ عنه ابن وضاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به. فإن كان ^(٢) حفظ فهما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم. وروى محمد بن وضاح، حدثنا يوسف بن عدي عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدتي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل». قال أبو عمر: وهذا كله نص في موضع الخلاف قاطع له عند من ألهم رشدُه، ولم تمل به عصبية. وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي ﷺ على ما في هذا الباب. وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبَرِّزُ لهما في كل بلد إلا مكة فإنها تُصَلَّى في المسجد الحرام. وكان عمر وعلي وأبن مسعود وأبو الدُّرْدَاء وجابر يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعي، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وروي مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن

(١) من ي. هو موسى بن عبد الله الجهني الكوفي. (٢) في ي: حفظ فيهما حديثان.

آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال: يا رب هذه أحب إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة. والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، وأختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك؛ فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة.

قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الأفتدة جمع فؤاد وهي القلوب، وقد يُعبر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإن فؤاداً قادني بصَّبَابَةٍ إليك على طولِ المَدَى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وفد، والأصل أفودة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي، فكانه قال: واجعل وفوداً من الناس تهوي إليهم؛ أي تنزع؛ يقال: هوي نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هويّاً فهي هاوية إذا عدّت عدّواً شديداً كأنها في هواء بشر، وقوله: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» مأخوذ منه. قال ابن عباس ومجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: «مِنَ النَّاسِ» فهم المسلمون؛ فقوله: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» أي تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت. وقرأ مجاهد «تَهْوِي^(١) إِلَيْهِمْ» أي تهواهم وتجلّهم. «وَأَرْزَقَهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» فاستجاب الله دعاءه، وأنبث لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه: «فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل أمراته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألهم عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدة؛ فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبةً بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً^(٢) فقال: هل جاءكم من أحداً؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيّر عتبةً بابك؛ قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك ألحقني بأهلك؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجدده، ودخل على أمراته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال:

(١) قال الألوسي: مضارع هوى بمعنى أحب عدي يالى.

(٢) أي كأنه أبصر ورأى شيئاً لم يعهده.

كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأنت على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو^(١) عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه؛ وذكر الحديث. وقال ابن عباس: قول إبراهيم «فَجَعَلَ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكْنَى بمكة، فيصير بيتاً محرماً، وكل ذلك كان والحمد لله. وأول من سكنه جُرْهُم. ففي البخاري - بعد قوله: وإن الله لا يُضَيِّعُ أهلكه - وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، وكذلك حتى مرّت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهُم قافلين من طريق كُذَّا، فنزلوا بأسفل مكة، فرأوا طائراً عاقفاً^(٢) فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء؛ فأرسلوا جَرِيّاً^(٣) أو جَرِيَيْنِ فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء؛ فقالوا: أئاذنين لنا أن نزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حقّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «[ألقى]»^(٤) ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، شَبَّ الغلام، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته؛ الحديث.

[٣٨] ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

[٣٩] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

[٤٠] ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

[٤١] ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

(١) في و: عنهما. (٢) العائف هنا هو الذي يتردد على الماء ولا يمضي.

(٣) الجري: الرسول.

(٤) ألقى أي وجد ذلك الحي الجرمي أم إسماعيل، أو ألقى استئذان جرمهم بالتزول أم إسماعيل والحال أنها تحب الأنس؛ ففاعل ألقى (ذلك) و (ذلك) إشارة إلى الاستئذان.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجود بإسماعيل وأمه حيث أُسْكِنَا بَوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ. ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ قال الله: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي على كبر سني وسنّ امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وإسحق وهو ابن مائة وأنتى عشرة سنة. وقال سعيد بن جبّير: بُشِّرَ إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي وأجعل من ذريتي من يقيمها. ﴿رَبَّنَا وَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي عبادتي كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١). وقال عليه السلام: «الدعاء مُحُّ العبادة» وقد تقدم في «البقرة»^(٢). ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله. قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه.

قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جبّير، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ يعني أباه. وقيل: استغفر لهما طمعاً في إيمانهما. وقيل: استغفر لهما بشرط أن يُسلما. وقيل: أراد آدم وحواء. وقد روي أن العبد إذا قال: اللهم اغفر لي ولوالدي وكان أبواه قد ماتا كافرين أنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع. وقيل: إنه أراد ولديه إسماعيل وإسحق. وكان إبراهيم النخعي يقرأ: « وَلِوَالِدَيَّ » يعني أبنيه، وكذلك قرأ يحيى بن يعمر؛ ذكره الماوردي والنحاس. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمد ﷺ. وقيل: لِلْمُؤْمِنِينَ كلهم وهو أظهر. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي يوم يقوم الناس للحساب.

(١) راجع ٣٢٦/١٥.

(٢) راجع ٣٠٩/٢ فما بعد.

[٤٢] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (١٧).

[٤٣] ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم؛ أي أصبر كما صبر إبراهيم، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مهران: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني مشركي مكة يمهلهم ويؤخر عذابهم. وقراءة العامة «يؤخرهم» بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾. وقرأ الحسن والسلمي وروي عن أبي عمرو أيضاً «تؤخرهم» بالنون للتعظيم. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم، قاله الفراء. يقال: شَخَصَ الرجل بَصَرَهُ وشَخَصَ البصرُ نَفْسَهُ أي سَمَا وطَمَحَ من هول ما يرى. قال ابن عباس: تَشَخَصَ أَبْصَارُ الْخَلَائِقِ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْهَوَاءِ لَشِدَّةِ الْحَيْرَةِ فَلَا يَرْمَضُونَ. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير؛ مأخوذ من أَهْطَعَ يُهْطِعُ إِهْطَاعًا إِذَا أَسْرَعَ. ومنه قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾^(١) أي مسرعين. قال الشاعر:

بَدْجَلَةٌ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ بَدْجَلَةً مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ

وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع؛ أي ناظرين من غير أن يَطْرَفُوا؛ قاله ابن عباس، وقال مجاهد والضحاك: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مديمي النظر. وقال النحاس: والمعروف في اللغة أن يقال: أَهْطَعَ إِذَا أَسْرَعَ؛ قال أبو عبيد: وقد يكون الوجهان جميعاً يعني الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المهطع الذي لا يرفع رأسه. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رءوسهم ينظرون في ذل. وإقناع الرأس رفعه؛ قاله ابن عباس ومجاهد. قال ابن عرفة والقُتَيْبِيُّ وغيرهما: المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه؛ ومنه الإقناع في الصلاة^(٢)

(١) راجع ١٧/١٣٠.

(٢) الإقناع في الصلاة أن يرفع المصلي رأسه حتى يكون أعلى من ظهره.

وأفنع صوته إذا رفعه . وقال الحسن : وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .
وقيل : ناكسي رءوسهم ؛ قال المهدوي : ويقال أفنع إذا رفع رأسه ، وأفنع إذا طأطأ رأسه ذلة
وخضوعاً ، والآية محتملة الوجهين ، وقاله المبرد ، والقول الأول أعرف في اللغة ؛ قال الرازي :

أَنغَضَ^(١) نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَفْنَعَا كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَا
وقال الشَّماخ يصف إبلاً :

يُبَاكِرنَ العِضَاهُ^(٢) بِمُقْنَعَاتٍ نَوَاجِذهنَ كَالْحَدَاِ الْوَقِيعِ

يعني : برءوس مرفوعات إليها لتتناولهن . ومنه قيل : مُقْنَعَةٌ لارتفاعها^(٣) . ومنه
قنع الرجل إذا رَضِيَ ؛ أي رفع رأسه عن السؤال . وقنع إذا سأل أي أتى ما يتقنع منه ؛ عن
النحاس . وفم مُقْنَعٌ أي معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقْنَعٌ بالتشديد ؛ أي عليه بيضة
قاله الجوهري . ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي
شاخصة النظر . يقال : طَرَفَ الرجلُ يَطْرِفُ طَرْفًا إذا طَبَقَ جَفْنَهُ على الآخر ، فسَمِيَ النظر
طَرْفًا لأنه به يكون . والطَّرْفُ العين . قال عَنَترة :

وَأَغَضَّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارِتِي حَتَّى يُوَارِي جَارِتِي مَأْوَاهَا
وقال جَمِيل :

وَأَقْصِرَ طَرْفِي دُونَ جُنْجِلِ كَرَامَةٍ لِجُمْلٍ وَلِلطَّرْفِ الَّذِي أَنَا قَاصِرُهُ

﴿وَأَفْنَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي لا تغني شيئاً من شدة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير .
السُّدِّي : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم ؛ وقال مجاهد ومرة وابن زيد :
خاوية خربة مُنْخَرَقَةٌ^(٤) ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء : إنما
هو هَوَاءٌ ؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المجوَّفُ الخالي ؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَيْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ^(٥) نَخِبٌ هَوَاءٌ

(١) أنغض رأسه : حركه . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والحداء (بفتح الحاء)
وقيل : (بكسرهما) جمع حداء ، وهي الفأس ذات الرأسين ؛ والوقيع : المحدد . شبه الشاعر أسنان الإبل
بالفؤس في الحدة . (٣) أي على الرأس من المرأة . (٤) في و : محرقة .
(٥) المجوَّف والمجوَّف : الجبان الذي لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يقال : رجل
نخب أي جبان ؛ كأنه منتزع الفؤاد .

وقال زهير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأن الرجل منها فوق صعل^(١) من الظلّمان جؤجؤه هواء

فارغ أي خالي؛ وفي التنزيل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى^(٢) فَارِغًا﴾ أي من كل شيء إلا من هم موسى. وقيل: في الكلام إضمار؛ أي ذات هواء وخلاء.

[٤٤] ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة؛ أي خوفهم ذلك اليوم. وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي في ذلك اليوم ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أي أمهلنا. ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق في الآخرة. ﴿نَحْبِ دَعْوَتِكَ﴾ أي إلى الإسلام. ﴿وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾. فيجابوا: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ يعني في دار الدنيا. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قال مجاهد: هو قسم قریش أنهم لا يبعثون. ابن جريج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾^(٣). ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فيه تأويلان: أحدهما - ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة؛ أي لا تبعثون ولا تحشرون؛ وهذا قول مجاهد. الثاني - ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي من العذاب. وذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾^(٤) فيجيبهم الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾.

(١) «فوق صعل» شبه الناقة في سرعتها بالظليم وهو ذكر النعام، فكان رحلها فوقه. والصعل: الصغير الرأس، وبذلك يوصف الظليم والجؤجؤ الصدر.

(٢) راجع ٢٥٤/١٣. (٣) راجع ١٠٥/١٠.

(٤) راجع ٢٩٦/١٥.

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾^(١) فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ﴾^(٢). ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَخْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾^(٣) فلا يتكلمون بعدها أبداً؛ خرجه ابن المبارك في «دقائقه» بأطول من هذا - وقد كتبهنا في كتاب «التذكرة» - وزاد في الحديث ﴿وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ. وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله: ﴿أَخْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبج بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال: فحدثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرِضُونَ﴾^(٣).

[٤٥] ﴿وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾^(١٥).

[٤٦] ﴿وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(١٦).

قوله تعالى: ﴿وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي «وَتَبَيَّنَ لَكُمْ» بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي؛ وليناسب قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾. وقراءة الجماعة، «وَتَبَيَّنَ» وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره. ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ «إن بمعنى «ما» أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ «وإن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني - ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا^(١) إِلَيْكَ﴾. الثالث - ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَا نَتَّخِذُنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا^(٢)﴾ أي ما كنا. الرابع - ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ^(٣)﴾. الخامس - ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ^(٤)﴾. وقرأ الجماعة «وإن كان» بالنون. وقرأ عمرو بن علي وابن مسعود وأبي «وإن كاد» بالدال. والعامّة على كسر اللام في «لتزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً. وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائي «لتزول» بفتح اللام الأول على أنها لام الابتداء ورفع الثانية «وإن» مخففة من الثقيلة، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم؛ أي ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه؛ قال الطبري: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنباري: ولا حجة على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدّثناه أحمد بن الحسين: حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن دانيال^(٥) قال سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن جبّاراً من الجبابرة قال لا أنتهي حتى أعلم من في السموات، فعمد إلى فراخ نُسور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى أشتدت وعَصَلَتْ وأستعَلَجَتْ^(٥) أمر بأن يُتَخَذَ تابوتٌ يسع فيه رجلين؛ وأن يجعل فيه عصا في رأسها لحم شديد حمرة، وأن يُسْتَوْتَقَ من أرجل النُسر بالأوتاد؛ وتُشَدَّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحب له في التابوت وأثَارَ النُسر، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبّار لصاحبه: أفتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: أرى الجبال كأنها ذباب، فقال: أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبّار لصاحبه: أفتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْداً، فقال: نكس العصا فنكسها، فانقضت النُسر. فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدة كادت الجبال تزول عن

(٣) راجع ١١٩/١٦ و ٢٠٨.

(١) راجع ٣٨٢/٨. (٢) راجع ٢٧٥/١١.

(٤) هذا السند في كل الأصول ولم نقف عليه رغم البحث.

(٥) استعجلت: غلظت.

مراتبها^(١) منها: قال: فسمعت علياً رضي الله عنه يقرأ ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾ بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية. وقد ذكر الثعلبي هذا الخبر بمعناه، وأن الجبار هو التمرود الذي حاج إبراهيم في ربه، وقال عكرمة: كان معه في التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخاً بالدماء وقال: كُفَيْتُ نَفْسَكَ^(٢) إِلَهَ السَّمَاءِ. قال عكرمة: تَلَطَّخَ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليه من بحر في الهواء معلّق. وقيل: طائر من الطير أصابه السهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنَكِّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء، وأن الساعة قد قامت، فذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. قال القشيري: وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال. وذكر الماوردي عن ابن عباس: أن النمرود بن كنعان بنى الصّرح في قرية الرسّ من سواد، الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذ حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعاً، فهذا معنى ﴿وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ﴾ وفي الجبال التي عَنَى زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما - جبال الأرض. الثاني - الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال. وقال القشيري: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي هو عالم بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف. ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بكسر اللام؛ أي ما كان مكرهم مكرّاً يكون له أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مثل لأمر النبي ﷺ. وقيل: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ» في تقديرهم «لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» وتؤثر في إبطال الإسلام. وقرئ «لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية؛ أي كان مكرّاً عظيماً تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله ﷺ

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية في تفسيره بعد أن حكاه عن الطبري بقوله: «وذلك عندي لا يصح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي هذه القصة ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، ويعيد أن يغرر أحد بنفسه في مثل هذا».

(٢) عبارة الثعلبي في «قصص الأنبياء»: (كفيت شغل إله السماء).

وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا﴾^(١) والجبال لا تزول ولكن العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

[٤٧] ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أَسْمُ اللَّهِ تعالى و «مخلف» مفعولا تحسب؛ و «رُسُلُهُ» مفعول «وَعْدِهِ» وهو على الاتساع، والمعنى: مخلف وعده رسله؛ قال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسُهُ وَسَائِرُهُ بِإِدِّ إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعُ^(٢)

قال القُتَيْبِيُّ: هو من المقدم الذي يوضحه التأخير، والمؤخر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك: مخلف وعده رسله، ومخلف رسله وعده. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أي من أعدائه. ومن أسمائه المتقم وقد بيناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

[٤٨] ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

[٤٩] ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

[٥٠] ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعَشَّىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾.

[٥١] ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[٥٢] ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ الْأُولَاءُ

الْأَلْبَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ أي أذكر يوم تبدل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله. وقيل: هو صفة لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾. واختلف في كيفية تبديل

(١) راجع ٣٠٦/١٨.

(٢) يصف الشاعر هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كسها، فترى الثور مدخلا لرأسه في ظل كناسه لما يجده من الحرارة، وسائره بارز للشمس.

الأرض، فقال كثير من الناس: إن تبدل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها؛ ورواه ابن مسعود رضي الله عنه؛ أخرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب، قال حدثني ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة مُدَّتْ الأرضُ مدَّ الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث. وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تبدل الأرض غير الأرض فيسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكاظي»^(١) لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ثم يزر الله الخلق زجرة فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى [من كان في بطنها ففي بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها]^(٢) ذكره الغزنوي. وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها؛ قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرة كالملهل^(٣) ومرة كالذهان^(٤)؛ حكاه ابن الأنباري؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيناً في كتاب «التذكرة» وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي ﷺ. روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه خبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك؛ وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظلمة دون الجسر»^(٥). وذكر الحديث. وخرج عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ» فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: «على الصراط». أخرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وأخرجه الترمذي عن عائشة وأنها هي السائلة، قال: هذا حديث حسن صحيح؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدَّل وتُزال، ويخلق الله أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجسر. وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ

(١) أديم عكاظي: منسوب إلى عكاظ، وهو مما حمل إليها فبيع بها. وعكاظ: اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة. والأمت: المكان المرتفع والتلال الصغار والانخفاض والارتفاع.
(٢) عبارة الأصل هنا ناقصة وعرقه، والزيادة والتصويب من «تفسير الطبري» وكتاب «التذكرة» للمؤلف.

(٣) راجع ٢٨٤/١٨.

(٤) راجع ١٧٣/١٧. (٥) الجسر: الصراط.

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ»^(١) لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ. وَقَالَ جَابِرٌ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ» قَالَ: تُبَدَّلُ خُبْزَةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ»^(٢). وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّهَا تُبَدَّلُ بِأَرْضٍ غَيْرِهَا بَيْضَاءَ كَالْفَضَّةِ لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِأَرْضٍ مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءَ. وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُبَدَّلُ الْأَرْضُ يَوْمَئِذٍ مِنْ فِضَّةٍ وَالسَّمَاءُ مِنْ ذَهَبٍ وَهَذَا تَبْدِيلٌ لِلْعَيْنِ، وَحَسْبُكَ. «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» أَيِ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ» وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ. «يَوْمَئِذٍ» أَيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. «مُقَرَّنِينَ» أَيِ مُشْدُودِينَ «فِي الْأَصْفَادِ» وَهِيَ الْأَغْلَالُ وَالْقِيُودُ، وَاحِدُهَا صَفْدٌ وَصَفْدٌ. وَيُقَالُ: صَفَدْتُهُ صَفْدًا أَيِ قَيْدْتُهُ وَالْأَسْمُ الصَّفْدُ، فَإِذَا أُرِدَتْ التَّكْثِيرُ قُلْتُ: صَفَدْتُهُ تَصْفِيدًا؛ قَالَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ:

فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ

أَيِ مَقِيدِينَا. وَقَالَ حَسَنُ:

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ صَفْرٍ إِذَا لَاقَى الْكَرِيهَةَ حَامٍ

أَيِ غَلُّهُ، وَأَصْفَدْتُهُ إِصْفَادًا أَعْطَيْتُهُ. وَقِيلَ: صَفَدْتُهُ وَأَصْفَدْتُهُ جَارِيَانٍ فِي الْقَيْدِ وَالْإِعْطَاءِ جَمِيعًا؛ قَالَ النَّابِغَةُ:

فَلَمْ أَعْرِضْ أَبَيْتَ اللَّعْنِ^(٣) بِالْصَّفْدِ

فَالصَّفْدُ الْعِطَاءُ؛ لِأَنَّهُ يُقَيَّدُ وَيُعْبَدُ؛ قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

وَقَيْدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ^(٤) مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقْيَدًا

(١) النقي: الدقيق الحواري. والحواري: ما حوّر أي بيض. والعلم الأثر. (٢) راجع

٢٧٢/١١.

(٣) معنى أبيت اللعن: أي أبيت أن تأتي شيئاً تلعن عليه، وصدر البيت:

هذا الشاء فإن تسمع لقائله

(٤) الذرا (بالفتح): الدار ونواحيها، وكل ما استرت به؛ تقول: أنا في ذرا فلان أي في كنفه وستره.

قيل: يقرن كل كافر مع شيطان في غُلٍّ، بيانه قوله: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾^(١) يعني قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاة كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي. ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ أي قمصهم، عن ابن دُرَيْد وغيره، واحدها سِرْبَال، والفعل تَسْرَبَلْتُ وَتَسْرَبَلْتُ غيري؛ قال كعب بن مالك:

تَلَقَّاكُمْ عَصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

«مِنْ قَطْرَانٍ» يعني قطران الإبل الذي تَهْنَأُ^(٢) به؛ قاله الحسن. وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم. وفي الصحيح: أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِرْبَال من قطران وِدْرَع من جَرَب. وروي عن حماد أنهم قالوا: هو الثَّحَاس. وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء. وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَشْوَحَا^(٣) لَبَسَهُ الْفَطْرَانُ وَالْمُسُوحَا

وقراءة رابعة: «مِنْ قَطْرَانٍ»^(٤) رويت عن ابن عباس وأبي هريرة وعكرمة وسعيد بن جبيرة ويعقوب؛ والقَطْر النحاس والصُّفْر المذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿آتُونِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾^(٥). والآن: الذي قد انتهى إلى حرّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾^(٦). ﴿وَتَغَشَّى﴾ أي تضرب ﴿وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ فَتَغَشِّيَهَا... ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي بما كسبت. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي هذا الذي أنزلنا إليك بلاغ؛ أي تبليغ وعظة. ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أي ليخوفوا عقاب الله عز وجل، وقرئ. ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ بفتح الياء والذال، يقال: نَذَرْتُ بالشيء أنذرت إذا علمت به فاستعددت له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكانهم استغنوا بأن والفعل كقولك: سَرَرَنِي أَنْ نَذَرْتُ بالشيء. ﴿وَلِيَعْلَمُوا

(١) راجع ٧٢/١٥. (٢) تهنأ به: ترحن. (٣) نتح العرق خرج من الجلد.

(٤) «قطر»: ضبطه في «روح المعاني» بفتح القاف وكسر الطاء وتثنية الراء، ومثله في «البحر المحيط»، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، ففيه ثلاث لغات.

(٥) راجع ٦٢/١١.

(٦) راجع ١٧٥/١٧.

أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿١﴾ أَي وَلْيَعْلَمُوا وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ بِمَا أَقَامَ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبُرَاهِينِ. ﴿وَلْيَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَي وَلْيَتَعَزَّ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. وَهَذِهِ اللَّامَاتُ فِي «وَلْيُنذَرُوا» «وَلْيَعْلَمُوا» «وَلْيَذَكَّرْ» مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ؛ التَّقْدِيرُ: وَلِذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ. وَرَوَى يَمَانُ بْنُ رِثَابٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ هَلْ لِكِتَابِ اللَّهِ عُنْوَانٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ قِيلَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ إِلَى آخِرِهَا. تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

محققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تَمَّ الْجُزْءُ التَّاسِعُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ
يَتْلُوهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى الْجُزْءُ الْعَاشِرُ، وَأَوَّلُهُ:
سُورَةُ «الْحَجَرِ»

فهرس الجزء التاسع

تفسير سورة هود

القول بمكيّتها. الترغيب في تلاوتها يوم الجمعة. الأحاديث الواردة في أنها شئبت
النبي ﷺ وتأريـل ذلك. أقوال النحويين في تنوين لفظ هود وعدم تنوينه إذا جعل اسماً
للسورة.

تفسير قوله تعالى: ﴿الر كتاب أحكمت آياته...﴾ الآيات. بيان معنى إحكام الآيات وتفصيلها. ما قيل في عطف التوبة على الاستغفار. الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. معنى المتاع الحسن. الأقوال في الأجل المسمى

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَفْخِفُوا مِنْهُ...﴾ الآية. سبب نزولها.

القراءات في ﴿يَشْتُونَ﴾ ومعناها

٤/٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها...﴾ الآية. معنى ﴿على﴾ في الآية. ظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص، أو هي عامة. وجه نظم الآية بما قبلها. معنى الدابة. حقيقة الرزق. لا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك. قصة الأشعرين لما هاجروا وقدموا على النبي ﷺ وقد نفد زادهم. الأقوال في المستقر والمستودع

تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ الآية. بيان أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسما. الآثار في بدء الخلق
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَثَنَ أَعْرَافَهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولَنَ مَا يَحْبِسُهُ...﴾

الآيات ١٠/٩

تفسير قوله تعالى : ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ . . . الآيات . سبب النزول . من قال : ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي . ١١/٩

- تفسير قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ الآية .
فيه مسائل: هل ﴿كان﴾ هنا زائدة، أو هي في موضع جزم بالشرط. اختلاف العلماء
في تأويل الآية ١٣/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار...﴾ الآية. إشارة الآية
إلى التخليد في النار. تأويلها إذا أريد بها المؤمن. اقتضاؤها الوعيد بسلب الإيمان
تفسير قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه...﴾ الآية. أقوال
العلماء في الذي على بينة والشاهد ١٦/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً...﴾ الآيات. الكلام على
الآشهاد ١٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم...﴾ الآيات. أقوال العلماء في
إعراب ﴿لا جرّم﴾ ومعناها ٢٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب
الجنة...﴾ الآيات. بيان معنى الإخبات وأصله. الحكمة في ذكر قصص الأنبياء
عليهم السلام للنبي ﷺ ٢١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً...﴾ الآية.
فيه مسائل: بيان معنى ﴿الملا﴾ مفرد أرذل «رذل» أو «أرذل». معنى الرذل في اللغة
والمراد به هنا. اختلاف العلماء في تعيين السفلة. السمك من السفلة أم لا ٢٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي...﴾ الآيات ٢٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا...﴾ الآيات ٢٧/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن...﴾
الآيات ٢٩/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه...﴾
الآيات. قصة السفينة ٣٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجربها ومرساها...﴾ الآيات ٣٦/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي...﴾ الآيات. فيه
مسائل: بيان استحلال نداء نوح عليه السلام لابنه. هل كانت خيانة امرأته له في
الفراش، أو في إخبار قومها بقران التنوير. في الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن
كانوا صالحين. فيها دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعاً. فيها دليل على أن
الولد للفراش على القول بأن الولد كان ابن امرأته ٤٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره...﴾ الآيات. عاد اسم رجل انتسبوا إليه. كان قوم هود أهل بساتين وزروع

- وعماره. كانت مساكنهم الرمال ٤٩/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾ الآية. فيه مسائل: اختلاف القراء في صرف ثمود وعدم صرفه. بيان معنى الاستعمار هنا. المعاني في كلمة استفعل. العمرى وحكمها عند الفقهاء .. ٥٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا...﴾ الآيات ٥٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام...﴾ الآيات. في قوله تعالى: ﴿فما لبث أن جاء بعجل خنيذ﴾ مسائل: الكلام على الضيافة. الجمهور على أن المراد بضحك سارة هو الضحك المعروف لا الحيز. التسمية في أول الطعام والحمد في آخره مشروع في الأمم قبلنا ٦٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً...﴾ الآية. فيه مسألان: أصل ﴿يا ويلتا﴾ ودلالاتها ٦٩/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت...﴾ الآية. فيه مسائل: إنكار الملائكة على سارة تعجبها من أمر الله. في الآية دليل لأكثر العلماء على أن الذبيح إسماعيل. فيها دليل على أن زوجة الرجل من أهل البيت. فيها دليل على أن منتهى السلام وبركاته ٧٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الأُنثى وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط...﴾ الآيات. ما قيل في مجادلة إبراهيم عليه السلام للرسول ٧٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم...﴾ الآيات. قصة لوط عليه السلام. هل بناته كنن من صلبه، أو المراد بهن جملة النساء، أو كان الكلام مدافعة. ليس ألف ﴿أطهر﴾ للتفضيل ٧٣/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾ الآيات. مدين بنو مدين، أو أنه اسم مدينتهم نسبوا إليها. قوم شعيب عليه السلام كانوا يقطعون الدراهم والدنانير أيضاً. قاطع الدراهم والدنانير ترد شهادته ويعاقب ٨٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين...﴾ الآيات ٩٣/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك...﴾ الآيات. اختلاف العلماء في تأويل: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾. اختلافهم في استثناء: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ على عشرة أقوال ٩٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كلاً لما ليوفيتهم ربك أعمالهم...﴾ الآية. اختلاف القراء في قراءة ﴿وإن كلاً لما﴾ ١٠٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار...﴾ الآية. فيه مسائل: حقيقة الركون والمراد به هنا. القراءة في ﴿تركنوا﴾ دلالة الآية على هجران أهل

- ١٠٧/٩ الكفر والمعاصي . صحبتهم عن ضرورة مباحة
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ الآية . فيه مسائل :
- المراد بالصلاة هنا المفروضة . الرد على من زعم من الصوفية أن المراد بها استغراق الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلًا . اختلاف العلماء في المراد بطرفي النهار . الحسنات ها هنا هي الصلوات الخمس أو هي عامة . سبب نزول الآية رجل من الأنصار خلا بامرأة فقبلها . دلت الآية على أن القبلة الحرام لا يجب فيها الحد . الصلاة ذكرت في القرآن مجملة وبينها النبي ﷺ
- ١٠٨/٩ تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الآيات
- ١١٤/٩ تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ الآيات
- ١١٦/٩ تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئْتُ بِهِ فَوَادِكُ ﴾ الآيات

تفسير سورة يوسف عليه السلام

- تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الآيات . السورة مكية كلها أو
- ١١٨/٩ إلا أربع آيات منها . سبب نزول السورة
- تفسير قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . اختلاف العلماء في تسمية هذه السور بأحسن القصص
- ١١٩/٩ تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ الآية .
- ١٢٠/٩ ذكر أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام
- تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾
- ١٢٢/٩ الآية . فيه مسائل : الكلام على الرؤيا
- تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية .
- ١٢٨/٩ معنى الاجتباء وأصله . كان تفسير رؤيا يوسف عليه السلام بعد أربعين سنة
- تفسير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَسَائِلِينَ ﴾ الآيات . السائلون عن قصة يوسف هم اليهود بالمدينة . أسماء إخوة يوسف وعددهم . اختلافهم في القائل بقتل يوسف أو طرحه
- ١٢٩/٩ تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ الآية . فيه مسائل : الاختلاف في القائل بطرح يوسف في الجب . تدبير إخوة يوسف يدل على أنهم لم يكونوا أنبياء . معنى الالتقاط والكلام على اللقطة والضوال
- ١٣١/٩ تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ الآيات
- ١٣٨/٩ تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِحِزْنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ الآيات
- ١٤٠/٩

- تفسير قوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب...﴾ الآية... ١٤١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وجاءه أباهم عشاء يبكون﴾. فيه مسألتان: بيان سبب مجيئهم ليلاً، ووقع الخبر عند يعقوب عليه السلام. في الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ١٤٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب...﴾ الآية. فيه مسائل: الكلام على المسابقة. مسابقة النبي ﷺ لأبي بكر وعمر ١٤٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وجاءه على قميصه بدم كذب...﴾ الآية. فيه مسائل: الدم الكذب كان دم سخلة أو جدي ذبحوه. استدلال يعقوب عليه السلام بسلامة القميص على كذبهم. استدلال الفقهاء بهذه الآية على إعمال الأمارات في مسائل من الفقه ١٤٩/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه...﴾ الآية ١٥٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة...﴾ الآية. فيه مسائل اختلاف العلماء في معنى ﴿بخس﴾ هنا. أصل التقدين الوزن. اختلاف العلماء في الدراهم والدنانير هل تتعين أو لا. في الآية دليل على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ١٥٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه...﴾ الآية ١٥٧/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً...﴾ الآية ١٦١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ الآيات ١٦٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر...﴾ الآية. فيه مسألتان: في الآية دليل على القياس والعمل بالعمل ١٧٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قال هي راودتني عن نفسي...﴾ الآيات. فيه مسائل: الاختلاف في الشاهد. إذا كان الشاهد طفلاً فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات. قول محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل ١٧٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه...﴾ الآيات ١٧٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه...﴾ الآيات ١٨٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه...﴾ الآية. فيه مسائل: بيان علامات براءة يوسف. مقدار المدة التي أقامها في السجن. حكم ما إذا أكره الرجل على الزنى ١٨٦/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ودخل معه السجن فتيان...﴾ الآيات. مواصلة يوسف لأهل السجن. قصة الخباز والساقى ١٨٨/٩

- تفسير قوله تعالى: ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار...﴾
 الآيات ١٩٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً...﴾ الآية. فيه
 مسائل: تأويل رؤيا الساقى والخباز. من كذب في رؤياه ففسرها له العابر يلزمها
 حكمها ١٩٣/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك...﴾ الآية. فيه
 مسائل: الظن هنا بمعنى اليقين، أو هو على بابه. النهي عن دعاء السيد بالرب،
 والمملوك بالعبد. الأقوال في تفسير البضع. في الآية دليل على جواز التعلق
 بالأسباب ١٩٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف...﴾
 الآية ١٩٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا أضغاث أحلام...﴾ الآية ٢٠٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله...﴾
 الآيات ٢٠١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً...﴾ الآية. الآية أصل في القول
 بالمصالح الشرعية ٢٠٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد...﴾ الآية. الآية أصل في صحة
 رؤيا الكافر ٢٠٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال الملك اتوني به أستخلصه لنفسي...﴾ الآية ٢١٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قال اجعلني على خزانة الأرض...﴾ الآية. فيه مسائل: بيان تقليد
 يوسف الإمارة وتزويجه زليخا. في الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل
 الفاجر والسلطان الكافر. وفيها دليل على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له
 أهلاً ٢١٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء...﴾
 الآيات ٢١٧/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم...﴾ الآيات ٢٢٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله...﴾ الآية. الآية
 أصل في جواز الحمالة بالعين والوثيقة بالنفس ٢٢٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد...﴾ الآية. فيه مسائل:
 التحرر من العين. واجب المسلم إذا أعجبه شيء أن يترك ٢٢٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم...﴾ الآيات ٢٢٨/٩

- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ...﴾ الآيات. فيه مسائل: الكلام على الجمل والكفالة ٢٣١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيات ... ٢٣٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ...﴾ الآية. فيها دليل على جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف الشريعة. للرجل أن يتصرف في ماله قبل حلول الحول إذا لم ينو الفرار من الصدقة ٢٣٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ...﴾ الآيات ٢٣٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ...﴾ الآية. تضمنت الآية جواز الشهادة. الكلام على الشهادات ٢٤٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا...﴾ الآية. فيها دليل على أن للإنسان أن يرفع التهمة عن نفسه إن كان على حق ٢٤٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا...﴾ الآية. الواجب على المسلم أن يتلقى المصائب بالصبر الجميل ٢٤٦/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَىٰ يُوسُفَ...﴾ الآية. الالتفات في الصلاة نقص فيها. أجوبة العلماء عن معنى شدة حزن يعقوب عليه السلام ٢٤٧/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ...﴾ الآيات ٢٤٩/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ...﴾ الآية. فيها دليل على جواز الشكوى عند الضرر. وفيها دليل على أن أجره الكيال والوزان على البائع ٢٥٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾ الآيات ٢٥٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا...﴾ الآية. السجود كان انحناء وقد نسخ في شرعنا. حكم الإشارة بالإصبع في السلام. الترغيب في المصافحة ٢٦٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلِمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾ الآيات ٢٦٩/٩

تفسير سورة الرعد

- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَلَكَ آيَاتِ الْكِتَابِ...﴾ الآيات ٢٧٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي وَأَنْهَارًا...﴾ الآيات .. ٢٨٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿اللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ...﴾ الآيات. اختلاف الفقهاء في حيض الحامل. الحامل تضع حملها لأقل من تسعة

- أشهر وأكثر. اختلاف العلماء في أكثر الحمل ٢٨٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ...﴾ الآية ٢٩١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَرْيَكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ الآيات. بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ ٢٩٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ...﴾ الآيات ٣٠٠/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ...﴾ الآية ٣٠٣/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾ الآيات ٣٠٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ فيه مسألتان: هل الميثاق هنا عام أو خاص. التوكل لا ينافي الأخذ في الأسباب ٣٠٧/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ...﴾ الآيات ٣٠٩/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ...﴾ الآية. سبب نزولها ٣١٧/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ...﴾ الآية. سبب نزولها ٣١٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآيات ٣٢١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾ الآيات ٣٢٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَفَرِيَةً...﴾ الآية. سبب نزولها. هذه الآية تحض على النكاح ٣٢٧/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ...﴾ الآيات ٣٢٩/٩

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ الآيات ٣٣٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ الآيات ٣٤١/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيات ٣٤٦/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْمَدُنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ الآيات ٣٤٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ...﴾ الآيات. ما حكى من تفاؤل الوليد بن يزيد وتمزيقه المصحف ٣٤٩/٩

- تفسير قوله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح...﴾
 ٣٥٣/٩ الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طية كشجرة طية...﴾ الآيات
 ٣٥٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت...﴾ الآية
 ٣٦٢/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرًا...﴾ الآيات. بيان سبب نزولها
 ٣٦٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة...﴾ الآية
 ٣٦٥/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض...﴾ الآيات
 ٣٦٦/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم...﴾ الآية. فيه مسائل: قصة خروج إبراهيم عليه السلام بالسيدة هاجر وبابنها من الشام، ووضعهما عند البيت الحرام. لا يجوز لأحد أن يتعلق بالآية في طرح أولاده بأرض مضية. تضمنت الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها.
 ٣٦٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن...﴾ الآيات
 ٣٧٤/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون...﴾ الآيات
 ٣٧٦/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب...﴾ الآيات
 ٣٧٨/٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات...﴾ الآيات
 ٣٨٢/٩

□□□

